نحو علم اجتماع جديد (*)

• للمستشرق الفرنسي جاك بيرك
• ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني

-٣-

لقد كان هناك نوع من التجريد ، تجريد الانسان من ثقافته وطبيعته ؛ فقد حلت ثقافة دخيلة محل ثقافة أصيلة صنفت ضمن الأدب الشعبي (الفولكلور) او المأثورات ، وعلى كل حال وجدت ارتباطات بالثقافة السائدة .

اما الطبيعة ، طبيعة هذا المحكوم فقد دمغها الحكم الراجح المسيطر Prépondérant بطابعه وذلك بادخاله أساليب التقنية ، واستعمال الوسائل الحديثة سعياً وراء الحصول على مردود تجهله المجتمعات القديمة . فاذا كان الامر كذلك فان **غاية الحركات الاستقلالية تتركز في إعادة تنصيب الثقافة الأصيلة عند الشعوب المحكومة** ، تلك الثقافة التي أهملت من قبل في الظل ، والتي وجب

(*) نشر القسم الاول من هذه المحاضرة التي القاها الاستاذ بيرك في دمشق بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد القومي ، في العدد الماضي من المعرفة رقم ٣٧٥

اخراجها منه لمواجهة مشاكل الواقع ، ولست أعني بذلك الواقع الأدبي ، فهو شيء آخر ، وانما أعني إعادة **الخصوصية الطبيعية الى الثقافة من جهة ، واعادة الخصوصية الثقافية الى الطبيعة من جهة اخرى** ، ومعنى هذا طبع طبيعة الشعوب المتحررة بميسم ثقافي نابع **من ذاتها** ، ومن هنا نشأ المدلول العميق للمحاولات التي لم يجد علماء الاقتصاد الاوربيون عناء في تعريفها عن طريق اصطلاحات اقتصادية ومالية ، والتي كان لها في الحقيقة وقع عاطفي عميق عند الشعوب المحكومة ، لأن تصنيع بلد من البلدان ، ومكننة زراعته هما في الواقع عملية اعادة تثقيف طبيعية، ورد انسانيته له ، وجعلها مشابهة لطبيعتنا .

لقد اخطأت اوروبا الهدف ، بمعنى أنها اساءت ، منذ البداية ، الى امكانيات عملية تركيبية عالمية قدمت لها تحت مظاهر ثلاثة : (١) **الاكتشاف الجغرافي (٢) الاختراع الصناعي** (٣) الغنائية الرومانتيكية ، فعوضاً عن أن تتحد هذه العناصر الثلاثة في تيار مبدع كما كنا نأمل ، وكما كان يأمل الفيلسوفان جان جاك روسو وديدرو ، فقد انفرجت في اتجاهات معاكسة فأصبحت الثورة الصناعيـــة استغلالاً رأسمالياً ، وغدا اكتشاف العالم توسعية امبراطورية Impérialisme ، وأمست الغنائيـــة الرومانتيكية تعويضاً أو هرباً تجاه الحقائق الموضوعية .

واذا ماحللنا هذه العناصر الثلاثة وجدنا رومانتيكية جديدة تحلل ذاتها في شكل جدلي ذي مدركين هما : التاريخي Historique والقاعدي Fondamental ولا ريب في أن العرب في عصرنا هذا تواقون الى أن يكونوا تاريخيين ، مرتبطين بتاريخهم العريق، حتى انهم ينزعون ، دون حق ، الى اهمال كثير من (القدسيات) Sacra[1] التي كان يحرص عليها استاذي لويس ماسينيون ، واعتقد أن هذا الاهمال

ناشيء عن « تاريخية » سطحية تخشى نتائجها لمـــا لها من تأثير سيء على المجموع ، اكثر منها عن نقص في « التاريخية » ذاتها ، لأني اعتقد أن القاعدي الذي تقوم عليه القيم العامة التي يستند اليها شعب من الشعوب هو الذي يدعم التاريخي ؛ فالادراك التاريخي ليس في الاستغناء عن القاعدي بل في توسيعه توسيعاً منطقياً .

— ٤ —

ان في جملة القضايا الجوهرية التي تعانيها البلدان المستقلة حديثاً ، والبلدان المستقلة قديماً على حد سواء ، تجاذباً بين عاملين : **اولهما الاستغناء كلياً عن التراث التقليدي والاندماج في الحضارة الغربية مع تمسك صميمي بفكرة العروبة ، وثانيهما : اعلاء القيم التقليدية الماضية والتمسك بالتراث القديم .**

وفي رأيي أن هذه المشكلة مصطنعة، تقوم على نوع من القطبية Polarité المزيفة ، فان انصار الغرب مصيرهم الاخفاق المحتوم ، وهو مصير كل فكرة آتية من الخارج ، اذ لن يكون لأي تقنية أو وضع عند أمة من الامم ، قيمة ماذا لم تتولها بعمق بالنسبة لذاتها ، واني اعتقد أن حصيلة Recette من العلوم الاقتصادية لا يمكنها أن تجتاز دون مشاكل وعقبات ، بلداً الى آخر ، ويمكنني ايراد عدة امثلة عن حوادث اخفاق نشهدها منذ خمسة عشر عاماً في مختلف بلاد العالم ، فاذا صح هذا القول في مادة العلوم الاقتصادية فما احراه أن يكون أكثر صحة في مادة الحضارة الاخلاقية فليس ثمة مكتسب — وبخاصة فيما له علاقة بالغرب — ذو قيمة الا **في اعادة سبكه وادخاله وضمه من جديد في جملة مكتسبات الحضارة التي يتبناها شعب في اطار شخصيتـــه** العميقة **الأصيلة** التي يجد تعبيرها مقرراً من **خلال استمرار** حياته مع الماضي .

ولكن ماهي — من ناحيـة أخرى — قيمة التقاليد التي لم يطرأ عليها

انقطاع ، ان المـــاضي الذي يفخر به المثقفون المحافظون هو كونه في نضال مع مشاكل الزمن ، فهو اذاً عصري مفتوح على العالم ، وإن تراثاً يلتزم الانغلاق امام « العالمية » والاقامة ضمن انعزالية جزيرية Insulaire ليس بتراث حي ، فهو يعبر عن نفسه بأسلوب مجرد عن التأكيد أو الخلق او في انعكاس يخلو من حرارة، فهو يعرف نفسه بالنسبة الى خصومه الآخرين فهو اذاً غير موجود ، انه انعكاس لفعل ما ، فاذا عرفنا انفسنا من خلال خصومة الآخرين كان معنى ذلك اننا نتردد في وجودنا .

وفي الحق فان كل فرد : وكل مجموع ، وكل حضارة يغمرها سير دائم من الاستمرار والانقطاع ، والخصوصية والعالمية ، وهذا ما أسميه « المــــدار الجدلي في عصرنا » .

— ٥ —

إن القضية الثانية الـــتي تطرح في عالمنا الحالي تتصل من قريب بمفهوم الثورة . إن هذا المفهوم الذي تنشره اكثر الشعوب في سيرها التحرري يشكل بالنسبة لهم ولغيرهم حاجزاً يحول دون الادراك Intelligibilite ، وقــد كثرت الاقوال أحياناً في تفضيل العاطفية وتغليب الهوى على الموضوعية ، تلك الوسيلة الوحيدة في تقييم القضايا حتى اذا ماحللنا من قريب السير التحولي في العصــر الاخير عند الشعوب الشرقية وصلنا الى التفسير الآتي : ان الشرق كابد منذ قرن موجة تجديد عارمة غمرت الأدوات الحضارية ، والمؤسسات،والاشياء ، والكلمات، والافكار ، والاخلاق ، وماذا عساه يصنع لو لم يختزن في عملية تعويضية ، مادة عاطفية هائلة تعينه على التأقلم مع الجواء الخارجية. ان هذه العاطفية اوجدتها

مسوغاتها الشعورية الانصالية وهي التي افادت في ايجاد التنظيم والتوازن الداخليين .

- ٦ -

أما القضية الثالثة في العالم الحديث فهي الجدل القائم حول المتعدد Plural والموحد Unitaire . فان حضارة الاقتصاد التي تنتشر بسرعة متزايدة والتي ستزداد تسلطاً على البشر اكثر فأكثر بعد حدوث الاستقلالات تجر معها نوعاً من المماثلة الكوكبية نجد مظاهرها في الثياب والاشكال والمناظر والتصرفات والملاهي ، فهي تفتح عن نوع من النمطية والتسوية والتفاهة تنتشر بسرعة على كوكبنا الأرضي فتشكل مانسميه بالأممية Cosmopolitisme حتى اننا لانعدم سماع أناس رصناء يشكمون عن هذه القدرية التي تنشر على الارض هذه المجامع الكبرى Ensemble التي تهددنا جميعاً ، شرقيين كنا ام غربيين .ومن الامثلة الجديرة بالذكر ما لحظته عند ابناء وطني الفرنسيين الذين يقومون بحركة بعث تعويضية تهدف الى احياء الخصوصية كلما توضحت امامهم معالم المجانسة العالمية Homogénéisation وسيطرة المجامع الكبرى ، ففي عالم اليوم حيث تنتشر على كوكبنا الأرضي اللغات العالمية كالانكليزية والفرنسية والروسية في شكل تيار جارف لم يعرف له علماء الشعوب له مثيلاً نرى الناس يتحدثون عن الصراع اللغوي وامكان لغة موحدة ، ولن اتعرض للغة العربية فهي لغة كونية Universaliste لها عالمها وطابعها الكلاسيكي وقد استطاعت ، في مدى جيل او جيلين ، وبفضل نهضتها الذاتية ان توجد عند الناطقين بها توازناً عدل من توغل اللغات الاجنبية ، وما مرادي من هذا التحليل المقتضب الا تذكيركم بوجود هذا السير المعوض ، فاذا صح هذا وصلنا الى مسألة هي ان الكائن الحديث سواء في الشعوب

اوالاقرابمكونمن هذا **التوازن** المزدوج ، اولها : النزعة الى **الفاعلية** Efficacité وهي فاعلية مطابقة لشروط العالم الصناعي وفي الوقت ذاته معوضة عن الأصالة التي لولاها لما كانت هذه الفاعلية شيئاً ، وثانيها : **النزعة نحو العالمية** . ولاريب في ان هذه العالمية قـد تكون اساس عصرنا الاخلاقي ، ولكنها نزعة ملازمة **لبعث الخصوصية وتشخيص الذات** بواسطة نقيضتين مزدوجتين او مزيفتين وهذا ما اسميه **التشابك** الجدلي في عصرنا .

واذا ماحاولنا تطبيق هذه التبيانة Schéma على بساطتها وسرعتها على التجربة العملية لعديد من الشعوب والأفراد وجدنا أنها تحمل نصيباً كبيراً من الحقيقة ، ثم علينا بادىء بدء ان تستخرج تلازماً آخر من مجموع تلك الملاحظات منهـا ان اكتساب الوسائل الخارجيـة او تلك العملية القائمة على التأثير وما يقابله من ردود الفعل يتم عند الشعوب العريقة الاستقلال ، او كما في أيامنا عنـد الشعوب الحديثة التحرر ، اقول : يتم هذا الاكتساب عن طريق تسلط **بعض مراكز القوى الصناعية والثقافية على مناطق اكثر قبولاً وتعرضاً للعطب** . واذا ما تساءلنا عن كيفية حدوث هذه العملية والاسس التي تقوم عليهـا وجدنا ان المؤرخـين وهموا ـ وذلك بتأثير من النظرات الآلية ، واعتقادا رتياني ذي حتمية بسيطة وسببية مادية ـ **بأن المجتمعات** تصدر في جميع التغيرات التي تطرأ عليها ، عن **التأثيرات الخارجية والمحيط الذاتي** ، وان هذه الشعوب المتحررة اليوم تؤلف حسب محاكمة جدلية بسيطة الجانب المقابل السلبي الذي تلقاه من التوسع الاستعماري . ولاريب في أن هذا الرأي قد اعتنقته جملة من مدارس المفكرين و تنشره على الناس حتى امتد هذا التحليل رويداً رويداً الى جميع الاوساط الى حد اوجب طرح سؤالين خطيرين أغفل طرحهما طويلا وهو : ماهي حدود صراع

النفوذ الخارجي والمعارك الحادة ، وهذه التاريخية العنيفة التي عمت الشعوب منذ بداية القرن التاسع عشر ؟ والى اي حد وصل هذا الصراع الى اعماق الكائن الاجتماعي والشخصية الباطنية ؟

وتحضرني في هذا المجال مثال شهدته في احدى رحلاتي الى الجزائر ، فقد نقل الي ان امرأة جزائرية من سكان الهضاب العليا على اطراف الصحراء قد توفيت عن مائة سنة ، وان هذه السيدة لم تقع عينها ، طوال عمرها المديد – على اوروبي ! انه خبر طريف لهج به الناس في الجزائر ، مما دعاني الى التساؤل عن الحقائق الخفية في المجتمعات المذكورة ، وسبب هذا الخفاء هو ان هذه الحقائق قد جهلها التدخل الخارجي إما لوجودها في مستويات بلغت من العمق حداً استحال على التدخل الخارجي الوصول اليه ، أو لأنها شكلت نوعاً من الدروشة والانطواء جعلاها في معزل عن هذه التأثيرات ، وبعد أفليس ثمة حقائق اجتماعية ونفسية ظلت في منجى عن عملية «تاريخية» القرن التاسع عشر ؟ اني اعتقد بالايجاب ، كما اعتقد بأن تاريخاً منصفاً نزيهاً يستطيع من خلال تحليل النظم تحديد ما خضع للفعل والانعكاس مما لم يخضع لها . فاذا صحت هذه الأقوال امكنكم بسائق التلازم ان تطرحوا علي الاسئلة الآتية : من اين استمدت الحركات التجديدية ؟ هل اغترفت من الطبقات التاريخية ام غير التاريخية ، وهل اغترفت من المحيط الدائري للأنا الاجتماعي ام من اعماقه ؟ فاذا كان هذا صحيحاً بدا لنا بحكم التلازم تساؤل آخر وهو : هل مدار الامر في الاهتمام او عدمه بهذه المستويات الداخلية ؟ ان هذه المسألة هي في دراسة علاقات بعضها بالآخر ، انه لتطبيق عملي لحقيقة معترف بها اليوم وهي انه ليس ثمة حصيلة في التطور الاقتصادي ، او اقتباس العصرية الحديثة تغدوان مقبولتين إذا لم يتحمل الشعب اعباءهما ، ويتقلد مهامهما ، ويعيد اختراعها وسبكها من جديد ، لقد ثبتت صحة هذا القول في

موضوع الاقتصاد والتخطيط ، فعلى كل شعب أن يعيد ابتكار مناهجه التخطيطية ، وأن يكيفها من أجله ، وبوسائله الذاتية ، وليس من شيء جديد بالدوام إذا لم يعد النظر فيه ، ولم يحسن ضمه الى الذات ، وليس المهم في الامر ماهو مصنوع بل لمن صنع . وليس ماهو متحرر ، بل مايتحرر عن طريق الخلاص من الاستعمار ، وأعتقد أن مثل هذه النظرة تستدعي عدداً من مظاهر التجديد لا في تحليل أدوار ماقبل التاريخ بل في مناهج العلوم الاجتماعية ، لأن الأمر لايتناول عملية تبادل التأثيرات السلبية والايجابية مع العالم الخارجي بل في تفاعل الطبقات الداخلية لشخصية عميقة ، أوالطبقات السطحية المتأثرة بالعالم الخارجي ، وعند ذلك نهمل فكرة السببية والحتمية التبيانية ، وهذا ما يحملنا على ارجاع انواع متعددة من الفئات الاجتماعية التي تجاهلها قليلاً التحليل السطحي ، الى اوضاعها السابقة ، وبعبارة أصح فاننا مجبرون على أن نضع الى جانب النسبي والسببي ، الاشارة والرمز (اللغة) وهذا تطبيق عملي لما قلته .

- ٧ -

إنكم تعلمون اثر اللغة « الكلاسيكية » في تحرر الشعوب ، إن هذه الظاهرة مدعاة لدهش الاوروبيين ، فان النظريات لأعجز من أن تفسر هذه الظاهرة الغريبة بواسطة « التاريخية » Historicite . قالوا : إن اللغة بُنْيَة فوقية Superstructure ، والمهم في هذه التسمية هي كلمة البُنْيَة ، وقد كان يكفي منذ خمسين عاماً مثلا أن يعاد تنظيم البُنْيان الاقتصادي في بلد ما ، وأن تدبر الأمور لكي تتم الفائدة المتبادلة ، ويتم التوفيق بين البنيات الفوقية ، وفي أيامنا هذه ، ومن خلال مصطلح سياسي أسموه « الاستعمارية الحديثة » Néo - Colonialisme نسمع كثيراً عن أمثال هذه النظريات التي تهمل أهمية

الرمز والاشارة (اللغة) فان نهضة اللغة والكلاسيكية ، في بلد كافريقيا الشمالية ، واستنادها الغريزي الى النهضة الشرقية ، والى مظاهر تجـدد اللغة العربية العظيمة في بلاد مثل مصر وسوريا ولبنان ، **عامل فعال في التحرر** ، واليوم توطدت في الجزائر دعائم حركة اصلاحية أخلاقية وأدبية معاً ، تبرىء نفسها من السياسة ، تلك هي حركة الشيخ **عبد الحميد بن باديس** ، وتعد هذه الحركة من العوامل الاساسية في تحرر الجزائر . أقول هـذا لأدلكم على أثر الرمز والاشارة (اللغـة) . وهناك شيء آخر أساء الاجانب فهمه وتأويله وهو دور المثقفين ، فقد انقضى زمن ـ وهنا اقتبس الأمثلة من حياة المغرب العربي ـ قامت فيه القومية المغربية على عواتق عشرين شخصـاً من الشبان المراهقين ، كانوا مراهقين في ثقافتهم الغربية والاسلامية معاً ، وكان نصيبهم من « التاريخية الغربية والسياسة الغربية » ضئيلا ، ومع ذلك استطاع هؤلاء الشبان أن يحرروا بلادهم ، ولم يتم » هذا العمل دون الاعتراف من حركة شعبية في زمن كانوا فيه عاجزين عن تجسيد أمانيهم الوطنية .

— ٨ —

ان هذا الكلام يقودنا الى موضوع الطبقة المثقفة « Intelligentsia » التي سأتكلم عنها دون الاشارة الى أي طبقة معينة . لقد اسيء طويلا تفسير كلمة المثقف ، حتى ان النظرية الماركسية ذاتها لم تفرد له مكاناً خاصاً ، فاعتبرته عنصراً مادياً ، وفي الواقع فان المثقف بصفته عاملا ماديا لا قيمة له ، أما من الوجهة التمثيلية Representatif فان أقل دجاجلة السياسة شأناً لأكثر تمثيلا منه ، واني اعتقد ان قوة المثقفين ستزداد شدة وامتداداً في عالم الغد تبعاً للقضايا العويصـة التي ستطرح أمام هذا العالم والتي أخذنا نشعر بها ونتوجه اليها . ولا استطيع أن

أوسع أمامكم المنظور الذي حاولت باقتضاب رسم خطوطه والذي نشأ عندي تبعاً لممارسة طويلة لقضايا زمننا ، وانها لقضية عالمية آخذة في الظهور يجب علينا حلها كما تحل بقية القضايا في اطار العمل والمعرفة ، ذلك أن سير العالم يسبق نظرياته ، وتلك ظاهرة كثيرة الحدوث ، وأنتم تذكرون دون ريب أن الثورة الفرنسية لم تكن لها نظريات في مستواها ، وأن فيخته أحد فلاسفة الألمان الرومانتيكيين قال : « ان أفكار اليعقوبيين وجرأتهم لم تجد مثيلها في نظرية موضوعة ، وان هذه النظرية لم توجد في فرنسا ولا في الأجيال الحالية بل أوجدها بعد زمن طويل فلاسفة ألمانيا الرومانتيكيون ، فالثورة الفرنسية من جهة ، وفلسفة فيخته وهيجيل وغيرهما من جهة ثانية تدلان على امكانية وجود زيحان Décalage بين العملي والنظري ، واني اعتقد أن نظرتنا الى العالم الحالي ليست على مستوى هذا العالم ، فقد تخطانا هذا العالم في هذا التدفق التكنولوجي الخارق للعادة والذي يبقينا أمامه مبهورين من جهة ، ومن ناحية أخرى - وهذا ما تجدر ملاحظته - شغلنا بالقضايا العميقة التي لم نستطع بعد تبين خطوطها الأساسية .



التخلف الاقتصادي
ومفهومه المبهم (*)

• بقلم شارل بتلهيم
• ترجمة الدكتور هشام متولي

— ٢ —

ب — الاستغلال :

من المؤكد انه ضمن إطار العلاقات الاستعمارية حيث تكون بعض البلدان ، بموجب هذه العلاقات ، تابعة لسيطرة بعض البلدان الرأسمالية الكبيرة ، لاتكون المحافظة بأي ثمن على تبعية البلدان التابعة في مجالي الارتباط التجاري والمالي غاية يهدف الى تحقيقها بحد ذاتها . اذ أن الغاية الموجودة من هذه التبعية هي تحقيق اكبر حد ممكن من الربح المتشكل نتيجة لتوظيف رأس المال الاحتكاري ، أي التوصل الى أعلى حد ممكن في استغلال البلدان التابعة عن طريق رأس المال الاحتكاري العائد لبلد أو بلدان ذات هيمنة وسيطرة .

(*) الجزء الثاني من مقال شارل بتلهيم ، المنشور في عدد المعرفة الماضي رقم (٣٧)

وهكذا فاننا هنا نمسك بالجذر الأساسي والرئيسي لوضعية البلدان المنعوتة « بالتخلف ». ان هذه البلدان تعتبر متخلفة لأنها بلدان خاضعة، تابعة ومستغلة. فالأمر الجوهري الذي تجدر ملاحظته بصدد هذه البلدان إذن ليس هو ضعف أو ضآلة نمو طاقاتها الانتاجية، ذلك لأن هذا الواقع هو أمر ثانوي، انه نتيجة لتبعية هذه البلدان وكونها خاضعة لنير الاستغلال.

لذلك فانه من المهم أن نقف عند مختلف أشكال الاستغلال الذي تتعرض له البلدان الخاضعة او التابعة.

١ ـ الاستغلال المالي :

ان الاستغلال بواسطة رأس المال المالي هو الظاهرة الأسهل تحديداً لهذا النوع من الاستغلال. ويظهر ويتضح هذا النموذج للاستغلال، من النظرة الاولى، بكبر مقدار الاقتطاعات التي تتحقق لمصلحة رأس المال الاجنبي على منتجات البلد حيث يكون رأس المال هذا مثمراً. وتتألف هذه الاقتطاعات من الارباح المتحققة لرأس المال، ومن الفوائد المجبية، أو من العائدات المقبوضة. ان جزءاً من هذه الاقتطاعات، ذلك الذي تتولد عنه عملية التحويل للأموال للخارج، يبلغ المقدار الذي بلغه ميزان الحسابات. أما الجزء الآخر فيجري تراكمه محليا ويزيد، في الوقت ذاته، من مقدار مديونية البلد الخاضع للاستغلال، وذلك بصورة مستقلة عن كل مساهمة فعلية لرأس المال الاجنبي في عملية تراكمه داخل البلد.

ويمكن اخذ فكرة عن المقدار الكبير للاقتطاعات من النموذج الاول بمعرفة انه خلال الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ بلغ وسطي الدولارات المقبوضة تحت هذا الاسم من قبل المراكز المالية الاستعمارية الرئيسية، والتي تمثل المملكة المتحدة، فرنسا، البلاد الواطئة، بلجيكا والولايات المتحدة، من البلدان المستقلة والخاضعة للاستعمار أو شبه الاستعمار، أكثر من ثلاثة مليارات من الدولارات كل عام. وان هذا المبلغ يزيد كثيرا عن المبالغ التي تحولها هذه البلدان نفسها الى البلدان المنعوتة « بالتخلف » بغرض تثميرها في مشاريع انتاجية.

ويعني الكلام المتقدم **أن البلدان المنعوتة « بالتخلف » قد تحملت عبء هذه التحويلات المالية بأن صدرت أكثر مما استوردت**. كما انه يعني، من جهة أخرى، أن سبب زيادة مديونية البلدان المنعوتة « بالتخلف »، خلال الفترة المذكورة، إنما يعود، وبدرجة كبيرة، الى النموذج الثاني من الاقتطاعات، أي ذلك الذي يؤدي الى ان يعاد تثمير جزء من الارباح المتحققة في البلدان الخاضعة للاستغلال في هذه البلدان من قبل رأس المال الاحتكاري الاجنبي. ان تقدير الحجم الكبير والحقيقي لحصيلة هذا النموذج من الاستغلال

يستوجب دراسة طويلة ودقيقة . ومع ذلك من الممكن الملاحظة انه في بعض البلدان ، مثل الهند يكون مقدار المبالغ المحولة تحت اسم أرباح مدفوعة لرأس المال الاجنبي مشكلا جزءاً من الارباح المحققة محلياً نتيجة لتشغيل رأس المال هذا نفسه . وهذا يعني بالبداهــة تصور التزايد المستمر للاقتطاعات التي يجري تحويلها ، حتى في الحالة التي تظل فيها نسبة الاقتطاعات الى إعادة التثمير ثابتة . واذا لنجد هنا صورة عن التزايد ـ الفائق للاستغلال المالي .

واذا كانت ظاهرة الاستغلال المالي للبلدان الخاضعة للاستعمار ، والتي كانت مستعمرة ، أو التي هي شبه ـ مستعمرة ، هي الظاهرة الاكثر جلاء ووضوحاً ، فانها بعيدة عن أن تكون الوحيدة ، فضلا عن أنها ليست أهم انواع ونماذج الاستغلال لا كماً ولا كيفاً .

٢ ـ الاستغلال التجاري

والشكل الآخر لاستغلال هذه البلدان هو ذو طابع تجاري . انه نتيجة لعملية تبادل لايكون الاطراف فيها على قدم المساواة . فأسعار المنتجات التي تبيعها الدول الصناعية للبلدان الخاضعة للاستغلال غالباً ماتكون أعلى من قيمتها الفعلية . والطرق التي يمكن بواسطتها فرض أسعار مرتفعة للمنتجات المباعة هي عديدة ومعقدة . وبما انه ليس لي أن أتناولها بالتفصيل هنا ، فاني سأضرب عنها بعض الأمثلة .

بصورة عامة ، يلاحظ أن الدرجة العالية لنمو وتطور النظام الرأسمالي وأجهزته الانحصارية (الاحتكارية) تفسح المجال أمام الصناعة الكبيرة والمركزية للبلدان الاستعمارية لأن تبيع انتاجها بأسعار تتضمن معدلا للربح أعلى بكثير من المعدل الوسطي للربح . أما في البلدان المنعوتة «بالتخلف» فيلاحظ أن المركز الذي يحتله رأس المال الاحتكاري الاجنبي اقوى بكثير من المركز الذي يحتله في البلدان الصناعية نفسها . وما ذلك الا نتيجة ، على الأغلب ، للسيطرة السياسية التي يمارسها الاستعمار على البلد المستعمر أوشبه المستعمر . ذلك أن هذه السيطرة تمنع عملياً المؤسسات والمنتجين في البلدان الخاضعة للاستغلال من شراء السلع من لدن منتجين صناعيين آخرين غير التابعين للبلد الذي يفرض سلطته الاستعمارية المهيمنة . ويؤدي ذلك الى تقوية المركز الاحتكاري الذي

تتمتع به هذه الدول المسيطرة . ويؤدي ادخال بعض الدول التابعة في منطقة نقدية اومنطقة جمركية الى نتيجة مماثلة ، ولكن بأسلوب اكثر مرونة . بل إن دخول دول تابعة في منطقة نقدية من شأنه أن يؤدي الى عزلها عملياً عن السوق العالمية . وفي هذه الحال نجد أن رأس المال الاحتكاري للدولة المسيطرة يعطي صورة خادعة من أنه يدفع ثمن منتجات البلد الخاضع للاستغلال بسعر أعلى من السعر المعمول به في السوق العالمية . ولكن الحقيقة هي أن البلد الخاضع للاستغلال يدفع ، على وجه العموم ، ثمناً غالياً لهذه الميزة لأنه يكون الطرف الخاسر في عملية بيعه لمنتجاته للبلد المهيمن وشرائه للسلع التي يصدرها له هذا البلد الاخير .

وانه لمن المهم الاشارة أن طريقة أو آلية سير عملية الاستغلال بواسطة الاسعار لاتستوجب دوماً توفر التبعية السياسية من قبل الدولة الخاضعة للاستغلال ، بل لا تستوجب حتى مجرد ارتباطها بمنطقة نقدية أو جمركية تسيطر عليها احدى القوى الاستعمارية أو مجموعة من هذه القوى . اذ يمكن لهذا الاستغلال أن يكون نتيجة ، وعلى الاغلب هو كذلك ، للمراكز المهيمنة التي تحتلها في البلدان الخاضعة للاستغلال الشركات التجارية والمصارف التي تكون بدورها شديدة الارتباط ، ووثيقة الصلة برأس المال الأجنبي الصناعي التابع لبلد استعماري معين . وتتبع هذه الشركات والمصارف سياسة لا بد منها للبلدان التابعة من أن تستمر في أن تتمون ، رغم أن الاسعار لا تكون بحد ذاتها ، من الاحتصارات او الاحتكارات الصناعية الكبيرة التي ترتبط بها هذه الشركات والمصارف . والمثال النموذجي على ذلك هو المركز المهيمن الذي تحتله المنتجات الصناعية المرتفعة الثمن التابعة للولايات المتحدة في أسواق أمريكا الجنوبية .

ان استغلال البلدان التابعة عن طريق آلية الأسعار ، أي بطريق التبادل التجاري غير القائم على أساس المساواة بين الأطراف ، إنما ينتج غالباً عن شراء منتجات هذه البلدان بأسعار أقل من قيمتها ، وذلك بسبب كون السوق المحلية المنتجة لهذه المنتجات تخضع لسيطرة شركة رأسمالية أجنبية كبيرة أو عدة شركات كبيرة متفقة فيما بينها . والمثال التقليدي على ذلك هو شركة الفواكه المتحدة United Fruit في أمريكا اللاتينية . كذلك وضع الـ Unilives في افريقيا (وخاصة المناطق الناطقة بالانكليزية والكونغو البلجيكي) والشركات التجارية الافرنسية في المستعمرات الافرنسية القديمة .

ومن البداهة الاشارة الى استحالة تقدير القيمة النقدية لهذا الاستغلال الذي تخضع له البلدان التابعة . ولأخذ فكرة عامة وتقريبية عن المقدار النقدي لهذا الاستغلال ، يكفي أن نذكر انه خلال منتصف الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ كان المقدار السنوي الوسطي لصادرات

وواردات البلدان المنعوتة « بالتخلف » يعادل تقريباً ٦٠ مليار دولار . فاذا افترضنا أن هذه البلدان كانت تخضع لشروط في التبادل غير متكافئة بنسبة تعـادل فقط ١٠٪ من مجموع قيم مبادلاتها الخارجية (والنسبة ١٠٪ هي حد أدنى وهي بدون شك أقل من الحقيقة بكثير) ، فانه يمكن تقدير المقدار السنوي المقتطع من قيمة انتاج البلدان التابعة تبعاً لهذا النموذج للاستغلال بـ ٦ مليارات من الدولارات .

هذا وان الطرق التي تستخدمها البلدان الاستعمارية تعمد الى اتباع أساليب لا يمكن معها للبلدان التابعة أن تزيد وارداتها النقدية بشكل معتبر نتيجة لتصديرها لمنتجاتها . واننا لنجد في أغلب الأحيان انه عندما يزداد حجم المنتجات التصديرية لهذه البلدان ، فان الاسعار التي تدفع ثمناً لها تنخفض لدرجة لا يمكن معها للوارد المالي للبلدان التابعة أن يزداد زيادة كبيرة . ان لم ينقص.

حقاً لقد عقدت بعض الاتفاقات الدولية حول عدد محدود من المنتجات الأولية الهدف منها تأمين ثبات أسعارها . ولكن هذه الاتفاقات المعقودة تحت ضغط حفنة من المنتجين الكبار أو الاستثمارات الرأسمالية الكبيرة العاملة في حقل التصدير ، هي بدائية ولا تؤدي الى ادخـال تغييرات جوهرية : فلا تزيل الغبن الأساسي الناتج عن علاقات الأسعار ، كما أنها لا تغير في الاتجاه الذي سبق تحليله .

وان تطور التجارة الخارجية الدولية خلال السنوات الأخيرة يؤكد أن الطرق التي تقدم وصف سيرها مازالت مستمرة وفق الاتجاه نفسه ، بل انها ساهمت في زيادة نسبة الاستغلال الذي تتعرض له البلدان المنعوتة « بالتخلف » . وهكذا فانه بين ١٩٥٤ — ١٩٦٠ هبطت معدلات التبادل للبلدان المنعوتة « بالتخلف » بنسبة ١٠٪ .

وهذا يعني ، كما هو معروف ، أن على هذه البلدان ان تصدر عام ١٩٦٠ بضائع تزيد بنسبة ١٠ ٪ عن الحجم الذي صدرته عام ١٩٥٤ من أجل ان تستمر في استيراد حجم المنتجات ذاته الذي كانت قد استوردته خلال هذا العام الاخير . وتبعاً لهذا الهبوط الجديد في الاسعار ، فان البلدان المنعوتة « بالتخلف » خسرت عام ١٩٦٠ حوالي ٣ مليارات دولار أكثر مما خسرته عام ١٩٥٤ على حساب مبادلاتها الخارجية . وهذه المليارات الثلاثة تضاف طبعاً الى الخسائر التي سبق لهذه البلدان أن تعرضت لها بسبب عامل عدم التكافؤ في المبادلات الخارجية ، هذا العامل الذي يتزع بدوره نحو الزيادة .

ان هذه الأوضاع التي تتعرض لها « البلدان المتخلفة » هي كالبثور . وانه بالقدر الذي تتضخم فيه هذا البثور ، بالقدر الذي تتضاءل فيه امكانيات التنمية الاقتصادية في هذه البلدان .

وانا عندما نستعرض كل ماقدمنا قوله ، من وقائع ، نلاحظ كم هو خادع ومبهم اصطلاح « البلدان المتخلفة » . وفي الحقيقة انه يجب الكلام عن هذه البلدان ليس فقط على أنها بلدان يستغلها الاستعمار ، بل يخنقها ايضا .

ان أرقام التجارة الخارجية لهذه البلدان الخاضعة للاستغلال خلال الفترة ١٩٥٧ — ١٩٦٠ تضع الحقيقة المتقدمة الذكر تحت الاضواء الكاشفة . فخلال الفترة المذكورة، **زادت هذه البلدان قيمة صادراتها بنسبة ١٠٪ . ولكن هذا الوضع لم يمكنها من المحافظة على مستوى مستورداتها في حين كان يتوجب عليها معه زيادة هـــذه المستوردات من أجل التمكن من اقامة صناعة محلية .**

وهكذا فان الواقع يوضح لنا أن هذه البلدان ، رغم زيادتها لصادراتها ، قد اضطرت الى انقاص مستورداتها في الوقت ذاته الذي ازدادت فيه مديونيتها الخارجية بمقدار ١١ مليار دولار ، وذلك بغض النظر عن التزايد الهائل للديون السابقة ! وهذا ما يفسر قولنا من أن اقتصاد هذه البلدان هو اقتصاد مخنوق .

سأضيف هنا بأن اختناق اقتصاد البلدان التابعة ، او محاولات خنقه ، لا ينتج فقط عن سير طرق آلية ، بل ايضاً عن قرارات متخذة عن وعي وشعور . فالامر يتعلق بمحاولة ارادية لخنق اقتصاد البلدان التي تحاول ان تتحرر . فالتلاعب بمقدرات الاقتصاد الكوبي عن طريـــق التحكم بانتاجه الرئيسي الذي هو السكر ، اصبح امراً معروفاً . وهناك مثـال احدث يتعلق بالبرازيل . فمن المعروف انــه اعتبـــاراً من شباط عام ١٩٦١ حاول الرئيس البرازيلي كادروس Guadros أن يزيد من عدد الاسواق الخارجية التي يمكن لبلاده ان تتعامل معها عن طريق عقد عدد من الاتفاقات التجارية مع البلدان الاشتراكية . ولكن التهديد الامريــكي « بالخنق » سرعان ما تجسد : ودار الضغـط الامريــكي حول المنتوج الرئيسي للبرازيل الذي هو البن . وهكذا فانه خلال الفترة شباط ـ حزيران عام ١٩٦١ نقصت المشتريات الامريكية من البن بما يقارب ٩١٢ ألف كيس على اعتبار الكيس يزن ٦٠ كــغ ، وهذا النقص هو بالنسبة للفترة المقابلـــة للمشتريات الامريكية من المادة ذاتهـــا من البرازيل عام ١٩٦٠ .

وغطت الولايات المتحدة هذا النقص بزيادة مشترياتها من غواتيمالا ، فنزويلا ، كوستاريكا ، الباراغواي ، وافريقيا البرتغالية . وبذلك فان مستوردات الولايات المتحدة من البن قد ازدادت خلال الفترة المذكورة بمقدار ٧٣٧ كيسا .

ان هذه الحقائق تبين الى أي حد يكون هناك مبرر للتحدث عن « البلدان ذات الاقتصاد المخنوق » اكثر من مجرد القول انها « بلدان متخلفة » . وان ذكر هذه الحقائق لضروري لفهم وادراك النزوع نحو جمود التنمية الاقتصادية لعدد كبير من البلدان التابعة .

د — الجمود :

من الأمور الملاحظة بشكل طبيعي بطء نمو وتطور البلدان « المتخلفة » . كنا ذكرنا ان بعض الاقتصاديين البورجوازيين حاول تقديم تفسير سطحي لهذه الظاهرة بالتحدث عن « الحلقة المفرغة للتخلف » . ان هذا التفسير مجرد عن المضمون العلمي ، شأنه في ذلك شأن تعبير « التخلف — الاقتصادي » ذاته . أما واقع البطء الشديد للتنمية في البلدان التابعة فهو أمر لاشك فيه . لذلك لابد من تفسير أسبابه .

وليس من الصعب علينا أن نجد هذا التفسير عندما ننطلق من حالتي التبعية والاستغلال اللتين تطبعان البلدان المنعوتة « بالتخلف » . وهذا الوضع المذكور لهذه البلدان هو الذي يكمن وراء جمود حركة التنمية الاقتصادية لهذه البلدان . وهناك أشكال مختلفة وعديدة تسير ضمن اطار هذا الوضع لتشكل عقبة في وجه التنمية الاقتصادية ، وبالتالى تعمل على تجميده. لذلك فانه من الضروري القاء نظرة سريعة على مختلف المظاهر المؤدية الى تجمد عملية التنمية .

وبغاية التبسيط ، فسأعمد الى تصنيف مختلف العوامل المؤدية الى تجميد التنمية الاقتصادية في البلدان النامية « بالبلدان المتخلفة » في زمرتين : العوامل الخارجية والعوامل الداخلية .

١ — العوامل الخارجية :

يمكننا أن نميز بين نوعين لهذه العوامل الخارجية : تلك التي تؤثر بشكل عفوي ، وتلك التي تكون أقل أو أكثر منهجية .

هناك عامل عفوي ، ذو تأثير كبير ، يؤدي الى تجميد التنمية ويتألف من الاقتطاعات

التي تذهب ضحيتها البلدان التابعة . فاذا افترضنا ان الاقتطاعات المالية لوحدها تؤدي الى عملية تحويل للأموال ، وان الاقتطاعات المرتبطة بعمليات التبادل غير متكافيء الاطراف يبلغ حدها الأدنى تسعة مليارات من الدولارات سنوياً ، وذلك خلال منتصف السنوات العشر المنصرمة كما هو مذكور أعلاه ، لاحظنا أن هذه الاقتطاعات تمثل مقداراً يقتطع سنوياً من كل فرد من سكان البلدان المنعوته « بالتخلف » ويبلغ أكثر من ٥،٤ دولار . ومن الممكن اعتبار هذا المبلغ ضئيلا . ولكنه في الحقيقة مرتفع كثيراً . اذ أنه اذا ما اضيف مقداره الى المقدار السنوي الذي ترصده هذه البلدان لعمليات التثمير والمشاريع الكبرى ، فانه يؤدي الى زيادة هـذا الرصيد المخصص للتثمير بنسبة ٥٧٪ ، الأمر الذي يمكن من ضرب معدل زيادة الدخل القومي لهذه البلدان بـ ١،٧ على الأقل .

والى هذا العامل الخارجي العفوي المؤدي الى تجميد التنمية في البلدان المنعوتة بالتخلف يضاف العامل الأقل او الاكثر منهجية لرأس المال الاجنبي القدير للحد من نمو الطاقات الانتاجية في البلدان التابعة . ويمكن تفسير ذلك بأن استقلال هذه البلدان يكون اسهل بالقدر الذي تكون فيه اضعف واقل تصنيعاً واكثر تخصصاً في تصدير منتوج او اثنين . والعامل المنهجي المؤدي الى تجميد سير عملية نمو البلدان التابعة اشكال مختلفة : احتكار أو الاحتفاظ بأفضل الاراضي ، فرض الحصار على المناجم التي تصدر منتجاتها كمواد الخام ، استخدام مختلف الوان التأثير الذي يتحقق عن طريق سيطرة الاجهزة السياسية ، والعسكرية ، والنقدية ، والمالية والتجارية .. الخ .

وهذا العامل ، ذي المصدر الخارجي ، والمؤدي الى تجميد سير عملية التنمية ، تأثير أكبر عندما ينضم اليه تأثير العوامل الداخلية التي تسير ضمن اطار الخط المذكور .

٣ ـ العوامل الداخلية :

وترتبط هذه العوامل الداخلية المؤدية الى ايجاد الميل نحو تجميد سير عملية نمو البلدان المنعوتة « بالتخلف » بحالتي تبعية هذه البلدان واستقلالهـا . فهي اذن تقوي تأثير العوامل الخارجية .

وهذه العوامل الداخلية ، المتصلة فيما بينها اشد الاتصال ، ذات طبيعة اقتصادية وتقنية ، واجتماعية وثقافية .

والعامل الاقتصادي الاساسي هو ضعف او ضآلة عملية تراكم رأس المال . وهذا الضعف شديد لدرجة لايمكن الدخل القومي معها من ان يزداد الا بشكل اقل او اكثر من معدل زيادة السكان .

حقاً ان ضآلة تراكم رأس المال ناتجة جزئياً ، كما قدمنا ، عن اهمية مقدار الاقتطاعات الخارجية . ولكنها ناتجة ايضاً عن المستوى المنخفض لانتاجية العمل . وهذا المستوى المنخفض الناتج عن عدم كفاية التراكم لرأس المال في الماضي ، لايمكن من الحصول الا على فائض اقتصادي على غاية من الضآلة ، اي على مستوى ضعيف جداً للتثمير .

وان ضعف عملية تراكم رأس المال هذه يضاف عدم انتاجية استخدامه . ويعود سبب عدم الانتاجية بجزء منه الى تأثير العوامل الخارجية ، وخاصة تلك التي تسد الطرق في وجه امكانية التصنيع . ولكنه يعود ايضاً الى تأثير العوامل الداخلية كوجود البطالة ، والاستخدام الناقص ، والمعدل المنخفض للاجور الذي يجعل من التثميرات التي يمكن لها ان تزيد من انتاجية العمل ، تثميرات ذات مردود ضئيل بنظر المشروع الخاص . وهنا نجد احد اسباب البطء الذي يتحقق على اساس التقدم التقني في اغلب البلدان المتروكة « بالتخلف » .

ويزيد من تأثير العوامل المذكورة تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية .

فعلى الصعيد الاجتماعي ، يرتبط بطء نمو الطاقات الانتاجية بالاحتفاظ والمحافظة على الدور الرئيسي الذي تقوم به الطبقات أو الفئات الاجتماعية التي تم تشكيلها خلال مرحلة ماقبل الرأسمالية pré - capitaliste . فكما هو معروف ، لاتندفع هــذه الطبقات والفئات وراء تبني الاساليب والطرق التقنية الحديثة ، كما أنها لاتنطلق في عمليات تثميرية انتاجيـة . فالفقراء من هذه الطبقات أو الفئات غير قادرين على القيام بمثل هــذه العمليات ، أما الاغنياء فينفقون أموالهم على وسائل التفخفخة والترف ، هذه الوسائل التي تعتبر دليلاً على القدرة والسلطان ، ورمزاً للعظمة في المجتمعات في مرحلتها لما قبل المرحلة الرأسمالية .

ولابد من الاشارة الى أن مايميــز وضعية الطبقات المهيمنة لفترة ماقبل الرأسمالية في البلدان التابعة والتي هي عرضة للاستغلال ، هو السند والتأييد السياسي الذي تتلقاه هذه الطبقات من طرف الاستعمار ، وذلك من اجل أن تساهم في تجميد التنمية والحد منها . وبذلك فانها تتوصل غالباً الى الحصول على بعض المميزات الاقتصادية نتيجة للسيطرة الاستعمارية ، وبالتالي فانها لاتعارض هذه السيطرة معارضة جدية وصلبة ، كما تفعل ذلك الطبقات التي هي عرضة للاستغلال . وبالمقابل فان البورجوازية الوطنية ، لدى تشكلها ، لاتقف في وجه السيطرة الاستعمارية إلا مع

بعض التردد نظراً لارتباط مصالح بعض فئاتها بالاستعمار ، وخوفاً من يقظـــة وتحرك القوى الاجتماعية التي يصبح من المستحيل مراقبتها والوقوف في وجهها .

وأخيراً فان هناك عوامل متعددة ، على الصعيد الثقافي ، من شأنها الحد من سير عملية التنمية . ويمكن الاشارة الى بعض هذه العوامل : العقلية الاتكالية و « الروتينية » ، واحترام التقاليد ، واحتقار العمل اليدوي ، وفقدان الثقة بالمستقبل ، ضعف الشعور بالمسؤولية ، جهل وسائل وإمكانيات التقدم التقني .

على أن هذه العوامل الثقافية لا تلعب دوراً مستقلا تام الاستقلال في الحـــد من سير عملية التنمية . إنها ترتبط في الواقع بوجود وضع من شبه الجمود لحياة الاقتصادية ، وبحالة الخضوع للتحكم الاستعماري والاقطاعي ، وبالسلوك العام للطبقات المهيمنة في المجتمعات التي مازالت تمر بمرحلة ماقبل الرأسمالية ، وبالبنيان او التركيب الاجتماعي القائم على اساس التسلسل الاداري « البيروقراطي » الشديد ، وبالفكرة السائدة أن مصير البلد التابع لا يتقرر محلياً ، وبالمستوى الضعيف لنظام التعليم الذي هو بدوره انعكاس للبنيان الاجتماعي ولحالة التبعية .

وهكذا نرى أن عديداً من العوامل المختلفة تساهم في ايجاد حالة بطء النمو في البلدان التابعة والخاضعة للاستغلال . ولكن هذه العوامل جميعاً ترتبط بصورة جوهرية بحالتي التبعية والاستغلال التين تميزان هذه البلدان المتخلفة « بالتخلف » . يستنبط مما تقدم انه حينما تتحرر هذه البلدان ، وعندما تتحرر فقط ، من وضعية التبعية والاستغلال ، يمكنها حقاً أن تدخل مرحلة التقدم السريع في حياتها الاقتصادية والاجتماعية .

خلاصة : شروط التقدم الاقتصادي والاجتماعي :

ان الاستقلال السياسي هو الشرط الأول لامكانية تحقيق التقـــدم الاقتصادي والاجتماعي . ونعني بالاستقلال السياسي أولاً زوال الاستعمار عن البلدان التي مازالت خاضعة له ، ثم ازالة سلطة الطبقات الاجتماعية والتشكيلات السياسية المرتبطة بالاستعمار والتي توافق على ان تتعاون معه .

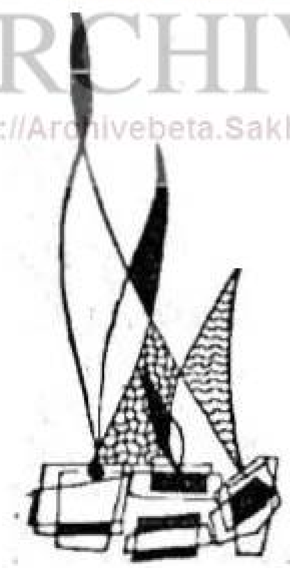
أما الشرط الثاني لامكانية تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي هو الاستقلال ~~السياسي~~ الاقتصادي . ونعني بذلك ان تقوم معظم البلدان التابعة اقتصادياً بمصادرة أو تملك رأس المال الاجنبي عن طريق تأمـــيم المزارع الكبيرة ، والمناجم ، والمصارف وبقية المؤسسات والمشاريع الـــتي تعود ملكيتها

لرأس المـــال المذكور . والدخول في مرحلة الاستقلال الاقتصادي يعني أيضاً ادخال تغييرات جذريه على النواحي النقدية والجمركية والماليـــة والتجارية التي تربط كل بلد تابع ببلد مستعمر أو مجموعة من البلدان . وهذا الشرط لتحقيق التقدم يعاكس تمام المعاكسة رأي ونظريات الاقتصاديين البورجوازيين الذين يتحدثون عما يسمى « بالتخلف » ، وذلـــك عندما يؤكدون ان الامكانية الوحيدة امام البلدان التابعة لتحقيق السرعة في تنميتها لاقتصادياتها هي في لجوئهـــا الى رأس المال الاجنبي والمشاريع التثميرية الاجنبية .

هذا ، ومن البداهة الاشارة الى أن تحقيق الاستقلال الاقتصادي لا يستبعد الاستمرار في العلاقات التجارية مع مختلف الدول الاستعمارية ، كما أنه ، حين الضرورة ، لا يستبعد قبول التسهيلات المالية والقروض من هــذه البلدان ، ولكنه استقلال يتوجب ويتطلب ان تقام العلاقات التجارية الجديدة على أساس من التكافؤ والمساواة بين الاطراف ، وهو أمر غير ممكن التحقيق بالنسبة لبلــد ضعيف اقتصادياً ، اللهم إلا اذا تمكن من طرد الاستعمار وازالة مراكزه المهيمنة التي كان يحتلها في السابق داخـــل اقتصاده ، واذا تمكن من تنمية علاقاته التجارية مع عدد كبير من البلدان الاجنبية ، وخاصة مع البلدان الاشتراكية ، وذلك كي لا يقع البلد التابع لضغط متولد عن توجيه التجارة الخارجية توجيهاً يربطه ببلد واحد ، أي توجيهاً وحيد الطرف .

والشرط الثالث هو القيام بتغييرات اجتماعية عميقة الجذور من شأنها ان تؤدي الى ازالة الطبقات التي تحقق كسباً على حساب الغير او تكون مرتبطة بمصالحها بالاستعمار . ويفترض هذا الشرط بالتالي ضرورة تحقيق ثورة ديمقراطية وطنية . أما اذا لم تتحقق هذه الثورة ، فان النضال من أجل التوصل الى تحقيق الاستقلال الاقتصادي لا يمكن له ان يبلغ غايته ، كما ان التنمية الداخلية تصطدم بعقبات اجتماعية وثقافية كبيرة . وان استعراض تاريخ بلدان امريكا اللاتينية يؤكد صحة هذا الاستنتاج . أما الثورة الكوبية فقد حققت التحرر المدهش لطاقات المنتجة ، وذلك على اساس الامكانيات الخلاقة التي تتولد عن الثورة الديمقراطية الوطنية . وقـــد أثبتت الثورة الكوبية أيضاً انه ضمن اطار الشروط والاوضاع القائمة يمكن للثورة الديمقراطية الوطنية اذا بلغت مداها ان تتحول بالضرورة الى ثورة اشتراكية . ومن ثم فان الثورة الاشتراكية هي وحدها الكفيلة بامكانية الاسراع في تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وذلك من أجل

تجاوز مرحلة جبل والتمكن من رفع مستوى المعيشة المتأخر والذي تعاني من آثاره الشعوب
لتي هي حالياً الأكثر فقراً والمحرومة . ان بلوغ هذا الهدف هو امر لاشك فيه ، وذلك اذا
ما استخدمت الطرق والوسائل التقنية الحديثة ، واذا ماتحقق التعاون عـــلى الصعيد الدولي ،
النسبة لأغلب البلدان ، ذلك لأن اكثرها يملك ثروات طبيعية كبيرة ، وتتوفر فيها طاقات
نتاجية غير مستخدمة او مستغلة الا جزئياً . ان احدى المهام الرئيسية في هذه المرحلة الاخيرة
ن القرن العشرين تقتضي بالضرورة استغلال هذه الثروات والطاقات الانتاجية . وما « عقم »
هذه الثروات والطاقات ، أي عدم استغلالها ، الا دليلاً وشاهداً ، بين عدد كبير من الأدلة،
يثبت الطابع التقليدي والرجعي الاصيل للاستعمار .



بين الطوبى والطوباويين

بقلم اورجان ميسمر

الـ « يوتوبيا » او الـ « آتوبيا » اصطلاح اغريقي يتألف من كلمتين ويعني في الاصل «اللامكان». وقد اتخذ هذا الاصطلاح الاغريقي معناه الواضح في القرن السادس عشر، وعلى وجه التحقيق بعد عام ١٥١٦، اي بعد ان صدر كتاب المفكر الانكليزي المعروف سير ثوماس مور، « يوتوبيا »، الذي تخيل فيه جزيرة مثالية يعيش فيها انسان المستقبل — مستقبل عصره هو — في سعادة تامة وفي تناغم اجتماعي بعيد عن شرور المجتمعات التي الفها

الانسان عبر تاريخه الطويل . وأضحت كلمة اليوتوبيا الموحدة بعد توماس مور ترمي الى فكرة كل مجتمع مثالي يخلقه في خياله الكتاب الذين يريدون استعجال التاريخ والقفز بالانسان قفزاً سريعاً يجتاز فيه القرون والاجيال وكأنه يجتاز الشهور والايام .

وكان اول من عرب الكلمة او الاصطلاح **الاستاذ سلامه موسى فاستعمل بديلا عربياً لها ، كعادته في كثير من المصطلحات الاجنبية هو كلمة « طوبى »** ، والنسبة لها « طوباوي » ، اي « Utopia » و « Utopian » . ولعله كان موفقاً كل التوفيق في اختيار هذه الكلمة العربية التي تعني الرغد والرخاء والسعادة ، اذ ان اليوتوبيا ، كمدينة او دولة مثالية ، لابد وان تكون دولة تمتع كل الرغد والرخاء والسعادة . وكثير من الادباء العرب درجوا بعد ذلك على استعمال كلمة الطوبى لقاء المعنى الذي شحنه مور في اصطلاح الـ «يوتوبيا» .

وليست الطوبى بغريبة عن الفكر الانساني المبدع الخلاق لأن سنة التطور التي عرفت بها الكائنات الحية التي تعيش على ارضنا والتي « يتزعمها » الانسان كظاهرة هي اقصى ما استطاع ان يبلغه التطور البيولوجي الصاعد ، تتطلب من كل كائن حي ان يكون لدى افراد منه بعض تغيرات تبشر باجيال جديدة ذات تلاؤم اكثر مع البيئات البيولوجية المتطورة التي لم تعد وقفاً على اي نوع من الكائنات الحية ، بل اصبحت ممكناً لأي كائن حي في خلاياه طاقات التطور التي تلاحق ما يحيط به من ظاهرات يعيش في وسطها ملاحقة مستمرة لا نزال حتى اليوم نجهل النواميس المسيطرة عليها وطبيعة القوانين التي تنقلها من حال الى حال اخرى ، رغم كل ما في حصيدنا العلمي من قوانين ونواميس استطعنا بها ان نلهو بشمسنا الصغيرة في الاعتبار الكوني وان نمد يدنا الى بعض الكواكب المحدودة المدى التي تتبع

نظام بمجموعتنا الفلكية مداً لا نستطيع ان نقول عنه ، رغم ضخامتنا التاريخية ورغم تضخمنا الفكري في شتى نواحيه العلمية والفلسفية النسبية الا انه مد كيشوتي .

ولو ان الطوبى والطوباوية قد ظهرا في شكلهما المتبلور أول ماظهرا في « جمهورية » افلاطون ثم توالدا ليتكاثفا في « المدينة الفاضلة » للفارابي الا انهما ظلا دائماً في مجال الفكر الانساني دفقاً لايعرف للبداية والنهاية حدودا يقف عندها . لذلك كان لكثير من رجال الفكر جولاتهم الطوباوية ، ولو كان لهذه الجولات اختلافاتها الدرجية لا النوعية . ولما كان الفرد المفكر كائناً في أحساسية شديدة بأخطاء مجتمعة وكان يحمل في اعماقه النزوع الى الاصلاح أصبح لابد له الا ان يكون مبشراً بغد أوسع خيراً وأكثر رخاء . وقد يأتي مثل هذا التبشير عن طريق الدعوة الى مجتمع أفضل (الطوباوية) وقد يأتي ايضاً عن طريق كشف الأخطاء التي تشكل في المجتمع عللا هدامة بتكثيفها تكثيفاً مجهرياً او تحليلها تحليلا علمياً منطقياً . ولما كان ايضا كثيرون من الافراد المفكرين الذين يتناغمون مع معضلات مجتمعاتهم لايستطيعون الا ان يكونوا انفعاليين يعيشون في توتر عاطفي دائم بدلاً من ان يعيشوا ضمن نطاق ذهنية علميــة رياضية ، لذلك فقد صار في تاريخ الفكر الانساني طوباويون حالمون اكثر من طوباويين محللين مخططين . غير ان الجو العلمي الذي أخذت تتلاشى او تتقلص فيه ظلال الفلسفات الغيبية والذي بدأ يسيطر ، الى حد بعيد ، على اذهان الكتاب بعد الربع الأول من القرن العشرين ـ ان هذا الجو كان له الفضل الاول في نقل الطوباويين من المرحلة الحلمية الى المرحلة اليقينية . ومن هذا الجو كان لنا طوباويون واقعيون عالميون من امثال آلدوس هوكسلي في كتابه « العودة الى عالم جريء » وجورج اورويل في كتابه «عام ١٩٨٤» وكارل ياسبرز في مجموعته « مستقبل النوع الانساني » واخيرا دي شاردن في كتابه الرائع « مستقبل الانسان » .

إلا ان هذا الاخير يختلف كل الاختلاف عن كل من سبقه من المفكرين الطوباويين ، الحالمين منهم والواقعيين ، ويختلف حتى عن كارل ياسبرز ، رغم مالهذا من رصيد علمي ودراسات استقصائيةذات أصول وجذور رياضية . واذا استطاع ياسبرز ان يلخص لنا عالم الغد عبر « ممكنات » يمكن ان تصنف في حدود المعطيات المنطقية ذات الرؤية البعيدة المدى ، واستطاع ان يلم ببعض لمحات من عالم هذا الغد بدقة مختبر وشاعرية شيلر . فان دي شاردن استطاع مايمكن ان يوصف بالنسبة لياسبرز بالمعجزة . لقد عاش دي شاردن في اعماق الانسان كأبرع مايمكن ان يغوص عبقري انثولوجي وانثروبولوجي واستطاع ان يخرج بعد غوصه هذا بحصيلة غنية لايمكن ان يتجاهلها أي معجم علمي في أي بلد من بلدان العالم . ثم انتقل من الغوص الى التجوال في المتاحف وبين سجلات الاحصاءات العالمية الدقيقة التي تتضمن أرقاماً من شأنها ان تحدد معـالم غد معين ومستقبل واضح التخوم .

واذا كانت النظرة التشاؤمية تغلب على تخيلات بعض الطوباويين وكانت النظرة التفاؤلية تبدو واضحة في تخيلات البعض الآخر ، فان طوباوية دي شاردن تتميز بطابع خاص لايمكن أن يوصف بالتشاؤم أو بالتفاؤل ؟ انه الطابع الذي تطور في اعماق ذهنه نتيجة لدراساته العلمية المتعددة الجوانب . وبين العلوم الطبيعية والفلسفات التجريدية ، وبين الرياضيات واللاهوت ، وبين متاهات الصوفية ووضوح الارقام ، وبين الحقيقة والحلم . بين كل هـذا وذاك تبرعم كثير من الأفكار في دقة ونعومة وصفاء لتعود الينا بعد ذلك ، الينا نحن الانسان ، رفئات ربانة مما كناه في أمسنا ومما نحنه اليوم ومما سنكونه غداً . إن هذا النزوع الشمولي هـو الذي يميز انتاج دي شاردن

بخصائص جديدة لم تتوفر من قبل لغيره في الرؤية البعيدة والاستشفاف الفكري. وكل النقاد الذين كتبوا عــــن دي شاردن، انفي كتابه الاول «ظاهرة الانسان»[1] وان في كتابه الثاني «مستقبل الانسان»[2]، انصرفوا عن اعتباره مفكراً طوباوياً حتى هنري ليوس ذاته الذي لم يتردد في أن يخلع عليه القاباً كبيرة ضخمة قائلاً ان «بعض الناس يصنفه اليوم كأعظم مفكر متنبيء للقرن العشرين، ولمــاذا لانعتبره طوباوياً؟ انه يدرس درساً دقيقاً جميع المشكلات التي يعانيها الانسان المعاصر، درساً يدعمه الاحصاء والاستنتاج العلمي. انه يرى مايمكن ان تتضمن مشكلات الانسان المعاصر من معان تحدد له بعض تخوم مستقبله ومايمكن ان يصير اليه في غده، القريب منه والبعيد. ومن خلال هذه الرؤية يحاول دي شاردن ان يسن لنا نواميس جـديدة لتطور النوع الانساني عبر الاحداث والتجارب الجديدة التي لم يعانها من قبل في جميع المراحل التاريخية التي مر بها وتفاعل وإياها وفق نسبات تختلف في الدرجة والنوع. لقد اتخذ دي شاردن من النسبية الآينشتانية مرتكزاً جديداً في منحاه الطوباوي. انه ضليع في علم الفلك، لذلك فانه يرى الارض، بكل بساطة، كوكباً صغيراً في المجموعة الشمسية التي يعتبرها في حد ذاتها احدى المجموعات الضئيلة في كوننا الكبير الذي لم نستطع ان نلمس منه حتى اليوم، رغم صواريخنا ومركباتنا الفضائية، سوى بعض من اذيا له او اجنحته التي لا يمكن ان يطالهــــا خيالنا المحدود مهما ما امتد عبر مسالك المعرفة ومهما ما حاول ان ينشر جناحيه فوق ذرى المجهول. حتى هنا يظل دي شاردن في حـدود ميتافيزياء جديدة يتجاوز فيها

---

(١) The Phenomenon of Man

(٢) The Future of Man

ماعرفناه لها من قبل وفق آراء من سبقوه في هذا المجال الواسع الغامض . ومن هنا ينطلق هذا الفيلسوف الجديد ليضيف الى فلسفة القرن العشرين بعداً جديداً يغير من كل مدركات الفلسفة الحديثة ويضع باسبرز ذاته في احدى مراحل تاريخ قافلة الفكر الصاعدة . انه لاينكر على الانسان التأثيرات المختلفة التي حملها ، بعضها جنيناً وبعضها الآخر كيانات كاملة متبلورة ، الا انه يأبى الا ان يضيف الى جميع هذه التأثيرات تأثير البعد الجديد الذي كان وليداً للفكر الانساني وهو ينتقل تنقلا غير محدود عبر الأزمنة منذ ان انتصب على قدميه كأرقى نموذج للكائنات الحية التي تعيش على الارض .

والنقطة التي تستحق ان تكتشف في رؤية دي شاردن هي النقطة التي يقول فيها ان الفكر الانساني قد اصبح اليوم موجهاً في كينونة الانسان وفي تقرير مصيره البيولوجي كأي عامل آخر من العوامل التي جعلته ينتصب في الماضي على قدميه ثم يستخدم يديه في توليد « حريته » ثم يطلق فكره من فوق يديه .

ولكي نفهم هذه النقطة الدقيقة الاساسية في فلسفة دي شاردن الطوباوية نجد انه من الخير ان نعود الى الناقد هنري لوس ذاته وان نستعينه في بساطته في التكثيف والعرض . ووفق هذا التبسيط نقول :

لكي نستطيع ان نتصور غدنا علينا ان نعي ماضينا وان نهضم هذا الماضي في اعماقنا هضماً تتمثل فيه كل طاقات الفكر وتتكشف من خلاله الرؤية الجديدة التي هي حصيلة علوم جدية عديدة وتفكير علمي رياضي شاق استطاع ان ينميه الانسان تجربة بعد تجربة واكتشافاً حقيقياً اثر اكتشاف حقيقي آخر .

ولو أننا أردنا ان نضع موجزاً رياضياً لمراحل تطور الانسان لوجدنا ان مثل هذا الموجز يتجلى بوضوح فيما يلي :

١ – قبل ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ظهرت الحياة الاولى على هـــذا الكوكب .

٢ – وقبل ١٠٠,٠٠٠ سنة ظهر الانسان الأول الذي يختلف شكلا وامكانات .. عن الكائنات الاخرى التي عاشت في خلاياه اجيالاً طويلة .

٣ – وقبل ٣٠,٠٠٠ سنة ظهر الانسان الاول الذي أصبح له تفكيره المستقل عن الآلية الغريزية .

٤ – وقبل ١٠,٠٠٠ سنة بدأ ظهور الانسان الاجتماعي (المجتمعي) الاول .

٥ – وقبل ٢٠٠ من السنين فقط بدأت الثورة العلمية التي نلمس اليوم كثيراً من آثارها العملية في حياتنا العالمية الواسعة من جهة وحياتنا المجتمعية الضيقة من جهة ثانية .

والملاحظ هنا أن الانسان استطاع خلال هذه السنوات المئتين ان يصل الى منجزات علمية رهيبة في وسعها ، كتبعية لوسعه هو ، أن تضيف الى نواميس كونه الصغير نواميس جديدة هي من خلق هذا الانسان . ويظل دي شاردن ضمن هذه الحدود فيلسوفاً علمياً ذا رؤية بعيدة الأفق استشفافية المطاف ، إلا انه عندما ينحي على هذا الخط وينعطف نحو استنتاجات فكرية جديدة ذات طابع خلاق يبدأ يبرز لنا طوباوياً جباراً في تفكيره ، عبقرياً في استنتاجه الرياضي ، نبياً في رؤيته التي انصهرت فيها كل الافكار البناءة التي سُجلت لنا خلال تاريخنا الطويل — القصير الذي بدأ رحلته قبل ثلاثين الف عام تقريباً .

حتى هنا ، حتى هذه النقطة العلمية الموضوعية الشمولية ، يجد كل عالم باحث ان دي شاردن كان موفقاً كل التوفيق في تكثيف الثقافة العـــامة التي استطاع ان يرسبها الانسان عاماً بعد عام ومرحلة شاقة بعـــد مرحلة شاقة ترسيباً ناجحاً في خزان وعيه وفي مجامع لاوعيه على السواء . الا ان دي شاردن عندما ينعطف في انطلاقته العلمية ـ الرياضية انعطافاً لاهوتياً ليقول لنا ان « التصفية النهائية » لكل المنجزات العلمية سيكون من نتائجها ان « تتصل بالإله اتصالاً ميتافيزيائياً » من شأنه ان يحل كل مشكلات الانسان المعاصر وان يجعل انسان المستقبل انساناً في وسعه ان ينطلق في مدركاته الكثيفة التي « أتاها في مختبراته وفي مخازن فكره » ليعيد تنظيم العلاقة القائمة بينه وبين الكون من ناحية وبين هاتين المجموعتين و « الإله » من ناحية اخرى . إن هذا الانعطاف هو المأخذ الوحيد ، على ما اعتقد ، في فلسفة دي شاردن ، وهو الذي يجعـــله اقرب الى الطوباويين اللاهوتيين الدينيين أقرب منه الى الطوباويين العلميين .

لقـد رد دي شاردن ، كما دل على ذلك مانشر عنه في المجلات الغربية المختلفة ، عدد من النقاد ورجال الفكر ردوداً متباينة جاء فيها انه لو انتظر بعض الوقت قبل ان يتم كتابه « مستقبل الانسان » لكان في وسعه ان يفرض آراءه فرضاً علمياً محكماً الا ان دي شاردن ، كما يقول احد هؤلاء النقاد وهو فرانسيس موت ، « قد قصر في استيعاب المنجزات العلمية ، التي حققها الفكر الانساني عبر السنوات العشرين الماضية ، لذلك جاءت نظرته وهي تفتقر الى مقومات جـديدة هي « جزء من حضارة الفكر الانساني المعاصر » .

وقد ينبري نقاد آخرون ينتمون الى مذاهب فكرية مختلفـة للرد على دين

شاردن ، غير ان الصدمة التي سيواجهها هؤلاء النقــاد هي المرتكزات العلمية الدقيقة التي وضعها هذا الفيلسوف الجديد في بناء نظريته : ان الانسان قد استطاع في خلال مئتين من السنين من ثورته الفكرية ان يصبح بعداً جديداً على هذه الارض يوجه كائناته وجهات قد تكون على تباين مع التخطيط البيولوجي الذي ارادته لها الحياة وفق نظمها السديمية المتوارثة .



المنتدى الأدبي

ودوره في النضال العربي

بقلم توفيق برّو

مارس العهد الحميدي في السلطنة العثمانية ضغطاً على الافكار لم يشهد له التاريخ العثماني مثيلاً ، اذ كم الافواه وفرض الرقابة على الرسائل ووسائل النشر ومنع الصحف من الصدور الا التي سبحت بحمده ، فاضطر الاحرار لمغادرة البلاد الى الدول الاجنبية الاوروبية والشرقية ، وبدءوا يصدرون الصحف المعارضة لحكم عبد الحميد في باريس ولندن وجنيف وروما والقاهرة ... من امثال « مشروطيت » و« عثمانلي » و « روم ايلي » وغيرها . ولعل اكثر واهم الصحف التركية المعارضة لحكم الطاغية كانت تصدر في مصر وكان منها «أناضولي» و«ارناؤ وطلق» و«أنين مظلوم» و«غيرت» و«حق» و «ميزان» وغيرها من الجرائد وكان عدها ينوف على الثلاثين .

ولما حدث انقلاب ۱۹۰۸ الدستوري انطلقت الافكار من عقالها فكثرت الجرائد والمجلات داخل اراضي السلطنة كثرة هائلة ، وتعددت الاحزاب والجمعيات التي اندفعت مختلف العناصر القومية الساكنة في رقعة السلطنة الى تشكيلها ، وكان العرب والترك من جملة هذه العناصر . ولما كان القانون الذي صدر في السابع من تموز ۱۹۰۹ بخصوص الجمعيات قد حظر قيام جمعيات واحزاب ذات اهداف سياسية بتسمية قومية فان العناصر المختلفة قد لجأت الى تشكيلها بصورة سرية ، لانه لم يكن بالامكان اقامة السدود امام العواطف القومية التي بدأت تغزو الشعور العام ، خاصة بعد ان رأت عناصر الدولة غير التركية ان الاتراك الاتحاديين لايتقيدون ، هم انفسهم ، بروح القوانين التي يصدرونها ، فيوجهون دفة السياسة الداخلية في مصلحة العنصر التركي بصفته العنصر الحاكم المسيطر .

اما العرب فكانت جمعياتهم اما علنية واما سرية ، فما كان منها بتسمية قومية ، ومكرساً لعمل قومي ، كان على الاغلب سرياً ، كالجمعية القحطانية . وجمعية العلم الاخضر ، وجمعية اليد السوداء ، وجمعية العهد ، والجمعية العربية الفتاة . واما الجمعيات والاحزاب والنوادي العلنية فقد كان منها المنتدى الادبي ، وحزب اللامركزية العثماني بمصر والجمعية الاصلاحية في بيروت ، وجمعية البصرة الاصلاحية ، وغيرها من الجمعيات الصغيرة ، بالاضافة الى المؤتمر العربي الاول . ولابد من الاشارة الى ان الجمعية السرية المسماة « اليد السوداء » التي كان طالب الطب في الاستانة « داوود يوسف الدبوني » من الموصل من ابرز مؤسسيها ، وكانت الغاية من تأسيسها اغتيال كل من يناوىء الفكرة العربية من رجال العرب ،

خدمة منهم للاتحاديين لقاء منافع ومطامع شخصية ، لم تتمكن من الحياة ، فانحلت قبل ان تمضي سنة واحدة على تأسيسها ، واندمج اعضاؤها في الجمعيات الكبرى .

وأما أبقى هذه الجمعيات ، وأخلدها ذكراً ، واعظمها أثراً ، وخدمة للعنصر العربي ، فهو المنتدى الأدبي ، ذو الاهداف العلمية ـ الأدبية ـ الاجتماعية . فبعد ان ألغى الاتحاديون جمعية الأخاء العربي ـ العثماني ، في اعقاب ثورة ١٣ أبريل «نيسان» ١٩٠٩ المضادة ـ اذ اتهموا مؤسسيها ، افتراء وبهتاناً ، بالعمل مع السلطان عبدالحميد على قيام تلك الردة ـ رأى فريق من شباب العرب النابهين في الاستانة، وفي مقدمتهم طالب الحقوق عبد الكريم الخليل ، من ابناء جبل عامل في لبنان ، ضرورة تشكيل نادٍ علمي يجمع شباب العرب ، اذ كان عبد الكريم ، عند تأسيس جمعية الأخاء العربي ـ العثماني ، من الذين تطوعوا في الدعاية لها ، فكان يبث فكرة التآخي بين شبان العرب ، ويدعوهم بين آونة واخرى الى بناية الجمعية فيعرف بعضهم ببعض ، ويشرح لهم فوائد الاتحاد والوفاق ، ويذكرهم بماضي اجدادهم وتاريخهم المجيد . فلما حل الاتحاديون الجمعية مع كافة فروعها ، وألغوا جريدتها «الأخاء العثماني» بعد ثورة ١٣ ابريل «نيسان» ، شعر شبان العرب بالفراغ فألفوا المنتدى الأدبي في ١٦ محرم ١٣٢٧ هـ (٨ شباط ١٩١٠) ، وكان القصد من تأسيسه ان «يجمع شبان العرب وطلابهم تحت سقفه وبين جدرانه بدلا من ان ينتشروا في المقاهي ، أو يمضوا اوقاتهم بالبطالة متجولين من مكان الى آخر ، فيؤمن لهم مبيتاً نظيفاً وحياة طيبة» (١) .

لقد اشترك مع عبد الكريم الخليل في تأسيسه نخبة من طلاب العرب

---

(١) جريدة المؤيد القاهرية ، العدد ٥٩٩١ ، ١٧ـ٢ـ١٩١٠

في الاستانة من أبرزهم : يوسف حيدر من بلعبك ، ورفيق رزق سلوم من حمص ، وسيف الدين الخطيب من دمشق ، واحمد خليل الحسيني من القدس . وكان يضم بين صفوفه شباناً من جميع الاقطار العربية ، فترى السوري والعراقي واليماني والحجازي والطرابلسي والبرقاوي والفلسطيني جنباً لجنب،يترغون بذكر أمجاد العرب . وكانت اول هيئة ادارية له مؤلفة من : احمد جميل الحسيني رئيساً ، وعبد الكريم الخليل ويوسف حيدر وسيف الدين الخطيب وعزة الجندي وسامي الصلح واحمد قدري وعبد القادر الجزائري اعضاء ، وفي السنة الثانية من تأسيسه أصبح عبد الكريم رئيساً له . وقد قدم احمد عزة الاعظمي المنتدى الادبي في كتابه عن القضية العربية بقوله : « هو الجمعية التي أحيت الروح القومي وبثت المبادىء السامية بين طبقات الشبيبة العربية في الاستانة وخارجها ، وكانت خطته الوحيدة نشر الدعوة للقضية العربية »(١) . وقال الاستاذ مصطفى الشهابي الذي عاصر الحوادث وعاش في جوها أثر هذا النادي « كان مباءة العروبة في عاصمة الدولة ، ففيه كان الطلاب الجدد يتلقون ممن تقدموهم في الدراسة مبادىء القومية العربية ومراميها ،وفيه كانت تدرس وتناقش خطط الاتراك الاتحاديين الرامية الى تسييد القومية التركية والقضاء على سائر القوميات في الدولة . وكانت اهداف النادي القومية تبرز على الملأ فيما كان يلقى فيه من محاضرات وخطب ، وما كان يقام فيه من حفلات ، وما كان ينشر في مجلته من بحوث ومقالات وقصائد وأناشيد وطنية ، وما كان يدور فيه من أحاديث ومناقشات في الشؤون العربية ، سواء بين اعضائه ، او بينهم وبين زوار النادي الكثيرين من نواب وساسة وموظفين وجالية عربية مقيمة في العاصمة »(٢) .

---

(١) احمد عزة الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٣ ص ٣

(٢) الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ص ٧١

لم يكن نشاط الشبان العرب في تأسيسه مقتصراً عليهم فقط ، انما لقوا مؤازرة كبيرة من رجالات العرب السياسيين في الآستانة وفي مقدمتهم خليل حماده باشا وزير الاوقاف ، وعبد الحميد الزهراوي ، وشفيق المؤيد المظم ، ورضا الصلح ، ورشيد رضا ، وحقي العظم ورفيق المظم ، والطبيب حسين حيدر من بعلبك ، وطالب النقيب من البصرة ، والمقدم عزيز علي المصري ، وندره مطران ، ونخله مطران ، ورشدي الشممة ، الذين كانوا يلقون الخطب احياناً في احتفالاته.

كانت الفكرة التي وجهت عبد الكريم الخليل هي ان تكون قواعد المنتدى الادبي مبنية على التربية الاساسية ورفع المستوى العلمي والادبي والاجتماعي لخدمة الفكرة القومية العربية ، فوضع لها منهاجاً مفصلا ، عرضه على الشيخ رشيد رضا ـ (وهو صاحب مجلة المنار القاهرية وأصله من قرية يبرود اللبنانية قرب طرابلس) ، وكان يومئذ في الآستانة ـ لاصلاح لغته ، ثم على وزير الاوقاف خليل حماده باشا ، لتنقيح بنوده لاشتغاله في مثل هذه المؤسسات ، ولسعة اطلاعه وخبرته الكاملة فيها ، فرحب الوزير بهذا العمل الجليل وشجع القائمين به . وبعد أن درس المنهاج ، ونقح مانقح في بنوده ، وضع للنادي اسمه المعروف ، ووعد بأن يخصص له سنوياً معونة قدرها خمسمائة ليرة عثمانية ذهبية من وزارة الاوقاف ، على ان يكون كمعهد علمي للشباب العربي ، تلقى فيه المحاضرات العلمية في الليل ، وتؤسس فيه مكتبة قيمة ، مع اتخاذ بعض غرفه مأوى للطلاب العرب الذين لاتساعدهم حالتهم المالية على السكن في الفنادق . وما ان اطلع المخلصون من رجالات العرب على تأسيس المنتدى حتى اندفعوا في مساعدته وتشجيعه فوضع شكري الحسيني ، محاسب وزارة المعارف ، من اعضاء هيئة ادارة جمعية الاخاء العربي ـ العثماني المنحلة ، تحت تصرف النادي ستين ليرة عثمانية كانت باقية لديه من

صندوق تلك الجمعية ، ثم سلمه كل ماكان للجمعية من اثاث ورياش . وتلقى النادي، عدا ذلك ، مساعدة ماليه كبيرة من النائب الوطني الغيور طالب النقيب وزميله احمد باشا الزهير من مبعوثي البصرة . هذا فضلاً عن كونه قد قام بتمثيل روايتي صلاح الدين الايوبي وامرىء القيس وجمع من ريعها مبالغ كبيرة اضيفت الى المبالغ السابقة ، فتوفرت لديه القوة المالية للسير قدماً الى الامام .

لم يكن للمنتدى الادبي صحيفة تخدم اغراضه في الفترة الاولى من تأسيسه ،انما كان رئيسه وبعض اعضائه يكتبون في الجرائد العربية كجريدة الحضارة التي كان عبد الحميد الزهراوي يصدرها في الاستانة والجرائد التي تصدر في سورية والقاهرة ، غير أنه سرعان ماتمكن عبد الكريم الخليل من الاتفاق مع جمعية « العلم الاخضر » ان تكون مجلتها المسماة « لسان العرب » والتي كان احمد عزة الاعظمي يقوم على ادارة تحريرها ، ناطقة باسم المنتدى وان تستبدل اسمها باسم « المنتدى الادبي » .

لم يمض زمن على تأسيس المنتدى حتى بلغ عدد من انضوى تحت لوائه اكثر من (٢٨٠) شابا وأديباً من ابناء العرب المقيمين في العاصمة ومايقرب من (٥٠٠) من طلاب المدارس العالية فيها ، من مختلف الاقطار ومختلف الاديان والمذاهب ، وفتحت له فروع في شتى انحاء البلاد العربية ، انتمى اليها آلاف من ابنائها . فقد كان له صدى قوي فيها ، كما كان رئيسه عبـــد الكريم على اتصال بالحركات العربية وبوادر اليقظة القومية التي تعهدها الناهبون من ابناء العرب في كل مكان ، وبالجمعيات العربية في بيروت والبصرة ، وبحزب اللامركزية في مصر وكان له ايضا نشاط عظيم في عقد المؤتمر العربي في باريس ، واتصال باقطاب المعارضة العربية في مجلس المبعوثان وخاصة بممثلي هذه المعارضة مثل شفيق المؤيد وشكري

العسلي وعبد الوهاب الانكليزي وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم . خلاصة القول كان المنتدى يطوي بين اهدافه نزوعاً الى الاهداف القومية من خلال الاهداف الادبية ـ الاجتماعية الظاهرية او بمعنى اوضح ظاهره ادبي وباطنه سياسي قومي . ومع ذلك لم يكن القائمون عليه في فترة ماقبل الحرب العالمية الاولى يميلون الى الانفصالية ويرغبون في الاستقلال التام الناجز عن الدولة العثمانية ، بل ظلوا امناء على الرابطة العثمانية ، مع الايمان بضرورة وجدوى احتفاظ كل قومية من القوميات العثمانية بطابعها المميز ولغتها وتقاليدها ، واحياء امجادها ، وتنمية الشعور القومي فيها ، ضمن رابطة جامعة ، هي الرابطة العثمانية ، التي يجب ان يرفرف علمها على جميع عناصر الدولة ، وان تنضوي مختلف الشعوب العثمانية تحت جناحيها في نظام ديمقراطي حر ، وفي جو من الاخاء والمساواة يهيء لجميع العناصر والاديان العيش الهنيء الرغد ، والحياة الاجتماعية والاقتصادية الراقية . وقد جند كبار كتاب هذا المنتدى اقلامهم للدفاع عن هذه الرابطة لكنهم ابوا ان يتنكروا لقوميتهم العربية لابل قدموها على الرابطة العثمانية . قال الدكتور عزة الجندي ، عضو هيئة ادارة المنتدى ، في مقال له في جريدة الاهرام : « **اننا عرب قبل كل شيء ، المسلم عربي ، والمسيحي عربي ، و . . و . . ، أجل اننا عرب قبل ان نكون مسلمين ، والمسيحي عربي قبل ان يكون مسيحيا . . و . . و . . ، وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات الى الجوامع والكنائس ؛ فاذا كنا عرباً قبل ان نكون مسلمين او مسيحيين فبالأولى ان نكون عرباً قبل ان نكون عثمانيين . .** » (١)

كان عبد الكريم الخليل لولب المنتدى الادبي والمع شخصية فيه ، كان

---

(١) الاهرام ، العدد ١٠٦٧٢ ، ٢٢/٤/١٩١٣

شعلة من النشاط والذكاء ، نال شهادة الحقوق من مدرسة الحقوق بالاستانة عام ١٩١٠ بدرجة التفوق ، وقد وصفه « جمال باشا » في مذكراته ، عندما جرت مفاوضات عام ١٩١٣ بين الطرفين لبحث مطالب العرب ، بقوله :

« . . فبرز لنا شخص قصير القامة ، لايزيد عمره على الثلاثين ربيعاً اسمر اللون ، ذو عينين واسعتين براقتين ، تدلان على الذكاء والاقدام..»(١)

لقد أخلص عبد الكريم للقضية العربية ،وشب على حب العروبة ، وتمسك باهدابها وعرف السبيل الصحيحة لاعلاء مجدها ، سبيل التعليم الصحيح، والتربية القومية للناشئة العربية ، اذ كان يفضل سلوك البناء الاجتماعي الى جانب البناء السياسي فقد تباحث مع النواب العرب حول خطة مثلى تتعلق باصلاح المدارس الابتدائية في دوائرهم فدعاهم الى حفل اقامة لهم في حزيران ١٩١١ واقترح عليهم برنامجاً يرمي الى انهاض البلاد العربية على دعامتين :

١ – **توثيق عرى الاخاء بين العرب على اختلاف اجناسهم واديانهم وعناصرهم وطوائفهم** حتى لايذكر الواحد منهم في السياسة **والوطنية** غير عربيته الشريفة .

٢ – **توحيد طرق التعليم في البلاد العربية** تتربى حتى النفوس تربية واحدة ليسير جميع العرب في طريق واحدة والى غرض واحد .(٢)

فاستصوب النواب البرنامج الذي عرضه عليهم وتعهدوا بتنفيذه بالتآزر مع المنتدى الأدبي ، ولم يتوان عبد الكريم لحظة في العمل وسرعان ماشد رحال السفر الى مصر وسائر الاقطار العربية يحمل المشروع الذي تضمن النقط التالية :

ان يقسم كل نائب دائرة انتخابه الى اقسام تؤلف في كل منها لجنة لتعميم

---

(١) مذكرات جمال باشا ، ص ٩٢

(٢) الاهرام ، العدد ١٠٣٤ ، ١٩١١/٧/١٣

التعليم الابتدائي ، واخرى اختصاصية لترتيب برنامج لاصلاح هذه المدارس ، على ان تسلك خطة التوحيد ، وان يعقد النواب مؤتمراً عاماً بحد دون زمانه خلال السنة ذاتها (١٩١١) يحضره مندوبون عن هذه اللجان لدراسة جميع البرامج الموضوعة ، واستخلاص برنامج واحد منها يكون دستوراً للعمل في سائر البلاد العربية ، وان يبحث المؤتمر مسألة توحيد الكتب والتربية لايجاد شعور واحد في نفوس طلاب جميع البلاد العربية ، وانشاء مدرسة لتخريج المعلمين «دار المعلمين» بطريق الاعانات . وقد تعهد المنتدى بتضحيات مادية وأدبية في سبيل تهيئة المعلمين لهذه الدار ، ويتطوع اعضاء المنتدى المثقفين ثقافة عالية للتدريس فيها علاوة على وظائفهم واعمالهم العادية .

قوبل هذا البرنامج بالترحاب والارتياح في البلاد العربية وخاصة في مصر اذ تألفت فيها لجنة ضمت سبع عشرة شخصية كبرى من ابرزهم : أحمد تيمور باشا ، محمد باشا الشريعي ، رفيق بك العظم ، الدكتور شبلي شميل . . . الخ ، للقيام به والعمل بموجبه (١)

في الواقع كان اهتمام المنتدى الأدبي منصباً على الناحية الاجتماعية والاصلاح الاساسي للنهوض بالامة العربية من حيث الثقافة ، قبل كل شيء ، لتتبوأ مكانها اللائق بها في السلطنة العثمانية ، فكان بهذا الوصف عبارة عن معهد علمي وناد أدبي في آن واحد ، حيث كانت تعطى فيه الدروس الليلية ، وتعلم للطلاب اللغة التركية واللغات الاجنبية ، ويستفيدون من مكتبته الحافلة بالكتب العلمية في سائر فروع الثقافة . انما لم يقتصر الطلاب والمنتسبون اليه على هذا الأمر بل كانوا يتناقشون في المسائل الاجتماعية والوطنية التي تجري على مسرح السياسة في الاستانة ، وفي تقدير قيم الرجال وتفضيلهم بعضهم على بعض ، وانتقاد أقوال

---

(١) احمد عزة الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٣ ، ص ٢٨

الجرائد والتنديد باعمال رجال السياسة ، ويبحثون في الاحزاب السياسية في مجلس الأمة وحقوق العرب ، ويحللون العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية ودول الغرب ، وفي ميزانية الدولة وغير ذلك من المواضيع. فالمنتدى الأدبي كان اول مؤسسة تعهدت فكرة القومية العربية بعنايتها ورعتها منذ اول نشوئها ، وظهرت هذه الفكرة بنوع من الوضوح في اذهان اعضائها وفي احاديثهم ومناقشاتهم ، ولكن في اطارها العثماني العام، وتلمست طريقها الصحيحة، طريق العلم والمعرفة والثقافة. في الخطاب الذي القاه عبد الكريم الخليل ، في الحفلة التي دعا اليها نواب العرب ، ترددت على لسانه كثيراً عبارة الامة العربية ، وتوحيد قوى الامة ، وحدد فيه أهم معالم واركان القومية وروابطها مثل : « **وحدة اللسان ووحدة التاريخ ووحدة الوطن ووحدة المنفعة** »(١) ، وبين ان كل هذه الروابط موجودة في الامة العربية . لكنه قال ان هذه الروابط غير كافية مالم ترتكز على أساس متين من الثقافة الموحدة والعلم الراسخ ، فكان بذلك من اوائل الذين دعوا الى الوحدة العربية أو الجامعة العربية ، وعرفوا الطريق الصحيحة السليمة اليها ، وشرع فعلا في العمل نحو تحقيقها عن طريق مشروعه الآنف الذكر ، لكن يد الغدر لم تمهله هو واخوانه الشهداء الابرار ، انما حسبهم ان خطوا معالم الطريق للاجيال التالية .

وقد بقي المنتدى الأدبي جاداً في العمل الدؤوب حتى عام ١٩١٥ الذي شهد مآسي جمال باشا وفظائعه اذ شنق الطاغية رئيسه وسائر المناضلين من رجالات العرب اثر محاكمات ديوان الحرب العرفي في عاليه . لكن الشعلة التي اضاءها هؤلاء الاحرار لم تخب ، وآتت تضحيتهم ثمرها في الثورة العربية الكبرى التي دكت صروح الظلم والطغيان ولقنت طغاة الاستانة درساً بليغاً في القومية والحرية .

---

(١) احمد عزة الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٣ ص ١٣ — ٢٢ من خطاب عبد الكريم

العجز المالي للأمم المتحدة

بقلم محمد سمير منصوري

تواجه منظمة الامم المتحدة عجزا مالياً يتزايد يوماً بعد يوم نتيجة الالتزامات والنفقات المالية التي دفعتها ، ولا زالت تدفعها ، المنظمة العالمية لعمليات حفظ السلم والامن الدولي ، وهذا العجز ليس جديدا وانما يرجع تاريخه الى بضعة اعوام خلت ، وذلك عندما قررت الجمعية العامة للامم المتحدة في عام ١٩٥٦ انشاء قوات الطوارىء الدولية في الشرق الاوسط ، الا أن العجز لم يبد واضحا آنذاك ، وانما اتخذ مظهرا جلياً واكثر وضوحاً منذ عام ١٩٦٠ عقب ارسال القوات الدولية الى الكونغو والتي تعتبر نفقاتها حجر الزاوية في هذا العجز لضخامة المبالغ التي تطلبتها تلك العمليات ، اذ بلغ مجموع ماصرفته الامم المتحدة على عملياتهـــا

العسكرية في الكونغو عام ١٩٦٣ مقدار ٨٣،٧٤٤،٩٤٠ دولار في حين أن نفقـــات قوات الامم المتحدة في الشرق الاوسط خلال ذات العام بلغت ١٨،١٩٥،١٤٢٥ دولار(١) .

في نهاية عام ١٩٦٢ بلغت الالتزامات المالية المترتبة على الامم المتحدة مقدار ١٠٣،٩ مليون دولار وقد ارتفع هذا الرقم حتى بلغ في نهاية عام ١٩٦٣ مقدار ١٤٧ مليون دولار .

هذا الوضع المالي المتدهور أهاب بالامين العام لمنظمة الامم المتحدة الى الاشارة اكثر من مرة في مؤتمراته الصحفية خلال عام ١٩٦٤ الى أن الوضع المالي للمنظمة حرج وخطير جدا من الوجهتين المالية والسياسية .

يرجع سبب هذا العجز الى رفض عدد من الدول المساهمة بدفع المبالغ المترتبة عليهـــا من نفقات عمليات الامم المتحدة لحفظ السلم في كل من الشرق الاوسط والكونغو ، ولا بد لنا لايضاح سبب رفض بعض الدول المساهمة في نفقات هذه العمليات من عرض نبذة مقتضبة عن تاريخ وكيفية انشاء هاتين القوتين .

انشاء قوات الطوارىء الدولية في الشرق الاوسط وفي الكونغو

عقب الاعتـــداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ واثر الاجتماعات التي عقدها مجلس الامن والتي لم يتوصل فيها الى اتخاذ أي قرار بسبب استعمال حق النقض (الفيتو) من قبـــل عضوين من الاعضاء الدائمين في المجلس (بريطانيا وفرنسا) ، احيل الامر الى الجمعية العـــامة لاتخاذ الاجراء المنـــاسب لوقف الاعتداء ، فعقدت الجمعية العـــامة اول دورة طارئة خاصة لها واتخذت اثر انتهاء منـــاقشاتها القرارات ذوات الارقام ESI ٩٩٧ تاريخ ٢/١١/٩٥٦ و ESI ٩٩٨ تاريخ ٤/١١/٩٥٦ و ESI ١٠٠٠ تاريخ ٥/١١/٩٥٦ والتي بالاستناد اليها انشئت قوات الطوارىء الدولية في الشرق الاوسط وباشرت اعمالها التي مازالت قائمة حتى اليوم .

اما بالنسبة للقوات العسكرية في الكونغو فان عمليات الامم المتحدة هناك ترجع الى قرار مجلس الامن رقم S/٤٣٨٧ المؤرخ ١٤/٧/١٩٦٠ والذي اتخذ عقب الاجتماعات التي عقدها

(١) تقرير الامين العام لمنظمة الامم المتحدة ــ الوثيقة رقم ٥٨٠١ [A ص ١٣٨]

مجلس الامن بناء على طلب حكومة السيد باتريس لومومبا لمساعدتها في الوقوف في وجه العدوان البلجيكي ، ولقد جاء في الفقرة الثانية من هذا القرار :

(٢ ـ يقرر المجلس تفويض الامين العام لاتخاذ الاجراءات المناسبة بالتشاور مع حكومة جمهورية الكونغو لتقديم المساعدة العسكرية ، وفقا للضرورة ، وحتى تتمكن قوات الامن الوطني في نظر الحكومة ، من القيام بواجباتها بصورة كاملة)

وبالاستناد الى هذا التفويض قدم الامين العام للامم المتحدة تقريرا الى مجلس الامن عن الاجراءات التي اتخذها لارسال قوات الى الكونغو ، من قبل بعض الدول ، فوافق المجلس على هذا التقرير بالقرار رقم ٤٤٠٥ / S ، وقد استمرت قوات الامم المتحدة في الكونغو منذ ذلك التاريخ وحتى ١٩٦٤/٦/٣٠ حيث جرى سحبها نهائيا .

الالتزامات المالية الناشئة عن هذه العمليات ومواقف الدول منها

اختلفت وجهات نظر الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة حول موضوع قانونية انشاء هذه القوات ، كما اختلفت حول شرعية والزامية تمويلها ومدى ضرورة مساهمة كافة الدول الاعضاء في المنظمة في مثل هذه النفقات وتتلخص وجهات النظر بالآتي :

أ ـ موقف الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى

يرى الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى بان الالتزامات المالية الناجمة عن عمليات الامم المتحدة في كل من الشرق الاوسط والكونغو غير شرعية وغير قانونية للاسباب الاتية :

١ ـ ان انشاء قوات الطوارىء في غزة غير قانوني لانه صادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة التي لاتملك حق انشاء قوات لحفظ السلم وان حق القيام بعمل ما لحفظ السلم والامن الدولي يعود الى مجلس الامن وفقاً للميثاق ، ويستندون بذلك الى الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة وخاصة المادة ٣٩ منه والتي تنص (يقرر مجلس الامن ما اذا كان قد وقع تهديد للسلم او اخلال به او كان ما وقع عملا من اعمال العدوان ويقدم في ذلك توصياته او يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير طبقا لاحكام المادتين ٤١ و ٤٢ لحفظ السلم والامن الدولي او اعادته الى نصابه) .

وتوضح المادتان ٤١ و ٤٢ التدابير التي يمكن لمجلس الامن اتخاذها لتنفيذ قراراته ومنها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفاً كليا او جزئيا وقطع العلاقات الدبلوماسية ، وعند عدم

كفايتهـا بالغرض او ثبت انها لم تف به جاز للمجلس ان يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الاعمال ما يلزم لحفظ السلم والامن الدولي او لاعادته لنصابه .

وحيث ان انشاء قوات الطوارىء الدولية هذه كان غير قانوني للميثاق ، من وجهة نظرهم لصدوره عن الجمعية العامة لا مجلس الامن فان النفقات التي نجمت عن وجود هـذه القوات تعتبر بالتالي غير قانونية وهم غير ملزمين بالمساهمة فيها .

٢ ـ ان عمليات الامم المتحدة في الكونغو وان كانت قد صدرت بتفويض من مجلس الامن الذى هو صاحب السلطة ، الا ان الامين العام للمنظمة قد تجاوز مجلس الامن واتخـذ اجراءات مباشرة من قبله دون الرجوع الى المجلس وذلك عند اختياره للدول التي طلب منها المساهمة بالعتاد والرجال الذين تشكلت منهم القوة الدولية في الكونغو ، ويستندون في ذلك الى المادة ٤٨ من الميثاق التي تنص :

(الاعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الامن لحفظ السلم والامن الدولي يقوم بها جميع اعضاء الامم المتحدة او بعض هؤلاء الاعضاء وذلك حسبما يقرره المجلس) .

وفضلا عن ذلك بان العمليات في الكونغو كانت تدار بصور مخالفة للاهداف التي انشئت من اجلها وبشكل يتعارض مع اهداف المنظمة .

٣ ـ ان كل ما يتعلق بانشاء القوات الدولية وتمويلها يقع تحت الفصل السابع من الميثاق ، ولامجال لادراج تمويل القوات الدولية ضمن مفهوم المادة ١٧ من الميثاق التي تنص :

(١ ـ تنظر الجمعية العامة في ميزانية الهيئة وتصدق عليها .

٢ ـ يتحمل الاعضاء نفقات الهيئة حسب الانصبة التي تقررها الجمعية العامة .)

اذ ان مفهوم هذه المادة ينحصر على الموازنة العادية للمنظمة ، اما نفقات القوات الدولية فهي استثنائية لاتدخل ضمن الموازنة العادية ، وقد سبق للجمعية العامة نفسها ان اعتبرتها استثنائيـة عندما قررت انشاء حساب خاص لـكل من هاتين العمليتين منفصل عن الموازنة العادية .

وعلى هذا الاساس يرفض الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى دفع اي مبلغ يتعلق بهاتين العمليتين طالما ان هذه النفقات لم تقرر من قبل مجلس الامن .

ب ـ موقف الولايات المتحدة الامريكية وبعض الدول الغربية واللاتينية

---

١ ـ يشير اصحاب هذا الرأي الى ان ميثاق الامم المتحدة وان كان في المادة ٢٤ منه قد عهد (الى مجلس الامن بالتبعات الرئيسية في امر حفظ السلم والامن الدولي) الا ان هذه المسؤولية

ليست من نوع الحصر، اذ تورد الفقرة الثانية من المادة ١١ من الميثاق ان (للجمعية العامة ان تناقش اية مسألة تكون لها صلة بحفظ السلم والامن الدولي ... ولها ان تقدم توصياتها بصدد هذه المسائل) كذلك فالمواد ١٠ ، ١٤ ، ٣٥ من الميثاق اعطتها نفس الحق .

وعلى ذلك فان قرار انشاء قوات الطوارىء الدولية في الشرق الاوسط الصادر من الجمعية العامة غير مخالف لاحكام الميثاق ، فضلا عن ان مجلس الامن — بعد فشله في اتخاذ قرار في الموضوع — طلب من الجمعية العامة اتخاذ الاجراء المناسب (القرار رقم S/٣٧١٩) .

٢ — ان تمويل عمليات الأمم المتحدة يعود اجمالا الى الجمعية العامة ولا علاقة لمجلس الأمن بهذا الموضوع ، اذ ان المادة الوحيدة التي تبحث في الامور المالية في الميثاق هي المادة ١٧ المشار اليها سابقا والتي تعطي الجمعية العامة حق اقرار « نفقات الهيئة » دونما تخصيص ، ويدخل ضمنها النفقات التي تدفعها المنظمة من اجل عمليات حفظ السلم .

جـ ـ موقف الدول الحيادية

اتخذت اغلب الدول الآسيوية والافريقية موقفاً وسطاً في النزاع القائم حول تفسير مواد ميثاق الامم المتحدة ومدى التمشي مع فكرة حصر صلاحية انشاء قوات السلم بمجلس الامن وحده أو اعطاء هذا الحق للجمعية العامة أيضاً ، فضلا عما يقيم ذلك من تحديد الجهة صاحبة الاختصاص في تمويل هذه القوات وتتلخص وجهة نظر هذه الفئة بما يلي :

١ — انه وان كان الميثاق قد عهد (الى مجلس الامن بالتبعات الرئيسية في أمر حفظ السلم) الا ان هذا يجب ان لايعفي الجمعية العامة من مسؤوليتها في هذا الشأن اذا عجز مجلس الامن عن اتخاذ اجراء مايسبب حق النقض (الفيتو) من قبل احد الاعضاء الخمسة الدائمين في المجلس او لغير ذلك من الاسباب . بل يجب على الجمعية العامة ان لاتقف مشلولة عن الحركة بدون سلطة تخولها التدخل في مثل هذه الحالة .

ويبرر شدة حماس هذه الفئة لتوسيع صلاحيات الجمعية العامة ان المجموعة الآسيوية الافريقية — التي هم منها — اصبحت تشكل اكثرية في الجمعية العامة وان هذه المجموعة بدأت تشعر ان بامكانها ، — لابل من واجبها — كدول صغيرة ولكن مجتمعة — ان تلعب دورا اساسيا في حل مشاكل السلام ، وعليها ان لاتترك الامر الى الدول الكبرى لتفرض ماتشاء في مجلس الامن ، حيث لايمكن لهذه المجموعة ان تفرض ماتريد .

ويذكر اصحاب هذه الفئة في هذا المجال ان مبدأ المسؤولية الجماعية الذي يعتبر الدعامة

الاساسية في ميثاق الامم المتحدة يتوجب على الجمعية العامة المشاركة في انشاء القوات الدولية وفي تمويلها .

٢ - ازاء الخلاف حول مدى انطباق المادة ١٧ من الميثاق على نفقات عمليات المنظمة في كل من الشرق الاوسط والكونغو ، رأت الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها المنعقدة في في خريف عام ١٩٦١ توجيه سؤال الى محكمة العدل الدولية لمعرفة رأيها الاستشاري في مدى اعتبار نفقات هذه القوات من ضمن «نفقات الهيئة» وهل ان المادة ١٧ تشمل الموازنة العادية للمنظمة فقط ام انها تشمل جميع النفقات المالية المترتبة على الهيئة ؟

وقد اصدرت محكمة العدل الدولية بتاريخ ١٩٦٢/٧/٢٠ رأيها الاستشاري الذي تضمن (ان تعبير نفقات الهيئة يعني جميع النفقات وليس فقط نوعاً معيناً من النفقات التي يمكن الاشارة اليها بنفقات عادية) كما اضاف الرأي (أن نفقات قوات الشرق الاوسط والكونغو الموافق عليها من قبل الجمعية العامة تدخل في مفهوم المادة ١٧ من الميثاق ... وان وضع حساب خاص لكل من هاتين العمليتين لا يخرجها عن كونها من نفقات الهيئة) (١)

وقد عرض هذا الرأي على الجمعية العامة للامم المتحدة فقبلته باغلبية ٧٦ صوتاً مع مقابل ١٧ صوتاً ضده وامتناع ٨ دول عن التصويت كانت بينها الجمهورية العربية السورية . (القرار رقم ١٨٥٤)

٣ - فضلا عن ذلك فان اصحاب هذه المجموعة يرون ان عند البحث في تمويل عمليات قوات السلام يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار عدد من المبادىء منها :

ا - مسؤولية الدولة المعتدية .

ب - اعفاء الدولة المعتدى عليها .

ج - وجوب تحميل الدول الخمس الدائمة في مجلس الامن (الولايات المتحدة ، بريطانيا ، الاتحاد السوفياتي ، فرنسا ، الصين الوطنية) مسؤولية ونصيباً اكبر من النفقات .

---

(١) الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية ص ١٦١ - ١٨٠

د ـ تخفيض نسبة مساهمة الدول النامية ، والزام الدول الاكثر نمواً بتحمل الفرق الناتج عن ذلك .

أدى تبني قرار محكمة العدل الدولية من قبل الجمعية العامة الى ظهور مشكلة جديدة تكاد تؤدي بالمنظمة وتهددها بالانهيار ، وهي مشكلة الافلاس من جهة وحرمان بعض الدول من حق التصويت في الجمعية العامة من جهة اخرى ، اذ أن المادة ١٩ من ميثاق المنظمة تنص على ما يلي :

(لايكون لعضو الامم المتحدة الذي يتأخر عن تسديد اشتراكاته المالية في الهيئة حق التصويت في الجمعية العامة اذا كان المتأخر عليه مساوياً لقيمة الاشتراكات المستحقة عليه في السنتين الكاملتين السابقتين أو زائداً عنها ، وللجمعية العامة مع ذلك ان تسمح لهذا العضو بالتصويت اذا اقتنعت بان عدم الدفع ناشيء عن اسباب لاقبل للعضو بها) .

وقد اتضح أن هناك اكثر من عشرة دول بلغ مجموع ما على كل منها من التزامات مالية للامم المتحدة اكثر من مقدار اشتراكها لمدة سنتين كاملتين ، وبذلك فهي تقع تحت طائلة المادة التاسعة عشرة ، ومن هذه الدول الاتحاد السوفيتي اذ بلغ ما عليه من ديون للمنظمة مقدار ٥٢,٦ مليون دولار امريكي ، و كذلك فرنسا وغيرها من الدول الاشتراكية الاخرى واليمن .

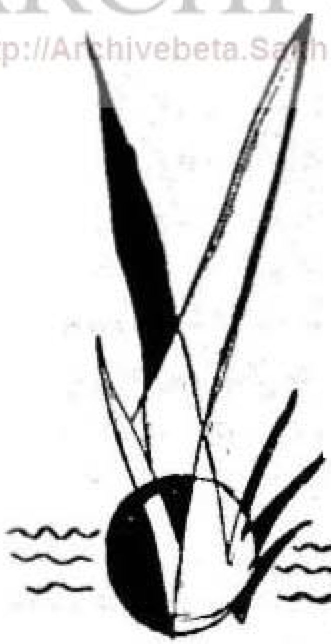
قبيل بدء الدورة التاسعة عشرة للجمعية العامة للامم المتحدة ، اعلنت الولايات المتحدة أنها ستصر على ضرورة تطبيق المادة التاسعة عشرة من الميثاق بصورة اوتوماتيكية على كل دولة متأخرة عن الدفع وحرمانها من حق التصويت سواء كانت هذه الدولة كبيرة أم صغيرة ، وأكدت بشدة ضرورة حرمان الاتحاد السوفيتي من حق التصويت اذا لم يدفع جزءاً مما عليه من التزامات بصورة تكفي لابعاده عن منطوق المادة التاسعة عشرة ، مشيرة الى قانونية هذه النفقات والى رأي محكمة العدل الدولية وصراحة نصوص الميثاق . وأعلن الاتحاد السوفياتي من جهة اخرى انه لن يدفع أي مبلغ لهـــذه الالتزامات ، لعدم قانونيتها من وجهة نظره ، كما أضاف قائلاً بأنه لايقبل بفكرة التطبيق الاوتوماتيكي للمادة التاسعة عشرة ، اذ يجب صدور قرار عن الجمعية العامة بحرمان دولة ما من حق التصويت وفقاً لمفهوم المادة نفسها ، وهـــدد الاتحاد السوفياتي بأن اتخاذ أي قرار بحرمانه من حق التصويت سيؤدي الى انسحابه من منظمة الامم المتحدة .

وقفت الدول الحيادية بين الدولتين المتصارعتين تحاول ايجـــاد مخرج للازمة المستعصية ولكن كل الحلول المقترحة باءت بالفشل حتى الآن لتمسك كل من الجانبين برأيه واصراره عليه ، وقد تجنبت الجمعية العامة منذ افتتاحها حتى تاريخ رفع جلساتها في نهاية عام ١٩٦٤ اتخاذ أي قرار

أو عرض أي مشروع على التصويت تفاديا لاثارة موضوع تطبيق المادة التاسعة عشرة وماسيتبع ذلك من مضاعفات ، حتى ان الجمعية العامة عندما اضطرت لاتخاذ قرار في الشهر الماضي عمدت الى اجراء تصويت غير رسمي خارج قاعة الجمعية العامة .

مازالت المجموعة الاسيوية الافريقية تلعب دوراً رئيسياً في حل هـذا الخلاف ، فهي تطالب بانقاذ المنظمة من الانهيار ، اذ انها وجدت لحفظ السلام ، وليس احوج من هـذه المنظمة اليوم للمحافظة على السلام ، خاصة وانها الملاذ الاخير لعديد من الدول الصغيرة الحديثة الاستقلال الـتي تجد في الامم المتحدة ملجأً لها يحميها من كل اعتداء ومنبراً حراً تهاجم منه الاستعمار واعوانه .

ان الشعور بمبدأ المسؤولية الجماعية واظهار التضامن الجماعي والتعاون الدولي ، وتجديد الثقة بالمنظمة على انها المنظمة الوحيدة القادرة على وقف اي اعتداء ، كل هذا وغيره يحتم ايجاد حل للازمة ، ولعل في الاقتراح الاخير القاضي بانشاء (صندوق انقاذ) تضع فيه الدول على اختلاف ميولها ومواقفها السياسية والقانونية تبرعات مالية دونما تخصيص او تحديـد ، مخرج لهذه الازمة بدون احراج لاي من الدول الصغيرة او الكبيرة .



الكتاب والموضوعات

- الشعر في غزل قومي
  من احمد رامي وصالح جودت
- ليلى أمية « شعر »
  صالح جودت
- حنين الى دمشق من الطائرة « شعر »
  احمد رامي
- الله
  شعر **الدكتورة عاتكة الخزرجي**
- بغداد الهوى « شعر »
  سليم الزركلي
- بغداد « شعر »
  مصطفى جمال الدين
- الجرح المتجاوب « شعر »
  صالح خرفي
- حول كتاب « مع الشعراء » -٢-
  رشيد سليم الخوري
  الشاعر القروي
- حبيب أسطفان في المهاجر الاميركية
  — ٢ —
  جورج صيدح
- الليلك
  قصة للكاتب الروماني زكريا ستانكو
  ترجمة الآنسة دلال حاتم

الشعر في غزل قوميّ

من احمد رامي و صالح جودت

صباح يوم السادس والعشرين من شهر شباط ١٩٦٥ كانت الطائرة العراقية تغادر بغداد ، حاملة اعضاء الوفود العربية المشتركين في مؤتمر الأدباء، عائدين الى ديارهم . وكان في الطائرة اعضاء الوفد السوري، ووفد الجمهورية العربيـــة المتحدة ، وعندما كانت الطائرة تحلق فوق دمشق ، والعيون تطل عليها من فوق السحاب ، كانت أحاديث الأدباء والشعراء ، تتناول جمال دمشق ، وماتوحيه الى النفوس الشاعرة. وقد أوحت دمشق الى الشاعر الاستاذ صالح جودت خمسة أبيات من الشعر ، كتبها وسلمها الى رئيس تحرير المعرفة ، تحية رقيقة ، وعاطفة صادقة ، على أمل أن تبلغ الى دمشق . كذلك أوحت (دمشق من الطائرة) الى الشاعر الاستاذ احمد رامي، بتسع أبيات شعرية ، ضمها الى تحية زميله جودت .

وان رئيس التحرير ، ليسره أن يحمل هاتين الزجاجتين الجميلتين من عطر الشعر القومي ويضعهما بين يدي دمشق ، مع طلائع ربيعها .

من صالح جودت

ليلى أمية



« بلغوها إذا بلغتم حماها »
اني المستهام رغم جفاها
منعتني عن أرضها فتسامى
بي حبي حتى بلغت سماها
أفقليل علي أن تتجلى
لعيوني ولا أقبل فاها
ليتها وهي تمنع الورد عني
سمحت لي بحفنة من ثراها
بلغوها أني على العهد باق
فعساها تلين يوماً عساها

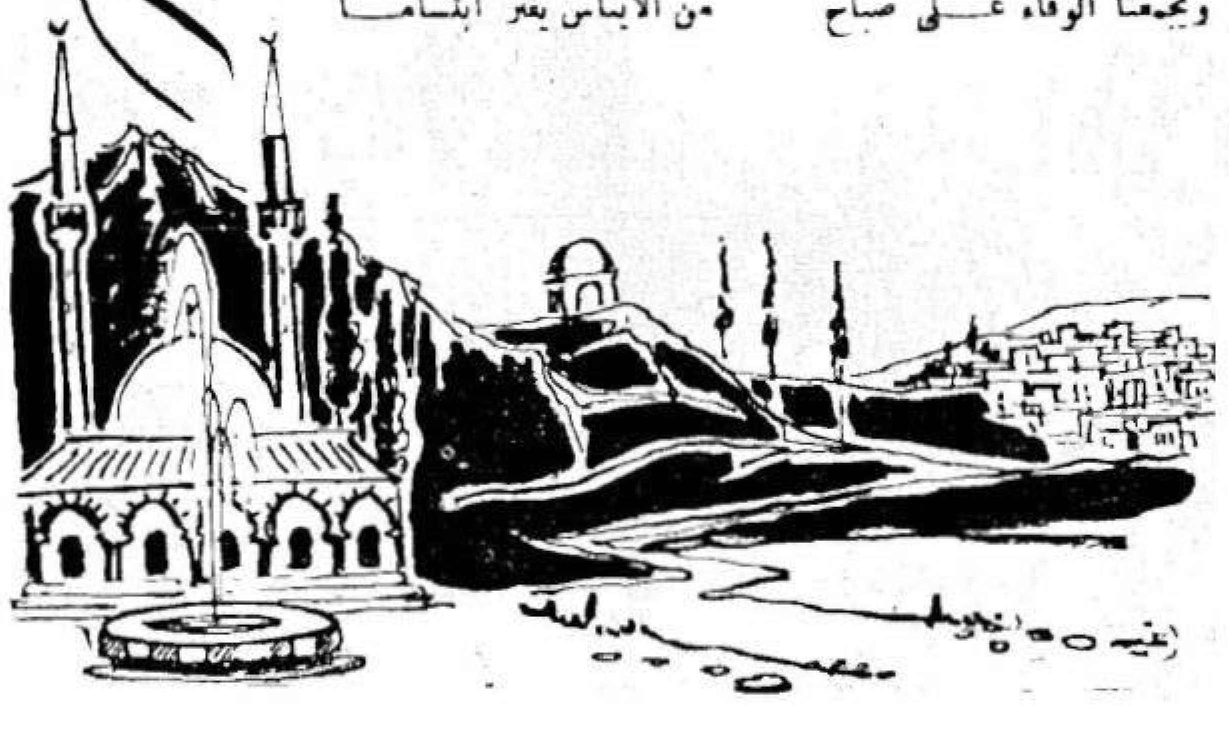


من أحمد رامي

حنين الى دمشق

«من الطائرة»

أنهبطها ولا نسقى أوامـــا — من الشوق الذي أذكي الضراما
مررنا بالديار فلا حبيب — يوافينا ويهدينا سلامــا
ولا خدن نحمله اليــه — تحيتنـا ونعطيه كلامـا
جزى الله الزمان وقد توالت — نوائبه فعكرت الوئامــا
ومدت بـــين قلبينا ستارا — اشاع عـــلى مودتنا قتاما
وعكر صفو ايام نعمنـــا — ببهجتهـا وعشناها سلامــا
وما ذنب القلوب وقد تصافت — اذا جو الخلاف دجى وغامـا
هي الآراء أنأتنـا ولكن — سنمحوها وندفن الملامـا
ويجمعنا الوفاء عـــلى صباح — من الايناس يفتر ابتسامـا



الله

شعر الدكتورة عاتكة الخزرجي



هواك هواي الذي يعرفون
وسرك سري فما ينكرون
أحبك فوق الهوى والظنون
وفوق الذي يحسب العاشقون
هواك هواي أبا عالماً
تقاصر عن وصفه الواصفون
تملكني جملة جملة
وهان به كل مالا يهون
فبعضي وكلي به موكل
تعاليت عمّا به يشركون
وفيك عشقت الجمال الرفيع
وادركت سر ضياء العيون
جمالك يا خالقي آية
يضل بأسرارها المهتدون

• • •

* أهديت المعرفة هذه الابتهالة الحارة ، للشاعرة الأديبة الدكتورة خزرجي ، وقد قدمتها لمهرجان الشعر . والدكتورة خزرجي استاذة في كليتي الادب والتربية ببغداد .

أحبّـــك للحبّ لا رغبـــة ... ولا رهبة بشى ما يأفكون
هواك هوى لم تصفـــه اللغى ... وأعيى النهى وتحدّى الظنون
فأنت بروحي رفيـــف السّنى ... وهمس المنى وابتســـام الفتون
ونفـــح بشيم وروح بديع ... ووحي أمين وحسن مصون

• • •

تعاليت سُبّحت ياصـــورة ... تناهت وحار بهـــا المبدعون
يُكذب بالوهم منهـــا اليقين ... على أنهـــا تجتلى للعيون
أراها حواليّ في كل حـــين ... ترف فأنى بهـــا يكفرون !
أحدث في السّر منك الفؤاد ... فتعلم سرّي ومـــا يجهلون
وأخلو فألقاك في خلوتي ... وأغفو ورؤياك ملء الجفون
تطالعني في ارتفاع الضحى ... وتبسم لي في ظلام الدجون
فأنت معي في مجالي اليقين ... وأنت معي في خبايا الظنون !

• • •

يسبحك الخلق في كل آن ... ويعنو لهيبتك القانتون
ويغدو على بابك الأقوياء ... ويرجو مواساتك المتعبون
ويسألك الرحمة الأتقيـــاء ... ويأوي الى ظلك المذنبون
وتحنى الجباه لعزّ الإله ... ويخضع للأكبر الكابرون !

• • •

تباركت سبحت ياذا الجلال ... ويامن إليـــه غداً يفسلون
ويا مجري الفلك فوق البحار ... ومن باطن الصخر ثج العيون

ويا مجري الشمس في أفقها وكلٌّ على فلكٍ يسبحون
تباركت كيف سلخت النهار من الليل كيف مسخت القرون
وكيف بريتهم من رغام وكلٌّ الى أجل سائرون
وسويت بينهمُ بالحمام وروّضت فيهم جماح الحرون

. . .

تباركت كيف قسمت الجدود وكيف يقال بها العاثرون
وسعت بحلمك طيش الجهول وغيّ الكفور ولؤم الخؤون
ولم توصد الباب دون الجحود ولا دون ما أملٌ التائبون
حكمت فأقسطت في العالمين وبالعدل فليحكم الحاكمون
فنارك يصلى بها الكافرون وجنات عدن بها المؤمنون

. . .

تباركت ياربّ هذا الوجود ومن باسمه سبّح العالمون
ويا موقد النار من أخضر ومعطي من الأرض مايشتهون
ويا مخرج الحيّ من ميّت ومن قال للشيء كن كي يكون
تباركت يافاطر الكائنات ومن هم اليه غداً ينسلون
فزعت لبابك أرجو حمى لضعفي فأنت حماي المصون

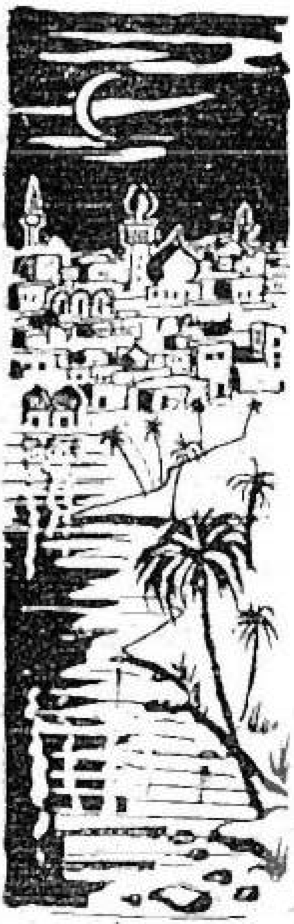
. . .

عبادك ياربّ ضلوا السبيل وحار الدليل فما يهتدون
تشامخ في أرضك الأدنياء فأيّان عن غيّهم ينتهون
وجارت بأحكامها الأقوياء فسيم الضعيف عذاباً وهون

ولم يُعط من مالك الأغنياء	وراحوا على شحهم يحرصون
ولم يبق في الناس معنى الحياء	فأمسوا بآثامهم يفخرون
وضجّت مواخيرهم بالحياة	وباتت محاريبهم في سكون ..!

عبادك يارب ضلوا السبيل	فأين الدليل ؟ عسى يهتدون
أخاف عليهم وأرجو لهم	فغفراً لهم إنّهم لايعون ..!
وأنت الغفور الودود العليم	بما قد يُسرون أو يُعلنون
وأنت اللطيف الرءوف الرحيم	وأنت الرفيق الشفيق الحنون





بغداد الهوى

شعر سليم الزركلي

احقا ترى بغـــداد ، ام انت حالم
وبغداد ، يا قلبي ، الهوى والمعالم

معالم امجاد ، ودنيا حضارة اضاء بها الدهر العلى والمحارم
تغنيت ، والبيداء تفصل بيننا فهات ، وانت اليوم جذلان ناعم
ادرها كؤوسا ، بارك الله نفحها من الود ، والامشاج نشوى تناغم
فكم لك في اظلالها من مناعم وكم طاب ، في الذكرى ، هوى ومناعم
اناجيك ، يا ام المدائن ، والرؤى تهش لها ارواحنا والمباسم
رؤى في طريف المجد تزهى روائعا وخير جديد ما بنته العزائم
وأرجع الماضي ، فاسجد خاشعا وحق لماضيك الرقى والتمائم
زمان شدا بالشعر . في كل منبر اخو عبقر . والشعر بالمجد هائم
وغنى هزار الشعر في كل روضة وطوبت الافلاك فيها الحمائم
وطوف في سوح الفتوحات أعصر تساق الى جناتهن الغمائم
ودنياك يابغداد . والدهر طيع تشيد وتبني ، والحظوظ كرائم

(*) القصيدة التي القاها الاستاذ الزركلي في افتتاح مهرجان الشعر — بغداد —

ابغداد عرس في رحابك قائم   وهذي بنات الفكر فيك نواظم
تحييك ، والآمال خفق حروفها   وتنشد للازمان والدوح باسم
وترقب للفجر الانيق مطالعاً   بهن فصول للعلى ، ومواسم
عسى يلتقي ماضٍ وآتٍ فتشتفي   قلوب لها خلف الضلوع مآتم
تحيّفها جور الحوادث ، فانبرت   تصارع افواج الاذى ، وتخاصم
وتستصرخ الدنيا لعل فيالقا   تحسّ ، فتشتاق الصيال صوارم
أضاعت على الاقصى ، عهود كرامة   وهيهات ان يُنسى الاسى والمظالم
وللوجد في احنائهن مجامر   ومن لعميد أثقلته المغارم ؟

. . .

نشدتك للود القديم ، وللهوى   وبين ضلوعي من هواك عوالم
أدغدغها ، والفجر بعد ملثّم   وأوتارها ، والذكريات حوالم
ودجلة يسري ، والنخيل مهوّم   والسحر في اعطافهن نواسم
وفوق خدود النهر راقص شعلة   خواطرها تحت العباب بواسم
وقلبيَ ، في أشواقه ، نضو صبوة   وهل تستريح الطير ، وهي حوائم ؟

. . .

تحية أعراق ، وعطر اواصر   أسقيك يابغداد ، والوجد عارم
ففي بردى . والغوطتين مشاعر   ترف ، فما تقوى عليها السمائم
تحن لأيام خلت ، من عهودها   وأنت نجاواها ، وانت الدعائم
وليسَ سبيل الحبّ هجر وفرقة   وليس شعار الاكرمين سخائم
هي للعلى دهراً يضوع أريجه   تطيب به أجيالنا والعواصم
وخلي الجوى يحرق كبود عواذل   وتشرق بالغيظ الدفين لوائم
ونحن على حال من الود تستقي   نوافحه امجــادنا والتهائم
فقد تعظم الاشياء وهي صغائر   وقد تصغر الارزاء وهي عظائم
وما الحزم إلا أن نضم شتاتنا   فتسعد أوطان بنا ومشائم



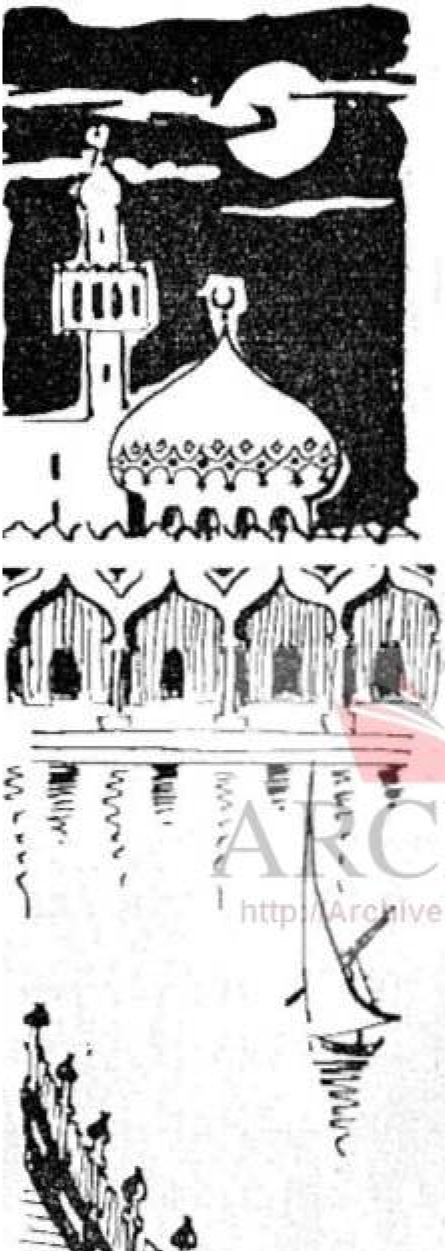
بغداد

شعر مصطفى جمال الدين

بغداد ما اشتبكت عليك الاعصر الا ذوت ووريق عمرك اخضر
مرت بك الدنيا وصبحك مشمس ودجت عليك ، ووجه ليلك مقمر
وقست عليك الحادثات فراعها ان احتمالك من اذاها اكبر
حتى اذا جنت سياط عذابها راحت مواقعها الكريهة تسخر
فكأن كبرك ـ اذ يسومك (تيمر) عنتاً .. دلالك اذ يضمك (جعفر)
وكأن نومك ـ اذ أصيلك هامد ـ سِنَةٌ على الصبح المرفه تخطر
وكأن عيدك بعد ألف محولة عيدُ افتتاحك وهو غض مثمر
لله أنت .. فأي سرٍّ خالد أن تسمني وغذاء روحك يضمر؟!
أن تشبعي جوعاً وصدرك ناهد أو تظمي افقاً وفكرك نير

* * *

(١) اهدت للمعرفة هذه التحية الصادقة ، من شاعر النجف الاشرف، الى صانعي امجاد بغداد وقد قدمها لمهرجان الشعر والشاعر جمال الدين ، هو استاذ المعاني والبلاغة في كلية الفقه في النجف .



بغداد بالسحر المندّى بالشذى
الفوّاح من حُلَلِ النسائم يقطر
بالشاطىء المسحور يحضنه الدجى
فيكاد من حُرَق الهوى يتنوّر
بالسامرين أثابهم من هومهم
وَهَجُ الضحى.. وكأنهم لم يسمروا
وبراقدٍ و (الخلد) بعضُ جنانه
والسحبُ ملك يديه أنى تعطر
واذا تهدّج (بالرصافة) صوته
جفلت بمصر على صداه (الأقصر)
والحور بين يديه ترحل الهوى
غزلاً به حتى السنا تسكر
يرقى لعينيه السهاد الحلوة
في الروم تهتف باسمه وتحذّر
فيرد كأس الحب عن شفةٍ بها
شوق الى كأس الحميّة أسعر
وبساهر (المستنصرية) طرفه
في حيث تأتلق الحروف مسمّر
تعبت عيون النجم وهو كأنه
حدب على صقل المواهب يسهر
ظمآن .. والكأس المفاضة دونه ..
لو كان يُخدع بالسراب ويُمكر
يشوي على اللهب المقدّس روحه
ليُعيل جيلاً حوله يتضوّر

ويضيع في غمر الدجى ، ويراعُهُ	احدى عطاياه الصباح المسفر
ماضٍ عاطشة القلوب اذا ارتوت	بالعود من لفح الظى يتقطر
وكفاه مهزولاً تعيش بقلبـــه	أمَمٌ . . وتسمن من حشاه أعصر
تأتيـه اجساداً فيصنع روحهـا	والطين - لولاه - الكثير الاوفر

. . .

بغداد بالذكرى الحبيبة ، بالصدى المرنان من خلف الاعاصر يهدر
قصّي . . فنحن وراء (ألفك) ليلةٌ	اخرى يطول بها الحديث ويقصر
ودعي الخيال (فشهريار'ك) سمعُهُ	للآن من صخب الحوادث موقر
وتحدثي - فجلال مجدك لا يُرى	ان تصمتي وترى سواك تثرثر - :
عن (عصرك الذهبي) ماطال المدى	إلاّ وناصعُ وجهــه المتصدر
تعيى بجلبتها العصورُ ، وشوطُهُ	أبداً على نشز الحواجز يطفر
ما اخضرّ من تلع الثقافة منكِ	إلاّ ومنـــكِ رواؤه يتمطر
وستفخر الاجيال بعدك انهــا	كانت على بُقيا بساطك تسمر
ستظل قينةُ (دار سابور) بـما	اسدت الى (شيخ المعرة) تشكر
ويظل كرم (ابي نواسك) بيننا	عذب الخمار وان أجد المعصر
والى غــدٍ وبنو دجلة سامر	بما ينث (الاصمعي) معطّر
بغداد واستقصي الحوادث واكشفي	غَبَشاً يطوف بصبحها فيغيّر
وحذار ان تثقي برأي مؤرخ	للسيف ، لا لضميره ، مايسطر
فتسائلي عن (معرض) يجلوك في	ابهائه صوراً تسرّ وتسحر :
لمفكر يجلو دجاك . . وقائد	يُروى به ظمأ الفتوح فتزهر
ومهندس يبني الصروح . . وشاعر	لبناه يُسرج ليلها ويعطّر

ولزارعٍ في الحقل يدفن عمره … فتُمدُّ منه غراسُهُ وتعمر
ومعلمٍ لم يدرِ شاربُ كأسه … ماذا يقطّع من حشاه ويعصر
بغداد اولاء الذين تحملوا … أعباء مجدك في الخلود واوقروا
فاذا تصفحناكِ سفر كرائم … لم نلق إلاّ صورةً تتكرر
لخليفة ووزيره ، ولحاجب … واميره ، ولمن بهم يتأطر !!
فهم الذين رفوك مجداً شاهقاً … وبُناتُهُ من حوله تتحسر
واذا زرعت الارض فجر حضارةٍ … وتمدّن .. سبقوا لها فاستثمروا
(الخلد) والقبب الشواهق حوله … ابداعُهم .. ويد المهندس تصفر
والفكر تقبسه القرائح من هنا … وهناك ، وهي على اللظى تتسعر
فاذا تجسد واستطال جهادُها … صعدوا على شرفاته وتجبروا

. . .

بغداد آن لك الاوان لترجعي … ما ابتز منك الحاكمون وزوّروا
فوراء مجد يرفعون ضمائر … تغنى بصدق حديثه وتفسّر
فتنقدي (ذهباً) يؤطّر عصرك الزاهي بما يُعشي العيونَ ويبهر
هل كان الآمن (حديد) همّه … حصدُ النفوس ليستقر (المنبر)
وتباركت مُهَجٌ تذوب بجوّه … فتشوب كالحَ لونه وتنوّر
بغداد آن لك الاوان لتحطي … مُخشباً بآلاء الشعوب تنضّر
ماعاد مجدك يستكين لفارهٍ … يبتز جهد سواه حين يؤمّر
من كل مشغول بليلة قصفه … وصباح نزهته وما يتبطر
المالُ بين يديه يطرب أغيد … ببليغ رنته ويرقص أحور
فاذا تطلع (للسواد) بريقةُ … بُحّ الرنين وغاض منه العصفر

. . .

بغداد لم يعد الزمان كامسه ... فكرًا تُباعُ ، وخاطرًا يُستأجر
وهزيلَ رأي أسمنته على الطوى ... قيمٌ بما يضوى عليه مفكّر
نهضت (كوافير) بريشة (شاعر) ... كانت تزوّق خدّها فتصعّر
وتبوأت لغة المفاخر فانطوى ... (لقب) واوحش لابسيه مفخر
بالأمس كان بلكِ الأديب وثغرُه ... أبداً يسبّح حاكماً ويكبّر
(وبعدَ رؤيته التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تكفر)
واليوم عاد وليس غيرَ يراعه ... سيفٌ تُراع به الطغاة وتذعر
وعلى شموخ ضميره يسمو له ... ما بين اذرع حاضنيه المنبر
وبما تهدّم من بقايا روحه ... يبني عزائم جيله ويعمّر
واذا دجا ليلُ القنوط واوشكت ... باليأس اجفانُ المنى تتخدر
ألقى بوقدة روحه فاذا الدجى ... مهج على لهب الخاطر تجمر

•

والآن يا بغداد يأزف موعدٌ ... لك في الخلود قلوبُه تنتظر
من كل مَن اعطاكِ غض شبابه ... ومضى بذابل عمره يتعثر
يترقبونك والطريق أمامهم ... جهمُ المسارب ، ضيّق ، مستوعر
يبس الزمانُ وهم على اطرافه ... عذبٌ — بما تعدينه — مخضوضر
فتعهدي ما يأملون وانعشي ... أقيامَهم فهمُ بمجدكِ اجدر
رفعوك من قطع القلوب وحقهم ... منك الوفاء لهم بما هو اكثر
وفعلتِ .. والحر الكريم رهينةٌ ... ليدٍ تبادله السماحَ فيشكر
بالأمس وفيّتِ (ابن كندة) حقه ... وعلى سمائك للقطيعة عثير
وغداً سيلقاك (الرضي) ويومُهُ ... ألقٌ باعياد العروبة مسفر
وأنا الضمين بان قلبك في غدٍ ... أندى ، وأحفل بالوفاء ، وأطهر
وبان يومك وهو عيد مروءةٍ ... سيغيض عن غدر الهوى ويكفّر

الجرح المتجاوب

شعر صالح خرفي



شبح لاح لي يطوح في التيه الى الافق تشرئب بداه
يا الهي متى أعود ؟ متى الفجر ؟ وليلي على الاسى عداه
رجع الأفق صوته ، ثم أحنى يسأل الأرض : هل سمعت نداه ؟
فتعالى من الجزائر صوت : أمل العائدين نحن فداه
من عباب المحيط في المغرب الاقصى ، ترامى الى الخليج صداه
مهبط الوحي من حثالة صهيون ، ورجس اليهود نحن فداه

يا أخي في خيام (غزة) في مهمه (سينا) جروحنا تتنادى
نحن قربان مدلج ينشد الفجر ، فكنا له منارا وزادا
رعشة الضوء في سراجك بإصباح أثارت له الربا والوهادا

(*) احديث للمرقة ، هذه القصيدة التي قدمها الأديب الجزائري صالح خرفي عضو وفد الجزائر الى مهرجان الشعر في بغداد ـ ١٩٦٥ يرسل بها تحية الثوار الى وطن العائدين .

ومن الأنـــة الجريحة وافتـــه من النصر نغمة تتهادى
اننـا نزرع الورود على الدرب ، ونجني من الورود القتادا
مرحبا بالقتاد يدمي خطى حر اذا الخطب نسأل منـــه استزادا

ان أشلاءنا معـالم حمراء ، بقفر طغى عليـــه السراب
وخطـانا من خلفها الاثر الدامي ، كما ضرج السماء شهـاب
ودموع الشريد أنجمنا الزهر ، اذا كفن السماء سحـاب
صفق النسر فارحي يارواني واعتلا البنـد فاسجدي ياقبـاب
عاودت راية العروبة ذكرى يوم (بدر) واستصرختها العقاب
لست بابن السليب ، يا ابن بلادي أنت عملاق موطـــن مسترد
فاترك السلم للدعاة ، وللنـار خطانا فسلمنا رفـع بنـــد
في غد اننا طلائع تهليـــل . وان الهبوط لطمــة خد
يافلسطين ان رأيت قتاما . فاعرفي انني وفيت بوعدي

يا أخي لست بالشريد المعنى . فحنايا ضلوعنا لك مأوى
أنت أنشودة الصبـــاح اذا افتر ، وفي غفوة الدجى أنت نجوى
عبرة أنت للحنـــان وللعطف ، استطابت انسان عيني مثوى
قطرة أنت من دم قدمي ، كم شفى غلة الشهيد وأروى
يا قويـــا بنـا ، وبالقلب في جنبك يهفو لثأره أنت أقوى
لا تسلني عن مسقط الرأس . سلني أين مرمى عصاي . غاية طوفي ؟
يتمطى بي المسير ، وتغريني الفيافي والريـــح تعوي وتسفي

قبلتي كعبة ستاثرها العـــذراء ديست وحملت أي خسف
مسقط الرأس . أين تهوي رؤوس الغدر والروح رفرفت فوق كفي
يومـــا قد نزعت لتكون يا روحي . فزفي لي السعادة ، زفي

مد لي كفك الجريحة يا صـــاح . ودعها تضم كفـــا جريحة
لك في وحشة الدروب أنيس . مسه الضيم فامتطى الثأر روحه
لوحت لي من تحت أخمص صهيون سهول (الجليل) تشكو طريحه
جسد ان حرمتـــه يا الهي من ثراه ، فخط فـــيه ضريحه
وبأفيـــاء كومة عسجدتها ومضات الغروب ضمـّــد جروحه
قبره في بلاده روضة الخلد ، اذا شئت - خالقي - أن تريحه

يا أخي . تستشف عني وراء الغيم ومضا ، ماسره ؟ لست أدري
علـه بسمة الشهيد اذا لاح له الخلد في حشاشة صـــدر
عـــله خفقة لطلقة رشاش ، مناها أن تستقر بنحـــر
عـــله - والحيـــاة ليل غرابي الخوافي تجن شوقا لفجر -
شمس حرية ، غـــداً سوف تكسو حومة الملتقى سبائك تبر
مقلتي ان حرمتها . فتأسى . فهي دفئي اذا توسدت قـــبري
دفء شعبي في الدرب طال بـــه السير ، فزودته بقية عمري



حول كتاب «مع الشعراء» (*)

رسالة من الشاعر القروي
رشيد سليم الخوري

— ٢ —

الشاعر القروي

هذا الرفيق الثقيل الذي لايوافقني ولايفارقني

هذا الخصم الذي لم ازل معه في اعنف صراع مذ نبت عذاري

هذا المزعج الذي طالما ولّد لي من سكينتي اضطرابا

هذا العدو الالد الذي طالما ابتهلت الى الله ان ينقذني منه وعلي انقاذي من سائر اعدائي

اعدائي تشغلهم همومهم احيانا عني . وهو لاشغل له عني الا بي

كيف افرّ منه . وهو اقرب الي مني ، لفرط مايخالط نفسي ، ويمازج فكري

(*) في القسم الاول من البحث المنشور في العدد « ٣٧ » الماضي تحدث الشاعر القروي الاستاذ رشيد سليم الخوري في مجال عرضه ونقده لكتاب « مع الشعراء » تأليف الاستاذ حارث طه الراوي عن الشعراء السادة : محمود سامي البارودي ـ اسماعيل صبري ـ عبد القادر رشيد الناصري ـ شوقي ـ

ويتابع الاستاذ القروي حديثه في القسم الثاني والاخير عن الكتاب مبتدئاً بنفسه .

اذا اصابني من الاباعد سهم . اصابني منه سهام لم يشفني عدو قط سواه . ولا ابكاني عدو قط الاه اذا ظفني اعدائي ، قد يرحمني الله ، وقد ينحاز بعض عباده الى جانبي . اما هو فان اذنب الي . آخذني الناس بذنبه . وغضب ربي علي .

قد اجد لاعدائي حسنات عندي . ولا اجد له الا واحدة اذكر بالخير . وهي احتجاج نفسي به . واقناعي دائماً ، بان اعدائي الآخرين . اولى منه بتسامحي وغفراني . مادمت اسامحه واعايشه . حين هو اوامهم باذيتي . واشدهم خطراً علي في الدنيا والآخرة .

واقسم اني لم استأ يوما من متحرش بي . او معتد علي . قدر استيائي منه . بعد ان يمد حماقته بالطيات لمرضاتي . وادخال السرور على قلبي .

ولم افرح يوما . مثل فرحي حين اتمكن من لجم ارادته . وسحق انانيته . وخنق رغباته وشهواته .

هذا الذي اشبعه الناس تعظيما وتكريما . في مهرجان عام ، فاوسعته ، على مشهد منهم ومسمع ، ذما وتحقيرا بقولي :

لا . لست يانفسي كما وصفوك فلقد عرفتك قبلما عرفوك

ماانت في عينيَّ الا قزمة ولو انهم فوق السهى رفعوك

عطفوا عليك فبوأوك من العلى عرشا وكم في العرش من صعلوك

اجل ان هذا الانسان الذي برمت به وكرهت عشرته كما كان يكرهها ويكرمني شكري الخوري(١) وانطون سعاده رحمهما الله ورحم كل من كان ومن هو كائن على شاكلتهما من الاحياء والاموات ، اجدني مضطرا ، احيانا كثيرة ، الى رعايته ونجدته ، والذود عنه ، بنفس الحمية التي تفرض على العربي حماية عدوه المستجير به . ذلك

عندما أراه مظلوماً وأنا لا أطيق الظلم !
مفتأتاً عليه وأنا أمقت الأفتئات !
مغدوراً به وأنا أشمئز من الغدر !

وحين يلحقه اذى المتعصبين للباطل . ويكون على حق !

وحين يعلن عيوبه للملأ . فيتشفى بعضهم ، بان يضيف اليها ماتجنى لصاحبها . مما هو شر منها !

---

(١) صاحب جريدة (ابو الهول) الاستعمارية كان ديدنه سب القروي وتحقيره

وعندما يصنع بعض الاحيان جميلا ، فيخلطون ذهب صنيعه بالنحاس ، او يحولونه بسحرهم الى تنك . او يدفنونه تحت تاسع ارض !

قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، اقل هاك حكاية من حكايات . .

اهدى هذا الشاعر المغضوب عليه ديوانه يوما الى احدهم بايعاز من صديق عزيز . واطلع هذا (الاحدهم) في مقدمة الديوان على دستة من عاهات الشاعر البدنيـــة التي اراد كشفها لمن يجهلها من الناس . فعمي لسر البيان عن الف صفحة من الشعر . ولم يبصر غير تلك العاهات المشؤومة . فلكأني به يقف عندها متنحنحاً . ثم يقرأها متأنيــاً . مثنى وثلاث ورباع . ملاحظاً اسماءها . متمصصا حروفها . ممتخا الفاظها ، يستخرج نقي (١) معانيها . تلذذا واستطابة وتفكها . وبعد ان يضرب لسانه شفتيه ، وصامفيه ، واقه ، وذقنه يمنة ويسرة ، وتصعيدا وتصويبــا . متثبتــاً متلحساً متلمظا . يحك راحة براحة . ثم يجرد براعه للتقريظ ، بحماسة دنكشتيه . فاصراً حديثه عليها ، على تلك العاهات ، اجل عليها وحدها لاغير . وينشره في جريدة مهجرية يومية مشهورة . مظهراً حزنه الشديد ، على الشاعر المسكين . بان زاد على بؤبؤه المطروف . واصبعه المقفوق . داء السل والسرطان . وغيرهما من فاجعات الارواح . .

قد تعجب ياصديقي لهذه الحكاية الواقعية . وهي ليست الا مثلا على غرابة اطوار بعض خلق الله . وانها لأقرب الى النكتة التي يتندر بمثلها الظرفاء .

ولكن في عالم الادب اليوم ، ماهو اعجب واغرب . فالذي يطيب له أن يشهر العيوب . وهي حقا عيوب . فانه ، على الاقل ، لن يجانب الصدق . ولن يعدو الصواب . ولئن بالغ بعض المبالغة . فمن باب (تبهير) النادرة . وبراعة حمل سامعيها على الضحك . اما الانكى والادهى . فهو ان يعمد الناقد الى المحاسن ، فيمسخها معايب . والى المفاخر ، فيجعلها معاير . ولا مقياس للجمال والقبح عنده . الا حكمه العرفي المبرم . يعلي به ويسفل . ويجتي ويحتوي . ويحيي ويعدم . كيف شاء . ومتى شاء . ومن شاء .

قالت العالم الفاضلة كاتبة المقدمة . (٢)

ان وصف الربيع في قصيدة القروي لايعدو ان يكون وصفــاً . . فنقول اذا لم يكن الوصف وصفا فماذا تراه يكون ؟ ان المهم في النقد ياسيدتي ، ان تمرتي او تكري ، بعد بيان وتبيين ، وتمييز غث من سمين ، كون هذا الوصف طريفا مبتكرا ، يحدث الطرب والمتعة . أو مبتذلا تافها ، لفرط مالاكته ولفظته الاقلام . وقالت الدكتورة الفاضلة . (في القصيدة ليل وبدر وشمس وفجر وبحر ونهر ودوح وعطر وغصن وطير وحمام وقطر) فاصلة بين كل كلمة واخرى ،

---

(١) النقي . مخ العظم

(٢) مقدمة كتاب الاستاذ الراوي .

بثلاث نقط علامة السخرية . ثم اشرفت على الختام بقولها . كل هذا الحشد لم يجد بينــه الشاعر صديقا يرتاح اليه . ويسر النجوى فيطول السرار !

فنقول لمالئة الملامة . ان هذه الالفاظ الشعرية المرنة . قبل ان تطلق فيها كفك الناعمة . كانت لآلىء ابكارا . تخيرها الشاعر من در (البحرين) لامن جزع (ظفار) (١) . ثم ثقبها ونظمها قلائد لنحور الحور العين . والتهاقبل ان مزقتهاقناد تلك القعي اشلاء . وبعثرتها كحطام طائرة تعالة كانت ملكة من ملكات الجمال . فتاة ساحرة . مياسة القد . أصبهانية الحنجرة . ملء برديها صحة وعافية . لقد اعدمتها الحياة . وجئت تسألين فيها عن الروح . فاسمحي لنا ان نسألك بدورنا : كل هذا الحشد من الفكر والصور والمعاني ، الم تجد بينها الناقدة النقادة ، فكرة اوصورة او معنى ترتاح اليه وتسر النجوى فيطول السرار ؟ لقد طبقنا نهجك الفذ على نموذج مختار من نماذج امير الشعراء التي (تسلم القارىء او الناقد الى دوار النشوة والذهول ، وتقربه من عالم معجزات الخلق الفني) كما وصف مؤلف هذا الكتاب . فماذا بقي من المعجزة الفنية بعد هذا التطبيق ؟ بل ماذا يبقى من هومر وشكسبير والمتنبي وسائر شعراء الدنيا العباقرة من قبل ومن بعد ؟ بل ماذا يبقى من كل الكتب المنزلة غير هذر السكارى وهذيان المحاميم .

لو أنك دللتنا على انعثار في نغم . او أبديت استحسانا لايقاع . لشكرنا لك التنبيــه او التقدير او كليهما . ولا كبرنا علمك في فن الغناء . ولكنك لم تشيري لا الى مكرب . ولا الى مطرب . واقتصرت على استهزاء شعوبي غريب ، بليالي هذا اللحن العربي وعيونه ؛ ناعية عليه عريه من آخر ازياء الغناء الغربي . انك اشبه بمن يقول لمكتشف القطب الشمالي ، انك لم تكتشف الجنوبي . فاذا فعل ، قلت انك لم تصعد الى القمر . فاذا صعد تجاهلت خارقته ووصفته بالعجز لانه لم يبلغ المريخ . فما ضرك لو كنت تكرمت علينا بنقد ايجابي يكشف لنا مواطن الضعف والخلل والقبح فيما رسمنــا وقلنا ، اما الذي لم نرسم ولم نقل فانه طبعاً عالم لاحدود له . انك تفرضين علينا ان نحيط باللانهاية . والا فلسنا شعراء . فاسلوبك في النقد ، اسلوب معاجزة . لايمت الى قاعدة ، ولا يجري على اصل . واقل مايقال فيه انه سلبي هدام . لايقوم أمتـا . ولا يصلح فاسدا ، ولا يهدي الى صراط .

ان رشق الكواعب الناهدات الصدور بعبارات التهكم . وتصنيفهن مع العرديسات المترهلات ، لن يضيرهن شيئاً . ولكنه يضع على شفاه الذين لهم عيون ويبصرون ، اكثر من علامة استغراب وشك في صحة نظر المتهكمين . وان الشعر ، قل اي فن جميل آخر ، لايغني

(١) ظفار كقطام اسم بلد باليمن اشتهر بالجزع وهو الخرز .

في تذوقه وفهمه شهادات جامعية ، والقاب سوربونيه ! وان الذي يرى الجميل دميماً . والدميم جميلا لا يعدو ان يكون اما أعمى واما متعاميا . وكلاهما قبيح واقبح . ولا مثالهما قلنا هذا البيت:

يشفيك نور العلم يا أعمى ولا   يشفيك غير الله يا متعامي

والآن فلنقلم اجزاء هذه القطعة التي نثرتها الادبية الكبيرة كلماً فرادى لاتعني شيئاً . ولننظمها كما خلقها الفن على صورته ومثاله . لا كما اخرجها التجني . مطرودة من جنتها . وهي من قصيدة تربي على المائة . متعددة المغنات والمرامي . مطلعها

لمياءُ هذا جبين الفجر قد سفرا   وموسم الحب عنا مزمع سفرا

ثم رحنا نصف بالتدريج ، ما وقع تحت بصرنا من مشاهد الطبيعة الى ان نقول

والبدر كالناشىء العصري عاد ضحىً   من مرقص النجم يشكو الضعف والخورا
يمشي الى الساحل الغربي متئداً   كالشيخ في سفح تل الافق منحدرا
والارض حارت أتلقى الفجر ضاحكة   لأمها الشمس ام تبكي ابنها القمرا
والليل فر فرار العبد حين رأى   مستودع النور في آفاقها انفجرا
والصبح ارخى نقابا من اشعته   اخفى به الزهر لما اعلن الزهرا
سبحان من ابدع الانوار معجزة   ان شاء ابدى بها الاشياء او سترا
والريح تنفخ نايات الغصون على   سمع الشقيق فيجري دمعه غُدُرا
ناحت على ارزها المهجور شارحة   ما رجّع الشاعر المنفي مختصرا
حتى اذا لطفت بالبث لوعتها   وصدعت بمراثي حبها الحجرا
راحت تسرح فرع الدوح ساكبة   من قمقم الفجر اذكى ما الندى قطرا
والنهر ساح كأن البحر مد يداً   بين المزارع تهدي الماء والدررا
طوراً له زأرة الدرزي ثار على   جلاده والى استقلاله نفرا
وتارة يملأ الوادي تنهده   كأن لبنان في اغلاله زفرا
وللجداول أنات موجعة   كأنها فجرت من اكبد الشعرا
ينصبُّ سلسالها خمراً معتقة   كادت تشعشع منها القطرة النهرا
فالغصن من طيب رياها ترنحه   والطير مما حسا من طلها هذرا
وللسحاب ثُنيّاتٌ مصففة   بيض كأن عجوزاً جعّدت شعرا

تذهّبُ الشمسُ اطرافَ الجبين بها كما توشّي يدُ الزوقيّة الحِبَرا
والغمامــــة اذيالٌ معطـرة مثلُ البخور علا في السقف وانتشرا
كأنمــا التلّ امٌ النهر مبتردا ثم استحى من عيون الفجر فاتّزرا
والطود حصنٌ وراء السحب ممتنع والسرح قامت على اسواره خفرا
كأنّ دارعةً يوم الوغى ضربت دخانهـا دون ابصار العدى سترا

فلنلق نظرة اجمالية على هذه الايات . نستكفي بهـا لمناوشة الحملة الصليبية المدبرة اليوم على الشعر العربي الاصيل ، من نفس ابنائه لسوء الحظ . متقدمين بادىء ذي بدء من كل ذواقة حفي بتراثنا الشعري . لسأله لا المفاخرة ، بل بتواضع تلميذ يستقي المعرفة من ينابيعها (١) . اماخرج الشاعر في هذه القطعة ، عن مألوف كل من سبقه من الشعراء ، في تشابيهم للبدر ؟ لقد شاهده وهو في محوه وسراره . بادي الشحوب والنحول ، كأنه نتفة مزعتها الريح من ذيل سحابه . فشبهه بفتى من فتيان هذا الزمان ، اشترك تلك الليلة مع اقرانه ، في سهرة طويلة عابثة مضنيه . عاد منها مع الفجر ذابلا مصفراً ، تشتد امه عليه باللوم ، وهي تذوب اشفاقا على صحته . جاعلا منه ومن الارض والشمس والنجوم ، عالما اجتمعا عصريا حافلا بالحياة . بمباهجها ومآسيها . بمحاسنها ومساوئها . تفرح وتحزن وتسهر وتسمر وتحيي الحفلات الراقصة . ولقد سخر لغة الوصف ، الرأي العلمي القائل بأن الارض منشقة عن الشمس والقمر منشق عن الارض . فالف من هذه الرابطة المادية البحته ، أسرة فلكية . من عجوز (٢) وابنتها وحفيدها . يشعر واحدهم نحو الآخر ، مايشعر افراد العائلة البشرية الواحدة ، من لهفة واشفاق وحنان وغم وسرور . لقد استضحك واستبكى فاضحك وابكى كل هذه الجمادات في السماء والارض . ولقد اعيـا هذا الشاعر المثلي ، ان يعبر عن كل مايضطرب ويضطرم بين جوانحه ، في مهجره السحيق ، من لواعج حبه وتباريحه ، فوكل الريح رسول العاشقين ، مذ عرف الانسان حلاوة الوصل ومرارة الهجران ، بان تشرح (لارزه المهجور) ما يكابده من العذاب لفراقه ، مما اختصر وصفه في قصائده . فهبت الريح لحمل الامانة . والفت من نسائمها الرقاق جوقة . ومن غصون الخمائل

(١) لطالما اعترفت بأني لم اوت من العلم الا اقل من قليل . لم اكن طالبا في الازهر . بل في مدارس اجنبية تزداد زهـدا في تعليم العربية عاما فعاما . وكمعظم اخواني المهجريين ، لاتزاد لي من معرفة لغتي وآدابها القديمة والحديثة ، الا ما خلسته ، على كبر ، من بعض الكتب والمجلات والصحف التي كانت تعبر البحار الينا فتتلقفها تلقف الجياع .

(٢) عجوز من اسماء الشمس ايضاً

نايات وشبابات . وراحت تنفخ فيها تنهداته . وتصعد زفراته وأناته . وغنته فتحسن تثنيه . في نواحه وترجيعه وحنينه . حتى صدعت الجلاميد . وبكت الاودية والقيعان . بعيون الجداول والغدران . ولما فرغت من تمثيل دور شاعرها المهجري . اروع تمثيل واشده اثارة للشجون. عادت انا ملها المخملية الى مداعبة افنان الدوح . متخللة عساليجها الطرية . كالمدرى (١) بيد وصيفه . تبتكر تسريحة . لشعر عروس ليلة زفافها . وتنضح عليها من قمم الفجر . اطيب عطور الندى ..

كل هذا الذي انطوت عليه لوحة (الربيع الاخير) من ملامح الطبيعة ، وتكاويتهـا ، وأساريرها ، وأسرارها العميقة الحية . المشبوبة العواطف . الضاجـة بزأرات النافرين الى الاستقلال . وزفرات الراسفين في الاغلال .

اجل . كل هذا وغيره الذي لو تبسطنا فيه لما وسعه كتاب بحجم كتاب (مع الشعراء). لم تجد فيه العالمة الفاضلة المحترمة بالدكتورة . الا حشدا من الالفاظ الجوفاء . فهي تقول . لم يوجد الربيع . لم يصغ الى الغصون . لم يستنطق الحجر . لم يتهيل للفجر .

لقد والله حيرتنا الدكتورة . واذكرتنا قصة الدكتور خليل سعادة والكاتب شفيق عماد . رحمهما الله وعفا عنهما . اذ كان الدكتور مشغول البال بقضية خطيرة . وقد استدعى اليه شفيقا على جناح السرعة ليروي له ماجد فيها . وراح شفيق يحدثه . والدكتور مصغ اليه اشد الاصغاء . محدق كل التحديق . حتى اذا انتهى بعد ساعة من الشرح والتفصيل . بدر اليه الدكتور بالسؤال ، وهو كمن صحا من حلم . (على ليه ياشفيق . دخلك شو جد بقضيتنا ؟)

بعد نظرتنا هذه المجملة . نستأذن بأخرى تفصيلية . مقتصرة على هذين البيتين فقط .

والصبح ارخى نقابا من اشعته … اخفى به الزُهر لما أعلن الزَهَرا
سبحان من أبدع الأنوار معجزة … ان شاء ابدى بها الأشياء او سترا

فقد يتساءل القارىء المتأمل . وهو يعبر الالفاظ على مهل . عجباً أيرخي الصبح نقابا . وهو المنتظر بعيون ساهرة . ليزيح كل نقاب . ويكشف كل حجاب . وأي نقاب هـذا الذي يرخيه الصباح . متفردا بسدله جديد من سدول الليل ؟ ان الشاعر يصف الربيع فلعله يعني سحابة من سحبه الخيرة . تحمل الودق . وتجود بالوسمي . ويمشي بصره وئيدا . فيسبق اليه الجواب . كلا ! انه نقـاب حقا . ولكنه ليس من سدول الظلام . ولا من ذيول الغـمام . انه من اشعة الصبح . من نسج خيوط النور . ويبهجـه بلور لفظ (الاشعة) الا ظلا من

(١) المشط

كلمة (نقاب) يظل غائمًا على قلبه . ويحار في تفسير هذا الغامض ... النقاب للاسرار . والنور للاعلان . فكيف يكون النور ستراً ساترا ؟ وكيف يكون الستار نورا مبينا ؟ فيجيئه عجز البيت بالحل الذي يشفي أوامه . ويظهره على السر .. فهذه الاشعة نقاب ستار . لانها تفيض على النجوم فتخفيها . وهذا النقاب نور كثاف . لانه يرخي على الزهور فيبديها .

هنا يؤخذ المتأمل . وتسحره الحقيقة المدهشة ، وتغلب به الآية . فيرفع يديه نحو السماء . ويهتف مهللا مع الشاعر في البيت التالي .

سبحان من ابدع الانوار معجزة ان شاء ابدى بها الاشياء اوسترا

فعفوا ياسيدتي اذا شغلنا بالتسبيح عن (الهدهدة) التي تؤثر فيها في هذا المقام . ثم الف عذر . لتعكيرنا مزاجك اللطيف . بتشبيهنا الجبل المتنع وراء الغيوم ، بالدارعة الضاربة دخانها ستاراً دون ابصار العدى . فكان ينبغي ان نذكر حين فكرنا بنظم هذا البيت ، ان في الدنيا جنساً ناعماً تروعه ذكريات الحروب . وان منهن من يلقن من التحلي بالخصلة الثانية . المدوحة فيهن . المذمومة فيهم ، وهي الجبن . أن يتق اذا جد الجد . في معركة العروبة الحاسمة . لايصلحن لتجند حتى في فرقة الهلال الاحمر !

ان الشعر الجيد هو الذي يروعك جمعه وتفصيله . فاذا كان من الشعر الباسم ، كما سماه مؤلف هذا الكتاب واجاده ، وتعريته اجزاءه لم تلقه الا ناعما ، ولم تسمع الا ناعما . ولم تتنسم الا فاغما . او نظرت اليه كلا . لم تلمح منه الا على روض اريض ، تنعكس محاسنه على مرآة نفسك ، انعكاس قوس الله بألوانه السبعة . وتنسكب على قلبك انسكاب مزنة من المن . ورشة من الطيب . وان كان من الحماسيات . جلجلت القافية في مسمعك . فعصفت رياحاً . وقصفت رعوداً . ودمدمت براكين . وهدرت امواجاً . وتفجرت الغاماً . وانت في كل ذلك تستطيع تفسير جماله الانسي والوحشي تفسيراً علمياً . بتبيك مخارج حروفه ، وهندسة تراكيبه ، وعقلانية معانيه . وعدم انفلات خياله ، مهما خف وطار ، من جاذبية واقعة المحدود في اطار . فمفاتن هذا الفن اكثر من ان تحصى . واسرار حسنه عروق ذهبية . ماثبة في مناجم شطوره . واسماط در متلألئة في مغاصات بحوره . ولقد يمر على القصيدة الواحدة الملهمة . اكثر من بصير ناقد . ويرى فيها جمالا لم يره سواه . كأن لكل نوع من الحسن . نوعاً من العيون خلق لرؤيته . والعثور على ماخفي من فتنته اما الناقد المتعصب . فكالمدافع عن جانب البطل في قضية ما . كل همه ان يقهر الخصم ويربح الدعوى ولو زهق الحق .

واني لاتخيل هذه القطعة المختارة من قصيدة الربيع . وقد المت بسحر ساحر . الى غادة مصرية سمراء . فتانة التقاسيم . خفيفة الروح . كيف يكون شعورها اذ ترى صيدة راقية

من اهلها تهزأ بها . وتشبهها بتمثال من حجر . لاحس له ولاحياة . لاسيما حين تعلم ان هذا الجزء يشمل معظم اخواتها العربيات . لاشك في ان الطف مايمكن ان ترد به على هذا الهجوم الشعوري العنيف ، ان تقول . على رسلك ياأخت . قد يكون فينا عيوب . ولكن اكبرها انما هو هذا (العُقَاد)(١) المستعصي على العلاج . الآخذ بمجامع نفوس كثيرين من ادبائنا واديباتنا امثالك . حتى لايعجبهم العجب . ومن صنع اخوانهم العرب . فلو قيل لك ان هذا الشعر مترجم عن اديب غربي . لاهتززت له وقلت . من اين . ومتى يكون لنا مثل هذا ..

وبهذه المناسبة نطلع اقتنا . ان لم تعرفي ، ان اذاعة لندن . وورائها من المستشرقين . العارفين قدر الشعر الجميل . غربياً كان ام عربيا . قد اعجبت هذه القصيدة بالذات . وطلبتها مرتين من صاحبها . لتذاع على الناس . باجر مغر . فاعتذر آسفاً . وتبرع بتقديمها مجاناً . شرط ان تذاع كلها .. ولكن لندن اعتذرت آسفة هي ايضاً . لانها لاتتدخل في السياسية .. ولم يشترط الشاعر هذا الشرط الا لان في آخر القصيدة ، حملة على انكلترا . لسياستها العدائية . نحو وطنه وامته . وهو المعروف بانه لايهادن المستعمرين . مادام قومه معهم في حالة حرب . لايزول اثرها من نفسه . الا يوم لايبقى لهم مواطيء قدم في اي بلد من دنيا العرب والعروبة .

ولكي تتأكد اديبتنا الكبيرة . من صحة قولنا . فلتطلع ، غير مأمورة ، على قصيدة (الربيع الاخير) كلها . اذا استطاعت صبراً . وتحملها على الديوان المحبوس في قبو التوريدات . لان المجلس الاعلى للفنون والآداب . اكتشف ان فيه اكبر دعوة لاسرائيل ... وقبل ذلك الشاعر الخالد . المدفون في صحن الجامع الذي يقول :

عذابكمُ عذبٌ لديّ وجوركم ... عليّ بما يقضي الهوى لكمُ عدلُ

باب المحافل والمجالس

اننا احتراماً لرأي بعض الاخوان المخلصين ، والموافق رأيك يااخي الحارث ، وانتصاحاً به ، قد اسقطنا قدراً من قصائد باب (المحافل والمجالس) واختصرنا قدراً آخر . ولم نثبت معظمها . الا لانه سجل ادبي ، لايرقى اليه الشك ، لاهم حوادثنا . ومؤسساتنا . واسواقنا الادبية في المهجر . والحق ان جل قصائد الديوان ، بابوابه السبعة ، هي مما القي في تلك المناسبات . فلو ان الشعر يفقد قيمته لمجرد انتسابه الى موضوع اجتماعي او قومي لما بقي من الالف صفحة التي يشتمل عليها كتابي ، الا عدد ضئيل . ولكننا نعتقد ان سر الفن . انما هو

---

(١) العقاد ، وان شئت قلت النقاس ، وزان فعال ، التي هي من مشتقات لغتنا الحبيبة لاسماء الامراض ، كالسعال والصداع والجذام ، تقريبها مايسمونه « العقدة النفسية اومركب النقص ».

في الاجادة الجامعة بين طرافة المعنى وعمق الفكرة وسمو الخيال وروعة الاداء ، كائنا ما كان الموضوع أو المناسبة أو الموقف . اضف الى ذلك خطورة الحافز وشرف القصد . حين يلتزم الاديب فكرة قومية أو انسانية معينة ، تملك عليه مشاعره وتأملاته . وتستبد بوجوده كله . حتى ليسخر لها كل عقل وعلمه ولذوقه وحديث . وهو ما نجده حتى في بعض قصائد اخيك الغزلية .

لكِ في سويداء الفؤاد رفيقةٌ — كانت وما برحت أعزّ مكانا
لا ابدلنَّ بحبها فتـــانةً — ولو استعدتُ شبابيَ الفتـــانا
احببتها مثلي فزدتِ أمـــانةً — عندي وزدتُ بفوزها ايمـــانا
امي وامك في القيود رهينةٌ — من ذا يفكُّ اسارها إلانا
نحن الأولى شعَلُ الغرام تذيبنا — وتذوبُ ساعة ذِكرنا الأوطانا

فانا اقرك على ان بعض مراثي الديوان « لاتعدو ان تكون قضــاء واجب . وان اكثرها من محتمات الظروف الاجتماعية . كمرثية شارة اليازجي بنت الشيخ ناصيف . ومرثية اثناسيوس عطا الله مطران حمص . ومرثية (شهيد العلم) الاستاذ داود قربان » .

فكلها من المراثي التي لم يعرج فيها القلم على كتمان على العاطفة . ولا تزود ثمة من عرار نجد الحنين . بيد انها ، كما استعدنا القول ، من الشعر الذي ما كنا ننظمه الا وفي النفس حاجة قومية نروم قضاءها . او مشروع مفيد لايبلغ الثمر مدى التأثير المطلوب لتحقيقه . فمثلا هل كان من الاخلاص للعلم والادب . ان يغرق شعراؤنا وكتابنا . كرواهم في الماديات ، الى حد ان ينسوا السيدة الجليلة . بنت الشيخ ناصيف ، في حياتها وفي مماتها . فتعيش وتمضي . كأن لم يكن مجرد وجودها بيننا ، امتيازا لجاليتنا الصنبولية ووسام استحقاق على صدرها ! امـــا مرثاة المطران اثناسيوس فقد تضمنت ، فيما تضمنت ، ابياتا ، ما كان اخوك ليقبل الدعوة ، الا ليجهر بها . ويفجرها تفجيرا قضى على بعض جوذة الدين تجاه المؤسســات النائمة ، في مجموعنا المهجري المتحرك . لقد كان المطران ميخائيل شحاده رحمه الله ، مترئساً حفلة التأبين . فالتفت اليه اصارحه بقولي

مولايَ اني عجبت الماء من زمنٍ — وضاق صدريَ عن صبرٍ و كتمانِ
عارٌ على ديننـــا ألا يفوز به — في خدمة الله إلا كل كسلانِ
الحقل مفتقرٌ للعـــاملين وقـــد — ضاق المصلّى بكهّانٍ ورهبانِ

يا ليت شعريّ ماذا يصنعون اذا لا دفن موتى ولا تكليل عرسانِ
أهكذا تنفق الاعمــار لا عملٌ إلا مراسيمُ أفراحٍ وأحزانِ

فلما انتهت الحفلة . دنا مني مهنئاً ثم قال . انها يا ابني الثانية بعد الاولى في الريو دي جنيرو منذ عامين . فماذا تريدني ان اصنع ؟ قلت ان الجالية بحاجة الى مدرسة عربية يا سيدنا وكان ان تأسست « مدرسة المطران شحاده » ذلك العام . ومن هذا القبيل قصيدتي « شهيد العلم » . فقد ألهم شوقي بيتاً سار عجزه مثلاً حين قال : (كاد المعلم ان يكون رسولا) فقرر بفنه الممتاز حكمة ، نرتاح الى ترديدها ، في مواقف الاشادة بفضل المربين . وهي منه فكرة سائبة ، تنطبق على كل بلد انطباقا متساوياً في الاهمية والتقدير . وليست ابياتي في المعلم داود قربان بصادرة عن مثل هذا التأمل الرصين الشامل . بل هي بنت الثورة التي اكتويت بنارها منذ حداثتي . انها عائدة الى مقياس نظري الخاص الى المواضيع . دقيقها وجليلها في هذه الحقبة من تاريخنا وواقعنا . فأنا مرتبط بهذا الواقع ارتباطاً شديداً عميقاً . لا حيلة لي به . ولا فكاك منه . كنت ، ولما اجاوز السابعة عشرة ، طالباً في القسم الاستعدادي من جامعة بيروت الاميركية . قبل ان يصبح الاستاذ قربان مدرساً في صفوفه العليا . فلما نعته الى رحمته ، وشرعت في نظم المرثاة . كان في ذهني حادث جرى لي مع البروفسور هول الاميركي ، رئيس ذلك القسم . وهذا الحادث هو الذي املى علي ابياتاً لم تروها ، بل ، انبعثت بالبيتين المؤيدين رأيك . وقد اسعفتك المطبعة في هذا التأييد . اذ مسخت البيت الثاني فردا خاسئاً بجعلها (البرق) بحراً (وتعاك) تفاك . حيث اقول :

عهدت البرق ضحّاكاً فمالي أراه وقد نعاك لنا عَبوساً

واليك الحادث : قبيل الامتحان السنوي لمنح الشهادات جاءني البروفسور ينذرني بانه تعطي الشهرية في الجغرافيا والتاريخ . لا تبشر باستحقاق الشهادة . ان لم أضاعف اجتهادي في درس هاتين المادتين . وسألني أكان تقصيري فيها عائداً الى بلادة فهم أم الى تكاسل عن الدرس والتحصيل ؟ فأجبت اني والحمد لله ذكي ومجتهد . قال ان الذكاء والاجتهاد يناقضان التقصير فما حجتك ؟ قلت ان الحل يسير يا مستر بروفسور . فأنا أشغل الوقت المخصص للجغرافيا والتاريخ بالاختلاف الى مكتبة الجامعة . حيث أطالع ما يروقني من الكتب . قال : اذن هو اضراب عن هاتين المادتين . قلت نعم يا سيدي واليك السبب . اني مثلاً لا أعرف شيئاً عن اقدس مدينة واقدم

مدينة في الدنيا ، أي بيت المقدس ودمشق . وكلتاهما في بـــلادي . وأني أجهل أفضح الجهل تاريخ المدينة التي شملت المعمور ومنشأها بلادي . وأنتم بدلاً من تعليمي تاريخها وجغرافيتها ، تشحنون ذاكرتي بأسماء عواصم اميركا ودساكرها . وأنهار اميركا وروافدها . وأخبار ملوك انكلترا وصعاليكها . كأنكم تهيؤني لرحيل عن وطني واهلي ، الى اقاصي الدنيا السحيقة التي شغلتم بها دماغي وروطنتم بلغتها لساني .

لا أدري كيف كان وقع جوابي في نفس الاستاذ وانما اذكر انه ألح بجمد كل ذكائي المزعوم للفوز بالشهادة . وأظنهم تسامحوا جـــداً في اجتيازي الامتحان ليضمنوا للعام المقبل معقداً ..

ان ذكرى هـــذه الحادثة ، هي التي اوحت الي الابيات الواردة في القصيدة . وفيها الاشارة الى النيات الاستعمارية اللاطئة وراء شعارات التبشير بالتوراة والانجيل ونشر الثقافة . والى ان الذي يربي صغاره في مدرسة اجنبية كمن يرضعهم من ضرع ذئبة . والى ان الوقوف على اطلالنا الدوارس ، ربما كان أجدى لنا من هذه المدارس ، في نشر ماطوي عنا من تاريخنا المشرق ، ومجدنا العظيم القديم . والى ان التعليم الذي لاينفخ في صغارنا روح الحرية والاستقلال ، اجدر بان نعمل فؤوسنا في حدائقه . ونحطبها للنار حطباً ! والى أن المعلم الذي (كاد) ان يكون رسولاً عند شوقي المفكر الحكيم ، هو عند القروي الثائر رسول وأي رسول . بل هو خـــير الانبياء . اذا داوى هذا الداء ، وأحيا موات الرجاء .

وخـــير الأنبياء نبي علم   يداوي داءَ أمته الرسيسا
وإنَّ معلمي تاريخ قومي   أحب إلي من عيسى وموسى
انلني مقعد التلميـــذ منه   وخلِّ لك الكنيسة والكنيسا
وخيرٌ من معاهدنا طلولٌ   تلقننا دوارسها دروسا
وتهمزنا الى استحياءِ مجدٍ   صريـع الذل بالأقدام ديسا
إذا التعليم لم يجعلك حراً   فأعمل في حدائقه الفؤوسا

تلك ياصديقي مبررات نظمي اكثر القصائد المجموعة في (المحافل والمجالس) وغيره من ابواب الديوان .

وفيما أوردت من الامثلة غنى ، وربما اقناع للذين لايريدون الشعر الا للمتعة الروحية . ولا يرون فيه الا لوناً من الوان اللذة الفنية المجردة .

فاننا لنثني على اخينا الحارث ، واسطة عقد الطاهين ، طه الأب رحمه الله ، وطه الابن حرسه الله ، ثناء شخصياً لما اختصنا به في كتابه ، من صفحات وضاءة بآيات وفائه ، ونقده الصائب المفيد ، وثناء جماعياً ، لما عرض علينا من روائع ، لاتمل النفس تكرارها ، كتونية امين نخلة الغزلية ، وأبياته في رثاء الشاعر الياس فياض ، وهي مما يضرب مثلا على القوافي المنقادة ، تجرر أذيالها الى مواضعها ، وتحتلها في عفوية ويسر ، وقصيدة الشاعر الاندلسي الحديث شفيق المعلوف ، يصف هياكل بعلبك ، فيجدد بأبياته مداميكها رصاً ورسوخاً ، ولاسيما البيتان اللذان نحتها اخونا شفيق من جبل الكنيسة وتركها موهى للقرون وعول الشعر أبد الدهر .

ربضت على صدر الزمان وأوثقت   كلتا يديه فحار كيف ينالها
الدهر مطمحها فإما انهـا   تغتال هذا الدهر أو يغتالها

. . .

واعود فاعترف بان لك علي فضلاً مضاعفاً يا أخي ، اذ عرفتني على شعراء فحول من قومي في مواطن العروبة ، حجبتهم عني غربة نصف قرن وراء المحيطات الشاسعة ، كالاستاذ حافظ جميل ، ذي النفثات المرقصات ، وهل أجمل من رثائه صديقه شاعر العروبة الثائر معروف الرصافي ، حيث يقول :

ثم فالذين هززتهم فتصاقلوا   خفوا غداة الموت غير ثقالِ
حملوا على الاكتاف نعشك وانطووا   في جنح غاشيةٍ من الاوجـالِ
ومضوا به يتراكضون كأنما   يخشون سوء مغبّة الامهـالِ

فهذه الاشارة اللطيفة المنتفة من وراء نقاب في البيت الأخير ، هي بجرسها الخفي ، اشد سطوعاً ودوياً من تفجر كوكب في عرض الفضاء ، اذ يعني ان اصدقاء المرثي المرائين ، لفرط سرورهم بموته ، وخشيتهم من ان يكون في غشية قد يفيق منها ، خفوا الى حمل نعشه ، وتراكضوا به ، مستعجلين دفنه ، ولو كان بعد حيا .

ويبدو لي يا أخي ، ان لبنان ، مصيفك المأنوس ، الذي همت بنضرة اوديته ، وصفاء سمائه ومائه ، يزودك عاماً فعاماً ، بحمولة من اقوات جماله ، واغذية محاسنه ، تتمثل في روحك المطبوعة على الخير ، حباً وعطفاً وطيبة واخلاصاً ، كما يتمثل عنبه وتفاحه وكرزه في بدنك لحماً ودماً وصحة ونشاطاً ، حتى لقد نبهت الغافلين ، واثرت حسد الحاسدين ، بما اضفيت على شعرائه

اخوانك ، من شريف النعوت فكلهم صديقك العزيز وخلك الوفي واخوك الحبيب . فنعم الخلق خلقك . وعاش الادب ادبك . ولتحي العروبة عروبتك . والسلام عليك ورحمة الله .

وفي الختام

لا ارى لي عيداً من كلمة مخلصة . الحت في انتزاع نفسها من قفص الصدر . بعد ان صحفت فيه طول الصبر . لتدخل دخول حزة مسمار . على لوح من التنك . في اذن كل طابع او ناشر كتاب عربي . يستحمضها . ويتقبض لها . تقبضاً لا يؤذيه باذن الله شيئاً . ولكنه قد ينفع الادب نفعاً كبيراً . ان نفعت الذكرى . وكلمتي انما هي التنبيه الى وجوب الشعور العميق بالتبعة . وحمل الامانة . ان المطابع التي تقضي على ان الاديب . تصحيفاً وتحريفاً ومسخاً وتشويهاً . وتقتل الاديب نفسه غماً وكمداً . وتزهق معها ارواح القراء تضليلاً وارهاقاً . ثم لا تكلف نفسها حتى وضع جدول للخطأ والصواب . في آخر الكتاب . شأنها شأن الحكومات التي تجمع المكوس والضرائب من الناس . ثم تزعم انها غير مسؤولة عن حماية ارزاقهم وارواحهم واعراضهم . من اللصوص وقطاع الطرق . او كالطاهي الذي تملأ له مطبخك بانظف الحبوب . مغربلة منخولة . لا قش فيها ولا قضيض . ثم هو يقدمها لك ولضيوفك . خليط اقذاء واشجار وحصى . بعيد الطاحن من اضراسك مطحوناً . والقاضم من اسنانك مقضوماً . ان هذا التبرؤ الفظيع من تدوين ما يبوء كل البائسين اعمال مشوهاة الاجور . اقل مايقال فيه . انه مفقدة للثقة . منقضة للعهود والعقود . مقطعة لصلات التعامل المطمئن بين خلق الله . ولو ان للادب عندنا سلطة ترعى حقوقه . وتروج سوقه . لحاسبت الطابعين والناشرين حساباً عسيراً عن كل غلطة وعلة . ولحتمت عليهم توظيف خبراء . باجرة محترمة . لتصحيح التجارب . وضبط الشكل الضروري على الحروف . ولاسيما الدواوين الشعرية التي هي الرمز الاعلى للفنون والآداب . ان العهد كان مسؤولاً أيها الاخوان . وانه لا يضيع مثقال ذرة من خير او شر . عند من خلق لنا الابصار والاسماع والافئدة . سبحانه وتعالى . وهو خير الناصحين .



مع حبيب اسطفان
في المهاجر الأميركية (*)

بقلم جورج صيدح

-٢-

فنزويلا ١٩٤٢

رضي الله عن الفنزويلا بعد رحيل الدكتور اسطفان فانتشلها من حضيض الفاقة الى معارج النعمة بقوة النفط المتفجر من أراضيها وأنقذها من نير العبودية بقبض روح « غومز » الحاكم السفاح . فانقلبت اوضاعها من حال الى حال بسرعة عجيبة . هربت أسرة « غومز » وحواشيها الى الخارج وصودرت أموالها وممتلكاتها . وبدرت مظاهر الحياة الدستورية في فرض الانتخابات وعقد مجلس النواب ، وخضعت شركات النفط لمطالب الحكومة فأغرقت البلاد بطوفان من الدولارات وقام العمران على قدم وساق وتدفق المال على الاسواق جاذباً بمغناطيسه

(*) يتابع الاستاذ صيدح حديثه عن حبيب اسطفان ، نشر القسم الاول منه في العدد الماضي من « المعرفة » رقم « ٣٧ »

آلاف المهاجرين العرب حتى ارتفع عددهم من ألفين الى عشرين ألفاً في عشر سنوات . وكان يندر فيهم من لم ينجح ويربح ، فان لم يصبح غنياً فقط فهو غني حرب في تلك السنة التي عزم فيها الدكتور حبيب اسطفان على زيارة فنزويلا للمرة الثانيــة ، سنة ١٩٤٢ ابان الحرب العالمية الثانية .

بعث الدكتور الينــا برسالة من كوبا تبشر بعزمه على الحضور مع زوجته لقضاء شهر كامل في كاراكاس ، وطلب منا تمهيد السبيل لمحاضراته وتنظيم برنامج مسبق لأوقاته . فاهتممنا كل الاهتمام بما طلب مع الابتهاج بعودته الينا حتى نقوم بواجبنا نحوه بعد تلك المأساة التي قطعت زيارته الاولى لاربعة عشر عاما مضت وكنا على العموم في حالة يسر . وقد عظم شأن جميتنا وصار لنا نادٍ اجتماعي وجمعية نسائية ومجلة شهرية وصلات مع بقية المهاجر وصيت في الأقطار العربية . فاجتمعنا وقررنا أن « نبيض وجوهنا » مع الضيف ، وفتحنا باب التبرعات فاجتمع لدينا مبلغ محترم نهديه اليه،ثم عينا لجنة خاصة ترافقه وتنفذ رغباته وتحرص على راحته مدة اقامته .

وكان أول ما عملناه هو حجز مسرح الاوبرا لمحاضرتين يلقيهما الدكتور فيه والاتفاق مع جامعة كاراكاس على محاضرتين بعدهما ، وعلى محاضرة خاصة في « كلوب فنزويلا » وأخلى أحد السراة قصره لسكن الضيف وقرينته شهراً ووضع سري آخر سيارته مع سائقها تحت أمره ونظمت اللجنة مهرجان الاستقبال على مستوى شعبي اشتركت فيه طلاب الجامعة وأساتذتها وسيدات المجتمع .

حل الضيفان بيننا على الرحب والسعة وامتعانا في السهرات بقصائد غرامية من فم الشاعرة وبحكايات شرقية من فم المحاضر . وكنا اتفقنا على مآدب عائلية تجمعهما فيها بابناء الجالية في جو حميم لتبادل الأحاديث والذكريات . فكنا بعد كل وليمة نتحلق حول الدكتور كما كان يتحلق اجدادنا حول « الحكواتي » في مقاهي دمشق ، ولنستمع الى اساطير عربية رائعة المغزى يرويها بمنطق خلاب، وتستغرق رواية كل اسطورة زهاء ساعة . فلما كانت الوليمة في منزلي انتقلنا من الحكايات الى المطارحات الشعرية ووقفنا عند الدكتور على معين لاينضب من المحفوظات بعد أن أثرته بقصيدتي وذكرته بعذابات زيارته الأولى :

أطل لم يتكلم   وبالتحية تمتم
كالطيف زار نياماً   لما استفاقوا تكتم
لم يرو منهم غليلا   وعنده الماء زمزم

ولي وخلى رجاء ... بأن يعود وأقسم
بالثأر، بالنصر يأتي ... يوماً به الله أعلم
«حبيبنا» تلك ذكرى ... زيارة لم تتمم
زمان كنا قطيعاً ... نشقى براع ونتعم
وكان منا وفينا ... اعداءُ كل معظم
لسانهم عربي ... وقلبهم قلب اعجم
تنكروا لسحاب ... يجودهم فتجهم
ياويح جان غبي ... في داره النار أضرم

الى أن قلت :

أهلا بنجم عاط ... بهالة النجم «مريم»
أهلا به قروياً ... على العواصم خيم
وراع كل عظيم ... من الفرنج بأعظم
يسير فتحاً لفتح ... بقوة الروح والفم
والشرق نشوان تيهاً ... والغرب جذلان مغرم
هو اللواء تهادى ... على المهاجر مُعلم
في ظله تتلاقى ... اجزاء شعب تقسم
شعبٌ حماهُ بعدن ... ورزقه في جهنم ...
كم حالم بثراء ... أثرى وما زال يحلم
لم يفهموه إلى أن ... أتى (حبيبٌ) وترجم

تلك كانت أحلى جلساتنا مع الضيفين قبل أن ينهمكا في المحاضرات . فلما فرغا منها كانت التفاهم والانسجام قد افلتا من أيدينا بلا رجعة .

المحاضرات والسموكنغ

كان الاصطدام الاول مع الدكتور يوم المحاضرة الاولى في مسرح الاوبرا ، فقد جعل لباس « السموكنغ » اجباريا . ووقف عند المدخل ليرد عنه كل من جاء باللباس العادي ، فحرم عدداً من بني وطنه الذين شاركوا في الهدية المالية المقدمة اليه من أن يستمعوا الى محاضرته فساءت العلاقات بينه وبينهم . وكان موضوع تلك المحاضرة « امجاد العروبة » وهي دعاوة لأمة العرب بقسميها المقيم والمغترب تخللها نفحات من نبوغ الشرق العربي وشواهد على عبقرية علمائه وادبائه . والمحاضرة الثانية « شعرية الام » هي المحاضرة الوحيدة التي يجول فيها جولة شاعر حساس بعيد الخيال برسم الصور الشعرية الخلابة ويتفنن في الكلام بين لين وشدة وصعود وهبوط حتى تسمع تغريدة الشحرور وزأرة الاسد وهينمة النسيم .

أما ما القاه في ندوة الجامعة فمحاضرة عن تطور الآداب العالمية واخرى عن اتجاهات الفلسفة المعاصرة ، وقد نالتا استحساناً محدوداً لأن المحاضرة الاولى في زعمه لم تشبع جوع الطلاب ، والثانيـة لم تقنع الاساتذة ، ولأن البحث لم يتخط أطراف الموضوع الى جوهره ولم يعط السامع ماوعده به العنوان . فلوسمى المحاضر البحث الاول « خواطر في الادب » والبحث الثاني « مشاهد من تطور الفكر » لتوافق محتوى كل محاضرة مع عنوانها . أما المحاضرة الاخيرة في « كلوب فنزويلا » فقدانتوا على فصاحة الخطيب ولكنهم علموا ان العظات التي سمعها رواد هذا النادي المترف لم يسمعوا مثلها الا في الكنائس . وعندنا ان هذه المحاضرات التي كتبت عام ١٩٢١ لو القيت علينا في زيارته الاولى عام ١٩٢٨ لكانت وقعها كبيرة وعجيبة . أما اليوم فهي لاتستثير الاعجاب في بيئة جامعية عالية الثقافة تتطلب من المحاضر القادم من الشرق البعيد اكثر من الافكار العادية والتعاليم المدرسية . وقد يهتف الطلاب للمحاضر ويصفقون له اعجاباً باسلوبه الخطابي كما يفعلون لممثل بارع اعجبوا بتمثيله . ولكن هذا لايكفي لدكتور في الفلسفة كحبيب اسطفان ، الذي تعود أن ينادى بـ « يامعلم » في كل مكان .

أبديت له هذه الملاحظة في ساعة منادمة في غرفته ولم أخش غضبه لأن الدالة التي لي عليه كانت كبيرة كثقته باخلاصي له . فأجابني وشرار الذكاء يتطاير من عينيه : « أتحسبني جاهلا لا أدرك أن ما ادهش الناس منذ عشر سنوات لايدهشهم اليوم : أنا اعرف نقطة الضعف في محاضراتي . ولكن ماذا اعمل والحياة قصيرة ورغباتي كثيرة : **لقد تعبت كثيراً في الزرع وآن لي أن احصد قبل أن أتعب في زرع جديد** » قال هذا ومضى الى خزائن الامتعة يستخرج منها كيساً جلديا ويضعه أمامي : « **غيرك أعرض أمامه صندوقة النياشين أما أنت فاعرض عليك ثروتي الحقيقية وها هي** » ، فتحت الكيس فوجدت مجلداً ضخماً يحتوي على أكثر من ألف ورقة من النوع الرقيق . طبع عليها بالآلة الكاتبة نصوص من محاضراته وهي باربع لغات :

الاسبانية ، والانكليزية ، والفرنسية ، والبرتغالية : وعلى الجلدة الداخلية خط باللغة العربية هذه العبارة : « **العربي نخلة تتجول . والنخلة عربي يتأمل** » .

قال لي : أمامك نتاج عمري وخلاصة فلسفتي . هنا المتجر الذي أرتزق منه والهيكل الذي اصلي فيه لأمتي . انظر الى الفهرس تجد عناوين سبعين محاضرة ، لم استعمل منها سوى عشرين ، هي التي استظهرتها و«رددتها منذخمسةعشر عاما الى اليوم . وقد تكاسلت عن استظهارغيرها» .

بهتني اعتراف الدكتور بأنه يستظهر محاضراته حرفياً وهو الذي يتظاهر بالارتجال اثناء الكلام من المنبرفيصمت احياناً بضع ثوان لإعمال الفكرة ، او ينظر من حين الى حين الى عقارب الساعة المختبئة تحت كمه ، خوفاً من تجاوز الوقت المحدد للمحاضرة فقال لي : « كل هذا تمثيل مسرحي اني أضع توقيت كل محاضرة (ستين دقيقة) وامتحنه قبل القائها ، وانظاهر بالارتجال امام السامعين لانهم يتسامحون مع خطيب يرتجل ولكنهم يتشددون مع خطيب يقرأ ما يكتب . فأنا لم اقرأ خطاباً مكتوباً ولا ارتجلت خطابا غير مكتوب قط . ومهما قيل في قوة ذاكرتي لن احفظها سبعين محاضرة دفعة واحدة . وعندي مخطوطات ، طبعت منها كتاب « الشعوب الاميركية » بالاسبانية وتركت البقية للنشر بعد وفاتي » .

الاختلافات

بعد انتهاء المحاضرات ذر قرن القطيعة بين الجالية العربية وضيفها ، لأنه انصرف عنها الى حلقات المقامرة كما انصرفت قرينته الى الملاهي في علب الليل واصبحت معيشتهما في القصر المعار فوضى أرهقت الخدم فانسحبوا من خدمة أسياد ينامون نهاراً ويسهرون ليلا ، وشكوا أمرهم الى اصحاب القصر . وهؤلاء انذروا الضيفين باخلاء المكان بعد ان طالت اقامتهما فيه الى اكثر من الشهر المتفق عليه . فاندلع ما ينهم الشجر وانتقل الضيفان الى منزل آخر ، ولكنهما تشاجرا مع صاحبه ايضا بعد اسبوعين ، فانتقلا الى فندق من افخم فنادق العاصمة .

وكان للخلف سبب آخر ، وهو ان الدكتور كان يحمل في مخيلته تصميم مشروع كبير لمجلة مهجرية جامعة يتولى هو اصدارها ورئاسة تحريرها بأربع لغات ، العربيـة والاسبانية والبرتغالية والانكليزية وتكون الصوت العام لمليوني مهاجر عربي في عشرين جمهورية اميركية ، والوجه المشرق من كيانهم وكيان امتهم أمام الشعوب الاجنبيـة . كان ينوي انشاءها في بوئس آيرس ، وتجهيزها بمطبعة خاصة ، ومعدات من أحدث طراز ، بتكاليف لاتقل عن نصف مليون دولار ، وينوي تأسيس شركة مساهمة تصدر بهذا المبلغ خمسة آلاف سهم كل سهم بمائة دولار ، وتفرض على كل جمهورية عدداً من الاسهم يتناسب مع أهمية الجاليـة . فكان يدعو ويسهب في الدعوة لهذا المشروع حيثما حل . وفي كاراكاس انبرى لسانه بلا جدوى في محاولة اقناع الاغنياء

بان يكتتبوا بكمية من الأسهم ، فنقم عليهم ، وقد بذلت جهدي في تأييده فلم أحصل على نتيجة لأن شهرة الرجل كمقامر وكرحالة تعود الحياة البوهيمية لاتدع عندهم أملا بنجاحه في عمل يستدعي الثبات والاستقرار . وبين الحاجة من جهة ورفضهم من جهة ثانية هبطت حرارة المودة المتبادلة الى درجة الصفر ، وأهمله الاصحاب الذين عينتهم الجمعية ضباطاً مرافقين له . فلم نعلم نحن يوم سفره من العاصمة الى المدن الداخلية ، ولا هو شاء أن يودع أحداً عملا بواجب اللياقة . وكانت أشغالي واسفاري قد ابعدتني عن العاصمة في تلك الاثناء. فلما عدت لم أجده ولكني وجدت رسالة منه صدرت عن مدينة كريستوبال تاريخها ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ وقد كتبها بعد أن طاف شهراً وألقى محاضرات في اربع مدن وصار على أهبة الرحيل الى كولومبيا .

« صديقي الكريم ياحبيب الادب والادباء :

أنت في كل مواقفك شاعر الروح ، تسكب لمن حولك سلافا مما أفاض الله على صدرك. ما منعتك التجارة أن تكون رجلا قبل ان تكون تاجراً ، ولا حال المال بينك وبين روحك . فأنت لمن دنا منك نعمى وانت لمن نال ولاءك نعيم .

اشكر لك كل ماوصل الي من لطفك وفضلك . وقد تكرمت فقبلت ما اشرت به عليك اخيراً ، وهي هبة سنية جديدة من روحك

لقد انتهى عملي في هذه البلاد بحثا زائراً محاً وغادرتها راحلا وفيا . واحسب أني ماقصرت عملا واجتهاداً . واذا لم اجد من القوم ما كنت أرجو ، رغبة مني في أن يكون عملي أجل نفعاً لهذا الشعب ، فلا ذنب أنا ولا كان ذنب علي . اني ارضيت كل قومي في رحلتي الابعض سادتي في العاصمة الذين بالغوا في اكرامي فكنت شاكراً ثم غالوا في لومي وما كانوا منصفين . فما أنا بي بمجترح المعجزات، وحسب القلب أن يكون وفياً ، وبينهم وبين ذلك الوطن الذي أهوى وجهادي الطويل المؤلم والله أعلم بما تكن الارواح .

أما « المجلة »(١) ياصديق فقد قصدت أن تكون لهذه الجالية راية وعلماً خفاقاً يشيد باسمها في سماء العالم الاميركي . وما قصدت الشائعا الا حبا وولاء ، فكان لي من نفر قليل انت في مقدمتهم تحبيذ وتشجيع ، فشكراً وكان من بعض سادتي في العاصمة نفور وشكوى كأني ابتغي ابتزاز الاموال او ايجاد مثوى لرجل شريد ضاقت في وجهه الاكوان .

---

(١) المجلة التي ارادها الدكتور اسطفان وسعى الى اصدارها منذ ثلاثين عاما هي التي تريدها اليوم الجامعة اللبنانية للمهاجرين في الاقطار الاميركية وتضعها في جدول اعمال مؤتمر المغتربين .

فالبند الخامس من المنهاج الذي ترعاه الحكومة اللبنانية رعاية خاصة هذا نصه : « اصدار مجلة باسم الجامعة اللبنانية في العالم بجميع اللغات التي يتكلمها المغتربون » .

على أني لايصدني عن هوى روحي قيل ولا قال . واذا كنت غداً في كولومبيا فما انحرفت بروحي عن فنزويلا ، ولن أحيد عن رغبتي في خدمة قومي هنا ونشر المجلة الا أنني أرى ذلك محالا . ولن يكون محالا مادمت أنت والخلان الاوفياء معي .

اليك تحية من الروح الى الروح ، ونغمة مستمدة من شعرك تهدى الى قلبك الصفي .

حبيب اسطفان

أضع هذه الوثيقة امام القارىء ليرى وجوه الخلاف الذي قام بين كاتب الرسالة ومناوئيه ، ويحكم في القضية حسب اجتهاده

في كولومبيا عام ١٩٤٣

كان الدكتور في بوغوتا لما وصلتها ماخاً في ساعة متأخرة من الليل وكان الاتفاق على ان نجتمع في فندق « غرانادا » فسألت مكتب الاستقبال في الفندق المذكور عن غرفة الدكتور حبيب اسطفان ، وكان الجواب ان ليس في الفندق نزيل بهذا الاسم . فذكرت له اوصافه وأنه زوج الشاعرة (ماري موراندير ا) فقال لعلك تريد « استيفنو الارتستا » ؟ » قلت ربما شرط ان يكون دكتوراً ومحاضراً لا (ارتيست) بحسب فقال سأوصلك به هاتفياً وتتفاهمان رأساً . وكان هو نفسه المتكلم في الهاتف فرحب بي بحرارة وقال ان في غرفته جماعة من علية القوم يلعبون « البوكر » واقترح علي الصعود الى الغرفة للتعرف بهم والاشتراك باللعب فاعتذرت وأجلت المقابلة الى الغد .

جلسنا الى مائدة الطعام ظهر اليوم التالي . الدكتور وزوجته وأنا . وكان اول همي الاستفسار عن لقب (ارتيست) الذي الصقوه به فجاء التفسير بلسان الزوجة الشاعرة كما يلي :

كسدت محاضرات الدكتور وانقطع موردها ، فابتكر وسيلة لترويجها بواسطة نادي الشعراء الذي تنتمي اليه السيدة ماري . وفي النادي شاعرات ومتفننات تطوعن للمهمة ونظمن منهاجاً فنياً لحفلات اسبوعية يلقي فيها الدكتور محاضرته بعد ادوار الغناء والرقص وانشاد الشعر . ولهذا الغرض استأجر صالة سينما لسهرة الثلاثاء من كل اسبوع (لأن الثلاثاء يوم العطلة في تلك الصالة والاجرة رخيصة) وطبع ووزع نشرات الاعلان عن الحفلة باسمه ورسمه كما تفعل الفرق الفنية فظنه من لايعرفه فناناً « ارتيست » .

حزنت جداً لهذا الخبر لأني ايقنت ان نابغتنا ومفخرتنا دخل في دور الانحدار والانهيار بعد ادوار المجد والرفعة التي مر بها ولكني كتمت ألمي ورافقته الى حفلة الثلاثاء لأرى ما يجري فيها . فوجدت على مدخل الصالة شيوخاً من ذوي اللحى والمهابـة بانتظاره فسألته من هم ؟

فقال لي هم اساتذة في مدارس الدولة ، معاشاتهم قليلة يتقطرون للدخول معي الى الصالة مجاناً فاستعذت بالله من هزء القدر بأفاضل البشر .

كان الفصل الاول من الماق دور رقص مجوني قام به صبي وصبية تلاه دور موسيقي وغناء ادته فتاة من هاويات الفن ثم انشدت الشاعرة ماري ثلاث مقطوعات من شعرها . وبعد الاستراحة كان الفصل الثاني محاضرة الدكتور اسطفان « ابو الهول والفيل » ولكن عدد المستمعين كان قليلا . فخرجت موجع القلب ، كأني شهدت احتضار صديق عزيز . ولم اصحبه الى الحفلة التالية . ولكني عرفت منه انه لما وصل الى الصالة وجد ان شباك التذاكر لم يبع سوى خمس بطاقات . فقطع الامل من كل مورد في بوغوتا ماعدا مورده « البوكر » قال لي احد اللاعبين ان الدكتور ماهر جداً لايخسر مرة حتى يربح عشر مرات ، وان الخسائر التي تلحق به احياناً هي من لعب « الروليت » في الكازينو لامن لعب الورق في الفندق . اما السيدة موراندرا فقد استطاعت ان تطبع مجموعة من قصائدها وأن تنشرها . ولما حضرت لزيارتها الشاعرة « ماريا دلار » رئيسة نادي الشعراء دعتني وعرفتني بها . فاذا بها سورية الاصل واسمها « اوليفا شمس » .

وشئت ان اتابع السياحة بالسيارة الى الاكوادور وما بعدها ، فزودني الدكتور اسطفان بخمس رسائل تعريف وتوصية الى اصحابه في كيتو وغواياكيل ، رسائل لايكتب ابر منها ولا اشرف . واوصاني بان امضي الليلة الاولى من رحلتي في مدينة « كالي » البلدة الجميلة التي تشبه دمشق من حيث الماء والخضرة والشكل الحسن ، فارتحت لاقتراحه مادامت « كالي » في طريقي ولي فيها رفاق كانوا معي في مدرسة دمشق الابتدائية . وزاد ارتياحي حين قال لي انه يود ان يصحبني الى « كالي » على شرط ان نمكث فيها بضعة ايام . فتم الاتفاق على السفر معاً ، وعلى ان تترك السيدة موراندرا في بوغوتا حيث ابنت ولداً كولومبيانياً في الثالثة عشر من العمر واصبحت لاتفارقه ولا تنتقل من بلد الى بلد دونه ، فبهظت زوجها رغم ارادته بأعباء جديدة لاقبل له بها .

في السيارة

رحلتنا طويلة . بدأناها مع طلوع الفجر وما انتهينا الا بعد الظهر ثماني ساعات في السيارة وجها الى وجه وجنباً الى جنب . ومهما طال الحديث فالطريق اطول منه . ترى كم هي المسافة بالكيلو متر ؟ قال رفيقي :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أطويل طريقنا أم يطول ؟
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

قلت ما اعظم المتنبي ، انه شكسبير العرب . قال : المعري اعظم منه . فسألته رأيه في شعراء المهجر . قال : سيدهم ايليا ابو ماضي ، والباقون يتموّهون من بعيد ... قلت ورفاقه في « الرابطة القلمية » ؟ اجاب : « مشعوذون. اما الريحاني فاني احترم ادبه واخلاصه لانه لم يدع الفلسفة . وأما الفلسفة الجديرة بهذا الاسم فهي التي ازدهرت في عصر اليونان ، واثمرت في العصر الحاضر » .

وتدفق الدكتور في الشرح كأنه على المنبر والا اصغي تأدباً ولا اعي ما اسمع ، حتى اشفقت على جهده المهدور وقاطعته بقولي : « انا عدو الفلسفات يا دكتور ، لاني لا افهمها ولا اريد ان افهمها ، يكفيني هاتف وجداني يصعد من اعماقي ليدلني على الخير والشر وعلى الخطأ والصواب ، فلا استشير غيره في مشاكل الحياة والموت حتى ولا الكتب المقدسة . فدعني في جهلي ، على الفطرة ولا تـزرع الشكوك في نفسي . فأجاب : اني آسف لموقفك موقف الكفران من نعمة اتاحها لك القدر لكي تنير ذهنك وتهذب فطرتك بالاستماع الي . ولن الحف عليك لانه امر يتعلق بك وحـدك انما اريد منك ان تصغي الي لامر خطير يتعلق بي واعتقد ان الاقدار دبرت لنا اليوم هـذا الاجتماع ، وقد يكون الاجتماع الاخير ، لكي اكاشفك به » .

« اني أحس بدنو اجلي احساساً غامضاً يطيب لي ، لانـه ينفي عني هواجس المستقبل القاتم الذي ينتظرني ، ولانه ينقذ روحي من سجن هذا الجسد الضيق العفن الذي سيطر بشهواته على ارادتي وكان سبباً لتعاستي . فلا اخشى الموت وكل ما اخشاه هو المرض الـذي يقعدني عن اداء رسالتي وعن تحصيل رزقي ويسلبني ما بقي لي من كرامة ومحبة عند زوجي واهلي واصحابي . اني صحيح الجسم ولم اشك من اي علة طول عمري . ولكن ان فاجأني المرض فاني اريد ان أفقد حياتي يوم أفقد صحتي ، اريده مرضاً صاعقاً قتالاً ، فان لم يكن كذلك فسأجعله صاعقاً قتالاً بيدي هذه . معي في جيبي عدة الخلاص اولا بد لي من الانتحار » .

حاولت الاعتراض فوضع اصبعه على فمي ومسح العرق عن جبينه ثم تابع الحديث .

« قد ادعو الطبيب لمعالجة مرضي في بادىء الامر . فان شفاني تأجل رحيلي عن هذا العالم الى فرصة اخرى ، اما ان استعصى الداء او عاودني بعد شفائه ، فاعلم يا عزيزي حالما يطرق سمعك خبري اني انتحرت واني خدعت طبيبي وكل من حولي وشربت السم خفية عنهم . وأوصيك اينما كنت ان تفرح لخلاصي ، وان تجمع اخوانك واخواني حول كأس تشربونه على مري ، اكراماً لروحي ، هذه وصيتي لانفذها ان كنت تحبني .

ساد الوجوم وران علينـا الصمت الرهيب بعد هذا البلاغ الكئيب ، الى ان اجتازت السيارة قرية عامرة وشاهدنا في أسواقها وجوهاً ضاحكة فطردنا من خيالنـا اشباح الموت وعدنا الى ساحة الحياة تعمل المرح والابتهاج . ماسكين باطراف الحديث :

— « هل تنوي إلقاء محاضرة في كالي يا دكتور » ؟

— « أنوي القاء محاضرتين . هذا يتوقف على استعداد الجالية » .

— « كم مرة زرت كالي قبل اليوم ؟ » .

— « ثلاث مرات . وهذه هي الزيارة الرابعة » .

— « وكيف كان سلوك الجالية معك » .

— « من أحسن ما يكون . انما في الزيارة الاخيرة حصل بعض النفور بينها وبيني ولا أظن انها حاقدة علي الى الآن . سأعرف ذلك بعد ساعات من حرارة استقبالها لي . لأني ابرقت اليها امس اعلاماً بحضوري والك معي » .

— « وما هو مركزها المالي والثقافي » ؟

— « في الجالية عائلات ثلاث تتحكم في حياة البلد الاقتصادية والاجتماعية (زكور ودكاش ونادر) والثقافة هنا لا بأس بها . انما درجتها بالاسبانية أعلى من درجتها بالعربية » .

— « هل عرضت مشروع المجلة على اغنيائها ؟ اني اعجب كيف لم تسألني كل هذه الايام ماذا فعلت مع « الاربعة الكبار » في كاراكاس بشأن المجلة ؟ » .

— « لم أسألك كلا تفهم في سؤالي تأنيباً لك على اهمالك القضية ، اذ لو كان عندك خبر جديد لذكرته في ساعة وصولك الى بوغوتا » .

« ليس عندي خبر جديد ولكن عندي رأياً جديداً كونته بعد سماع ومخابرات طويلة مع الاربعة . الجماعة في كاراكاس حديثو النعمة لم يتعودوا الاتفاق حتى على أنفسهم . فلكي يتفقوا على مشروعك الادبي البعيد لن تقنعهم الا باستثارة غيرتهم كأن تريهم ما كتبات الاغنياء في المهاجر الاخرى ، وتدعوهم الى الاقتداء بهم حتى يثبتوا وجودهم واريحيتهم امام الجميع أنا انصحك ان تبدأ بالبرازيل (نجيب يافث) وبالارجنتين (جورج خوري) وبشيلي (نقولا جارور) وبكولومبيا (ادمون زكور) حتى يكونوا السابقين واصحابنا في كاراكاس اللاحقين » .

— « كلامك وجيه . ليتني اتابع السفر من هنا الى بونس آيرس حيث اصحابي هناك يعتمد عليهم ، فأضع الحجر الاول في أساس المشروع قبل الاتصال بالمهاجر الاخرى لينك تعرف منزلتي السامية في الارجنتين » .

— « حدثني عنها يا أخي فحدثها يسرني » .

— « أعطيك مثلا واحداً ـ منذ عشر سنوات كنت مصطافاً في « مار دبلاتا » حيث يصطاف علية القوم كما تعلم . ودعيت لالقاء محاضرة على سيدات المجتمع في « البالاس اوتيل » وبعد ان تكلمت نصف ساعة تقريبا قاطعتني احدى السيدات بقولها : « يا معلم ان كلامك بمثابة صلاة تتصاعد بخوراً في هيكل الرب . ولا يجوز ان نسمعها الا جاثيات » .

قالت هذا وجثت على ركبتيها فاقتدى بها الجميع وبقين جاثيات الى ان انتهت المحاضرة .
اين أنا الان من ذلك العز الفريد » ؟

في كالي

لما وصلنا الى فندق كالي الكبير كانت غرفتنا مهيأة لان الدكتور حجزها برقياً ، له جناح مؤلف من غرفة نوم وغرفة استقبال وغرفة الحمام والمتممات ولي غرفة نوم ملاصقة له فما كتشفت بهذه القسمة سبباً جديداً لنفور الجالية منه . فهو يفرض معاشه على الكرام ثم يتحداهم بالبذخ ويعيش على مستوى أعلى من مستوى معيشتهم . وبعد ساعة اكتشفت سبباً آخر . اذ كنت في جماعة من المشلحين ارد على سؤال أحدهم ان كنت «مبسوطاً» في غرفتي في الفندق ؟ فأجبته انها تطل على النهر وأنا أهوى النوم على خرير الماء . وكان الكلام بالاسبانيــة فأخطأت بقولي جلبة الماء (Ruido) بدلا من همسات الماء (Murmullo) فصاح الدكتور : « بالفظاعــة ! ويقولون أنك شاعر ! يجب أن تعود الى المدرسة » ... فلم يزعجني كلامه ولكنه دلني على صحة ماروي عنه من شراسة الطبع وفظاظة اللسان في معاملة عشرائه . حتى على مائدة القمار يأمر وينهي ويوبخ رفاقه حتى اصبحوا يتجنبون اللعب معه .

لم ينقطع سيل المهنئين عن بهو الفندق حيث كنت استقبلهم ولكن واحداً منهم لم يصعد الى حيث كان الدكتور اسطفان ينتظر الزائرين ، الى في جناحه الخاص . فاستاء وحرد وتناول طعـام العشاء في غرفته حتى لايجالس ضيوفي على المائدة . وكانت سهرتنـا لذيذة . تم فيها التآلف والتحابب وما افترقنا الا بعد الاتفاق على برنامج دعوات ونزهات ومآدب لاسبوع كامل .

وكان من سوء حظي أن تفجأني وعكة شديدة في صباح اليوم التالي كادت تقضي علي . وما شاع خبرها حتى هرع الي الاصحاب واستحضروا الاطباء المشهورين وجرت الفحوص فكان التشخيص انفتاقاً في المصران يقتضي له عملية جراحية مستعجلة . فاتصلوا بالجراحين وصدر الأمر بالاستعداد للعملية فأرسل إلى المستشفى عربة الاسعاف لتنقلني إليه . وضجت البلدة وخلت المتاجر العربية من أصحابها وكانوا كلهم في بهو الفندق يتنسمون الاخبار . وكان في غرفتي طبيب يساعدني على الحركة بينا يده تمسد موضع الالم في البطن . وبغتة انحلت العقدة وزال الألم برمشة عين فارتميت على الطبيب اعانقه واردت الخروج الى الممر لالقاء السلام على جماعتي فنمعني الطبيب ونادى الجراح الاخصائي لكي يعيد الفحص . فجاء وأعاده وقال ان الازمة انفرجت ولكن علي أن الزم السرير اربعاً وعشرين ساعة قبل استئناف نشاطي العادي . وبعد قليل رجعت عربة الاسعاف الى المستشفى خالية من ضيفها .

عادني ذلك اليوم من أعرف ومن لا أعرف من ابنــاء وطني الا رفيق الدكتور حبيب اسطفان ... حتى اذا غادر غرفتي آخر فوج من الزوار حوالي منتصف الليل ، فتح الدكتور الباب الفاصل بيننا ودخل علي لتصبيني لا للسؤال عن حالي قال : « هل جئنا الى كالي لكي نعم الجالية وتمدها ؟ وهل نسيت كلامي امس في السيارة ؟ قلت : اسمح لي يا اخي بمهلة من فضلك . اذ لم يزل بيني وبين الخمسين ثمانية شهور . وبعدها بدبرها ربك .

وعاد الصفاء الى قلبينا فتباسطنا وتمازحنا . ثم شكا سوء معاملة الجالية له وقال اني حققت محله في قلوبهم وخصوصا بمحادثة المرض ، وان باستطاعتي الآن اقناعهم بشراء محاضرة منه ان تعذر شراء محاضرتين . فوعدته بالاهتمام بالامر منذ صباح الغد وسألته ان كان اضاف شيئاً جديداً الى مجموعة المحاضرات ، فأجاب سلبا ولكنه مضى الى حقيبة من حقائبه وجاءني بمخطوطة سميكة مكتوب على غلافها « حمدان — فارس الحصان الابيض » وقال ان هذه رواية طويلة يؤلفها من اوصاف نفسه ومن حوادث حياته فتطول عاما بعد عام الى ان تنتهي بانتهاء عمره . وحمدان — هو اسطفان نفسه — يطوف البلاد حاملا ثلاث رايات واحدة للخير وواحدة للحق وواحدة للجمال . ليركزها في القرى فوق الرؤوس والعروش ، ويفسر رموزها بمختلف اللغات حتى اذا فرغت جعبته من الاقوال الحكمية دفع بحصانه الى شاطىء البحر وغلغل في جوف الموجة العارمة ليكون لسانه طعاما للسمكة الجائعة .

سهرنا الى الصباح على صوت اسطفان وهو يقرأ رواية « حمدان » طيب الله أنفاسه ما أعذبها . كثير من المعلومات التي ذكرتها عنه في هذا الفصل أخذتها من فمه في تلك الليلة التاريخية .
انه الشيء الحلو المرير النافع الضار ، رجل المتناقضات .

اصبحت معافى نشيطاً وقت الى مهماتي . وكان اولها الطواف على الاطبــاء والجراحين والمستشفى لوفاء ديون البارحة . فكان جواب كل منهم ان الحساب دفع (من محل زكورودكاش) سبحانك الله . هل خلقت اكرم من بني قومي المقيمين في « كالي » ؟ منــذ يومين لم يكونوا يعرفونني ، واليوم يعاملونني كأني ربيت معهم في بيتهم . فبأي لسان او بأية وسيلة اشكرهم ؟ ان دعائي اليهم طالبا ان يشتروا محاضرة اسطفان ، ليست احسن وسيلة للاعراب عن شكري ...

مع ذلك ذهبت ورجوت واصررت وبحج صعاي . لم يشاؤوا الارتباط بمحاضرة مع الدكتور بل عرضوا أن يشتروا تذاكر الدخول اذا اراد القاء محاضرة . فخابرت الدكتور وتلت موافقته . وبعد الظهر خرجت الى السوق بثلاثمائة تذكرة دخول وزعتها على الاصحاب الكرام وعدت الى الدكتور بثلاثمائة دولار . وتأهبنا لسماع المحاضرة في المساء .

في المساء حصلت الفاجعة . أصحابنا الذين اشتروا التذاكر اضربوا عن الحضور . ولم

يكن في الصالة الفسيحة أمام المحاضر الا عشرون شخصاً ملأوا صفا واحدا من المقاعد . انه مشهد مخجل . ولم نجد ستراً للفضيحة الا في فتح ابواب المسرح على مصراعيه ودعوة الجيران والسواقين وكل من مر في الشارع الى الدخول لسماع المحاضرة مجانا . فحصلنا على خمسين مستمع آخر بهذه الوسيلة . والقى دكتورنا محاضرته مكسور الخاطر .. اللهم لطفك بعزيز قوم ذل !

مركزي في « كالي » بعد الذي جرى اصبح حرجـاً لا يطاق . فاعددت خطة الهرب وجعلت مقدمتها مأدبة عشاء في الفندق دعوت اليها كل من اكرمني وعطف علي من بني قومي . ومعهم رفيقي الدكتور اسطفان تمهيداً للمصالحة بين الفريقين من جهة واعراباً عن اعترافي بفضل المدعوين علي من جهة ثانية . فسري عن الدكتور تلك الليلة وابهج الحاضرين بمنطقه العذب وذكائه المتوقد . وافترقنا بعد المأدبة قائلين الى الغد (هاستامانيانا) ولكن قبل ان يبزغ الغد كانت السيارة تحملني وتعدو بي باتجاه فنزويلا . لا كولومبيا ولا الاكوادور . وقد تركت للدكتور كلمة استودعه بها الله وأسأله ان يودع عني الاحباب الذين حوله ، وكان ذلك آخر عهدي بالدكتور حبيب اسطفان . آذار عام ١٩٤٣ .

الانتحار

بعد الفشل الذريـع الذي مني به في كولومبيا كف الدكتور اسطفان عن المحاضرة ، فكان حكيماً ولو كف عن المغامرة لكان أحكم .

سدت في وجهه السبل ، ماعدا سبيلين : الاول مشروع المجلة ، ومعه الاستقرار في عالم الاحياء والثاني مشروع الانتحار ومعه الافلات من حياة المهانة والعذاب .

كان امله الاخير مناصرة اصحابه في الارجنتين كنقطة انطلاق لمشروع المجلة . فخاب هذا الامل واستحكمت حلقات الضيق ، لايفرجها عن السري الأبي الا الراحة الكبرى .

في يوم من أيام آذار عام ١٩٤٥ ، اي بعد سنتين تماما من افتراقنا في مدينـة كالي ، وردتني وأنا في كاراكاس برقية من مدينة بتروبولس « القريبة من ريودي جانيرو » تنعي إلي الصديق الكبير . وبعد اسبوع وصلتني صحف البرازيل وقرأت فيها ملابسات وفاته فلم أصدقها .

قالوا انه تسمم من أكل طعام بحري معلب ومستورد من اميركا الشمالية وان المعالجة السريعة الفعالة أنقذته من تأثير السم ولكنها لم تشف قلبه المعطوب . فهمد الخافق ورقد الجبار .

اني مازلت أعتقد بناء على ظروفه التي شهدتها وعلى كلماته التي سمعتها ، انه مات بجرعة من السم كان يدخرها متعمداً الانتحار .

كاهن العروبة ومسيح المهاجرين اختار صليبه وجلجلته وعلق نفسه على خشبة الخلاص ، قبل ان تدوسه أقدام الفريسيين . ليكن ذكره مؤبداً

الليلك

• قصة للكاتب الروماني زكريا ستانكو

• ترجمة الآنسة دلال حاتم



أخيراً ، وبعد غيبة سنوات طويلة عاد بطل القصة الى قريته ليمضي أعياد الميلاد ، عاد الى القرية بشعره الأشيب ووجهه المجعد وقد تغير فيه كل شيء ونسيته القرية كلها فهو الآن لا يعرف أحداً ولا أحد يعرفه .

وعند البئر التقى بامرأة عجوز شغلت عنه بملء دلائها ، انها فيلمونا ، الفتاة التي أحبها عندما تفتحت ازهار الليلك . يوم كانت شابة وجميلة تحلي اذنيها بقرط من الياقوت وتغطي شعرها بشال من الموسلين . وبعد أن تبادل معها بعض العبارات عاد الى منزل شقيقته حيث التأم شمل الاسرة للترحيب به .

وفي المساء اصطحب كوكوليتز ابن أخيه الصغير وخرجا معاليتسلقا الهضبة ويشاهدا الاطفال الذين يتراكضون في ازقة القرية – حسب التقاليد – وهم يحملون النجوم الورقية احتفالا بعيد الميلاد .

. . .

كنت ألهث من التعب ، لقد رأيتك في الطريق الوعرة ، ثم تسلقت الهضبة وأنا ألهث لهاثاً متقطعاً ، وعندما بدأنا الهبوط من جديد قال لي كوكوليتز :

– انك لن تستطيع [illegible] .

– لقد تعبت حقاً ، ولا تنس أني قد تحملت كثيراً من المتاعب في حياتي

– اما أنا فأشعر كأني عصفور طليق ، لقد ركضت كثيراً ، ولكنني لا اشعر بالتعب

– وأنا كذلك ، لم أكن أشعر بالتعب عندما كنت في سنك

– هل مضى على ذلك زمن طويل ؟

– نعم ، لقد مضى على ذلك زمن طويل .

– قل لي ، هل ستكون على قيد الحياة ، عندما أصبح في سنك ؟

– اوه ، كلا يا كوكوليتز ، لن أكون في هذا العالم .

وتنهد الطفل الصغير ثم قال بعد لحظة

– انني آسف

– ما الذي يدعوك الى الأسف

– لا أدري . لا أستطيع ان افسر لك ، ولكنني اشعر بالأسف يغمرني

– اما انا فلا اشعر بالأسف ، احس بأني سأكون احسن حالا هناك ...

وامام البوابة الخشبية استأذنت جميع افراد الاسرة وهم يتمنون لنا ليلة سعيدة

– هل نراك غداً ؟ واجابتهم شقيقتي .

– كلا ليس غداً ، الكم ترون انه مازال متعباً ، عليه ان يأخذ قسطاً من الراحة بعد غد

– حسناً ، كما تريدين ...

وانصرف الجميع كل في طريقه ، وذهب كوكولينا ايضاً . كان يسير بخطوات منتظمة وقد ارخى قبعته المصنوعة من الفراء حتى غطت قذاله ، كان يمشي وكأنه سيد العالم ، ومن يدري ربما كان سيد العالم في تلك اللحظة . وقالت لي شقيقتي :

– تناول بعض الطعام ... واذهب الى النوم فلابد ان الرحلة قد انهكتك

– الرحلة .. الرحلة .. ألا تجدين ماتتحدثين عنه الا هذه الرحلة ؟

ولمحت امام فسحة الدار امرأة تستند الى الجدار . وقد جلست هادئة بلا حراك .

وناديتها اختي قائلة :

– من هناك ؟ أهذه انت يافيفونا

– أنا هي .. لقد اتيت ..

– حسناً ، من الأفضل ان تمري غداً .. او بالأحرى بعد غد .. ان أخي ...

وقاطعت شقيقتي

– دعيها .. مادامت قد أتت ، فدعيها تدخل .

ووضعت عصاي جانباً ، وخلعت معطفي ، وجلست على حافة السرير . كانت الغرفة مضاءة ومدفأة ، واستقرت فيفونا على احد المقاعد ، كانت تنتعل حذاء عسكرياً قديماً وترتدي تنورة سوداء ، حتى شالها الذي يغطي شعرها وكتفيها كان اسود اللون .

ورمقتها شقيقتي بنظرة كره ، كانت تتمنى ان تطردها ولكنها خشيت ان تثير غضبي .

وقالت فيفونا :

– كنت فيما مضى تقرأ كثيراً في الليل ، كنت تقرأ حتى في ضوء القمر .

– كانت عيناي سليمتين في ذلك الوقت .

– والآن ألم تعد عيناك سليمتين ؟

– كلا ، انني أستعين الآن بالنظارات .

ومر قطار في تلك اللحظة ، فاهتز البيت كله ، وظل زجاج النوافذ يئز لفترة وجيزة . وقالت شقيقتي .

– ان زوجي سيعود من عمله بين لحظة واخرى ، سأذهب لأعد الطعام .

وبقيت وحدي مع فيفونا ، وتسمرت عيناي على الحذاء الذي تنتعله .

– هل تنظر الى حذائي ، انني أنتعله في الشتاء فقط . انه يخص ابني الصغير فلوريل ...

هل تعلم أني لم أدفن ولدي الآخرين هنا ؟ لقد مات احدهما في روسيا ، ومات الآخر في هنغاريا ، وأعادوا لي فلوريسل شبه مقعد . او بالاحرى لم يعيدوه إلي ، أخذوني الى المستشفى في نورفلو حيث وجدته هناك وعدت به .

لقد ذهبت ابحث عنه ومعي عربتنا التي تجرهـــا الثيران ، وبالقرب من المستشفى حلت الثيران ودخلت ، كانت هنالك باحة كبيرة تنتثر فيها المقاعد ، وعلى المقاعــد جنود في دور النقاهة خرجوا الى الشمس كالحشرات . وسألني أحدهم :

– عمن تبحثين أيتها الأم الصغيرة ؟

– أبحث عن ابني الصغير انه جندي .

– ماذا يدعى أيتها الأم ؟

– فلوريسل لازو .

– آه ، لازو ! اذهبي اذن لرؤيته في المهجع الكبير .

– من أين يمكنني الذهاب اليه ؟

– انتظري أيتها الأم الصغيرة سأقودك اليه .

وغادر الجندي مقعده وسار الى جانبي رويداً رويداً حتى وصلنا الى المهجع .

– انه هناك ! ابحثي ... وسوف تجدينه بسرعة

ووجدته ، كان متمدداً في فراشه ، ووجهه شاحب كالشمع .

– هل انت بخير ياصغيري ؟

– انني بخير يا أماه .

وأتى طبيب شاب وسألني :

– هل انت والدة لازو ؟

– نعم أنا والدته .

– حسناً ، يمكنك ان تأخذيه معك الى المنزل ، لديك عربة في الخارج اليس كذلك ؟

– نعم

– اذن اذهبي واربطي الثيران اليها ، سنحمله اليك حالا .

وبعد قليل اتوا يحملون فلوريسل واضجعوه في العربة على القش ، وأتى رجل آخر يحمل خرجاً فيه حاجياته وسأله ابني .

– هل وضعت الجوربين ايضاً يا اوبريا ؟

– نعم ، ولكن كان بامكانك ان تتنازل لي عن الحذاء ، انك لن تحتاج اليه بعداليوم .

– سأعطيه لأمي لتنتعله عوضاً عن أن تسير حافية في الوحل .

وعدت به الى المنزل ، كانوا قد اعطوه عكازين في المستشفى فصار يمسك بهما ويجر نفسه او يلقي بنفسه وكأنه يقفز ، كنت سعيدة جداً ان اراه الى جانبي وبالرغم مما حدث له ، فان الشباب هو الشباب ورأيته يتعلق بأرملة ميلو شقيقه .

– هذه خطيئة يافلوريسل . لقد كانت زوجة اخيك ، ولديها منه ثلاثة اطفال ...

– ليس هنالك من خطيئة ، مادام اخي قد مات فما الذي سيزعجه ؟

– ستهزأ القرية كلها منا ياعزيزي فلوريسل ...

– تهزأ ؟ انا لايهمني حتى ان تبكي القرية .

ماذا كان بامكاني ان افعل ؟ لقد تحملت العار وهذا كل شيء . ثم اعتاد فلوريسل ان يذهب الى دور اللهو ، كان يجمع النقود التي يجدها في المنزل ويصرفها هناك . صار يعاقر الخمرة ويثير المشاكل مع الناس ، حتى اقتيد مرة الى المخفر وهناك قالوا له :

– هه ، انك ماتزال شاباً ، لماذا لاتذهب الى الجبهة كما يفعل الذين في مثل سنك ؟

وفي احدى الامسيات ، لم يعد الى المنزل . انتظرته طويلاً وبحثت عنه في كل مكان وفي الصباح وجدته ملقى في طرف الغابة وقد اخترقت رأسه رصاصة ، وتركت ارملة ابني القرية وقيل لي فيما بعد انها تعمل خادمة في بيت كبير من بيوت بوخارست – وتركت لي الصغار لأهتم بهم .

وعاد في تلك اللحظة زوج شقيقتي ، الرجل احمر اللون بعينيه زرقاوين وشارب قصير ويدين ضخمتين ورحب بي قائلاً .

– اهلا بك في بيتك .

– اني سعيد جداً ان اراكم جميعاً بصحة جيدة . وسألتني شقيقتي

– الن تأتي لتتاول العشاء ؟

– لا اشعر بالجوع الآن ، سأبقى لاتبادل الحديث مع فيفورا

– تتبادل الحديث مع فيفورا وتدخن !.. حسناً ، انك لن تشعر بالجوع مطلقاً !

ونظرت الى فيفورا ، ونظرت هي الي ، لقد غدت يداها جافتين تغطيهما التجاعيد ، حتى جبينها تملؤه التجاعيد ، لقد غارت وجنتاها ، ولكن شفتيها ظلتا مكتنزتين ولو ان البرد منحها لوناً بنفسجياً .

وقالت فيفورا

– ان الجو دافىء هنا .

ورفعت شالها الذي يغطي رأسها ووضعته الى جانبها واحتفظت بعصبتها السوداء واجبتها :

– حقاً ان الجو حار .

— لقد ملأت جو الغرفة بالدخان ، هل تذكر ؟ لقد عدت بعد الحرب الى المنزل وبقيت فيه لمدة اسبوع .

— نعم ، اذكر ذلك

— كان ذلك في الربيع .

— نعم ، كان الفصل ربيعاً بالفعل .

— وكانت ازهار الليلك قد تفتحت .

— نعم يا ابيلي ، اذكر ان ازهار الليلك كانت متفتحة .

— ولم تكتب لي اية رسالة بعد ذهابك .

— حقاً ! اني لم اكتب لك مطلقاً ، لم اكتب لك شيئاً .

— ولا حتى بضع كلمات .

— نعم ، لم اكتب لك حتى بضع كلمات ، يا ابيلي .

— لقد سقطت مريضة ، اوه ، كلا ، لا تظن اني سقطت مريضة لانك لم تكتب لي ، اني اعلم تماماً انك لم تكن تجد الوقت لتكتب لي .

— في الواقع لم اجد الوقت لاكتب لك .

— لم ادر ما الذي حدث لي ، كنت اظن اني في عالم آخر ، ظننت اني سأغدو مجنونة .

— هل تذكر بوندار ؟

— اي بوندار هذا ؟

— بوندار عريف الجيش .

— ذلك الاسمر الضخم الجثة ؟

— نعم ، هو نفسه ، كان قد اوشك ان ينهي خدمته وتهيأ ليعود الى قريته في ضواحي بيشتي ، لقد طلب ان يتزوجني ، فذهبت معه ، كنت اكره ان امضي بقية حياتي هنا ، لقد كرهت الهضاب والحقول وحتى بيتنا . فجمعت حاجياتي سراً ووضعتها كلها في خرج وسافرت معه في احدى الليالي . لقد اخذنا القطار ووصلنا بيشتي بعد منتصف الليل فقال لي :

— سننزل ونقضي الليلة هنا في احد الفنادق .

— ولكنك وعدتني !

— بكل تأكيد ، وغداً سنذهب الى بيتي ونتزوج هناك .

واصطحبني الى فندق بجوار المحطة ، فندق يضج بالحقارة والبؤس ، وكم تمنيت الموت بعد تلك الليلة

ـ من المؤسف يافيلي ان الانسان لايموت عندما يريد . بل يموت عندما تحين ساعته .

ـ هنالك من يموتون عندما يريدون ذلك . انهم يضعون نهاية لحياتهم ... ليس صعباً على كل حال ان ينهي الانسان حياته ... حبل حول العنق ، وينتهي كل شيء . ولكن الخوف تملكني ، كما انه ليس مناسباً ان يجدك نزلاء الفندق معلقاً في السقف وقد تدلى لسانك .

ـ نعم ، انك على حق ، انها طريقة غير مناسبة .

ـ على كل حال ، لابد ان يأتي الموت يوماً من تلقاء ذاته .

ـ نعم ، يافيلي ، انه سيأتينا كلنا .

كانت فيلومنا تزن كل كلمة تقولها ، وكانت التعاسة ترتسم بوضوح على وجهها وسمتها تهمهم .

ـ قل لي . لماذا تبدو عصبياً ؟ .. يلوح لي أنك انسان آخر ، هل تفتقد شيئاً ؟

وأشعلت سيجارة جديدة . ترى كم سيجارة أحرقت حتى الآن ؟

وتنفست بعمق الدخان الساخن المر وضحكت ، ضحكت بكل قوتي ، ونهضت وبدأت أذرع الغرفة ويداي خلف ظهري . ودخلت اختي وهي تحمل طبقاً .

ـ يسعدني جداً ان اراك تضحك ، ان الله وحده يعلم ماذا قالت لك هذه المجنونة فيلومنا .

وضحكت فيلومنا بدورها وقالت :

ـ كل مافعلت أني قلت له القصص التي تتناقلها هنا في بيتنا ـ وقاطعتها اختي .

ـ هاك شيئاً يؤكل ، وهنالك زجاجة نبيذ ، واذا لم تخن ذاكرتي فقد كنتما متحابين فيما مضى .

ـ اوه كلا ـ لم تكن الا اشاعات .

وانصرفت شقيقتي ، كان زوجها ينتظرها في الغرفة الاخرى ، وبقينا وحدنا أنا وفيلومنا ، فأكلنا قليلا من اللحم ، ثم شربنا بعض النبيذ . ومسحت فيلومنا فمها بظاهر يدها وقالت :

ـ هل تعلم ؟ انها المرة الاولى التي نتناول الطعام فيها معاً .

ـ اني لا أذكر مطلقاً ، اوه نعم ، انها المرة الاولى بالفعل .

وملأت قدح فيلومنا وقدحي

ـ نخب صحتك ، يافيلي .

ـ نخب صحتك .

وجرعت كأسي حتى النهاية وقلت لها :

ـ هل نشرب كأساً اخرى ؟

وشعرت أن جدران الغرفـــة تتساقط من حولي ، وان القديس جورج يرمقني شذراً من الايقونة ، وان العذراء والطفل الذي تحمله ينظران الي بعيون ملؤها الدهشة .

– لقد سألتني يا فيلوما ما اذا كنت أفتقد شيئاً ، كلا ، هل سمعتني ؟ أنا لست بحاجة الى أي شيء ... اني سعيد ... سعيد !

وربتت فيلوما على كتفي .

– كلا انك لست كذلك ، لا تقل لي انك سعيد .

– ربما ، ولكن عليك أن تصدقيني ، أن تصدقي أني سعيد .

– حسناً ، وهناك في الفندق طلب بوندار مقبلات وزجاجة خمر ، ولأول مرة شربت معه ، كنت نشوانة في تلك الليلة .

– أعلم ذلك يا فيلي ...

وفي الصباح عندما صحوت وجدت نفسي وحيدة ، كان قـــد ذهب وأخذ معه كل حاجياتي ، وذهبت لأسأل عنه البواب :

– قل لي ، ألم تشاهد رجلي ؟ ذلك الرجل الذي أتيت معه ليلة أمس ؟

– لقد شاهدته بكل تأكيد يا صغيرتي ، لقد دفع الحساب وخرج ، سافر في رعاية الله ...

– ولكن ؟ ماذا سأفعل الآن ؟

– من أين أنت يا صغيرتي ؟

– اني من ... ولم أتابع الكلام بل انخرطت في بكاء مرير ، وقال لي البواب .

– ان البكاء لن يحل المشكلة ، فأنت لست الوحيدة التي حدث لها هذا ، سنتكلم في الامر مع السيد نوتاكي ها هو آت .

وبدا في رأس السلم رجل أصلع الرأس ، كثيف الشاربين وراح يسأل .

– من هذه ؟.. من هذه الصغيرة ؟

– لقد اصطحبها احد الرجال في الليلة الماضية ونسيها هنا ، وقلت اننا يمكننا الاحتفاظ بها لدينا ...

– م ، نعم .. انها جميلة التكوين ، قذرة . قليل من الترتيب .. وتصبح شيئاً آخر .. وانخرطت في البكاء من جديد وقال السيد نوتاكي .

– ناد السيدة كلارا .

وأتت كلارا امرأة نحيلة جداً وانفها طويل حاد كأنف النسر وتفرست بي طويلا .

– هل يمكنك الاحتفاظ بها ؟

– نعم ، انها رائعة ، ولكنني بحاجة الى بعض الوقت لأهيئها ، أراهن انها لا تعرف شيئاً كثيراً ، وانت تعلم جيداً ان الزبائن كثيرو الانتقاد و ... وأسرعت أقول لها : بامكاني ان اغسل الدرج ، وانظف الغرف ، واكنس الفناء .

واجابني السيد فوتاكي

– ليس لدينا فتاة كما ترين .

واحسست مرة اخرى ان الجدران تسقط من حولي ، وأن القديس جورج يحملق فيّ بعينيه اما السيدة العذراء والطفل الذي تحمله فقد عادا يحدقان في بعيونهم الواسعة . وبعد شهر واحد محمت في الهرب ، استجمعت شجاعتي وعدت الى البيت . وعنفتني والدتي :

– أيتها الطائشة ، لقد جعلتنا مضغة في الافواه ، من سيتزوجك الآن بعد هذه الفضيحة .

وبعد اسابيع ، طلب الزواج مني اونو لازو ، اهبل القرية ، وتزوجته . وامضيت معه خمس سنوات ، هل سمعت ؟.. خمس سنوات انجبت خلالها ثلاثة اطفال ... واخيراً ... اختار الله اونو لازو الى جواره .

وصمتت فيلونا ، وعادت تنظر الي من جديد بعينيها السوداوين الغائرتين في محجريها . وتناولت قطعة اللحم وبدأت تزدردها ثم تناولت قطعة من الخبز التهمتها بعنف وكأنها تلتهم ماضيها

– ان قطعة اللحم لذيذة ، وكذلك الخبز ، ان اختك تعرف كيف تصنع خبزاً جيداً .

– نعم انه لذيذ جداً ، ولكن هذا عائد لأن القمح قد طحن جيداً ، كما ان حرارة الفرن كانت مناسبة .

– صحيح ، لكي يكون الخبز جيداً يجب ان يرتب كل شيء مسبقاً ... ولكن قل لي انت ، ماذا فعلت كل هذه المدة ؟

– لقد هربت من كل شيء ، لقد امضيت في الهرب ، واخيراً عدت وهذا كل شيء .

– ولكنك عدت تتوكأ على عصا .

– حسناً ، انني اتوكأ عليها عندما اشعر بالتعب

وعادت اختي مرة اخرى

– لقد حلت اليكما زجاجة نبيذ اخرى ، يبدو انكما تريدان الاستمرار في الحديث معاً .

– نعم ، مازال لدينا ما نقوله .

– سأتركما الآن ، انني ذاهبة للنوم

– ليلة سعيدة .

وعدنا الى تناول الشراب كأساً بعد اخرى ، وقالت فيلونا

– لحبك .. نخب صحتك

ونهضت لأقرع كأسي بكأسها

– .. نخب صحتك يافيلي ، وحظاً سعيداً .

– اوه .. حظي ، انك تعلم ..! حتى اعدائي لا اتمنى لهم حظاً مثله ..

ومر قطار آخر ، وعادت النوافذ تئز مرة اخرى

– فيلي انه منتصف الليل .

– هل تذكر ؟ لقد بقينا مرة نسمر حتى منتصف الليل . مرة واحدة فقط

– نعم يافيلي ، اذكر انها كانت مرة واحدة .

– اني ذاهبة الآن ، فربما كنت تريد ان تنام

– سأصحبك اذن .

– لماذا ؟.. اني أعرف الطريق ، وتناولت شالها وغطت بـه رأسها ثم أسدلت اطرافه على كتفيها وتوكأت على عصاي ، وسرت الى جانبها ، نخترق ازقة القرية ، كان الليل حالك السواد ، ولكن النجوم كانت تلمع وقالت فيلوفا :

.. هذا صحيح .. ان السماء ماتزال فوق رؤوسنا كما كانت ، والنجوم ماتزال تلمع ، والارض هي الارض .

– ان السماء لا تهرم يافيلي .

– والأرض أيضاً لا تهرم ، لا يهرم في هذا الكون الا الانسان .

ومررنا امام بناء ضخم بني حديثاً ، كان ضوء القمر ينعكس على زجاج نوافذه فسألتها :

– ان هذا المنزل يافيلوفا . اني لا اعرفه .

– انه ليس منزلاً ، هذه مدرسة وقد انتهى بناؤها في السنة الماضية .

واقتربنا من أرض فسيحة في وسطها منزل عرفته فوراً .

– انه منزل ترا كاليا أليس كذلك ؟

– ترا كاليا !.. يبدو أنك ماتزال تذكره . ان صهره يقيم فيه الآن .

– وترا كاليا ؟ اين هو ؟

– انه يرقد بسلام تحت الهضبة ، بجانب الكنيسة القديمة .

وايقظت خطواتنا كلباً نائماً ، فقفز الى الأعلى وهو يعوي ، ثم دار حولنا فأبعدتـه بعصاي ، وصاحت به فيلوفا ، ابتعد ، ايتها الجيفة . وعرفت الجيفة صوتها ، فهدأت ، وعادت الى النوم من جديد .

– هاقد وصلنا

– هل وصلنا الى منزلك ؟

– نعم .. انه المنزل القديم ..

وظهر القمر في تلك اللحظة ، كان قد توسط السماء ، وحوله هالة رمادية بلون الدخان.

كان رأسي يلتهب ، واحسست انني اجمع الزمن كله بين يدي ، وانني اشدعليه اريد ان اسحقه ، ان اعود الى الماضي ، وقلت لها :

ـ فيفونا ، يلوح لي ان الميلك قد تفتح .

ـ لقد تفتح . منذ ليلة امس ، الم تلاحظه الا الآن ؟..

ـ لقد شاهدته الآن فقط ، يافيلي .

وضممتها بين ذراعي ، وتعلق جسدها الناحل بي ، ورفعت وجهها ، ثم قبلت بعنف شفتيها المكتنزتين الجافتين .

كانت السماء تهتز ، والنجوم تهتز ، والقمر يهتز ، وحتى الارض كانت تهتز تحت اقدامنا . وانتزعت فيفونا نفسها من بين ذراعي ، وسمعت صوتها وهي تقول شبه هامسة .

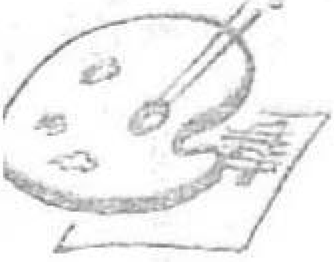
ـ يالك من احمق ! ماذا يعني هذا الآن ؟

ـ انه لايعني شيئاً يافيلي ، لايعني شيئاً على الاطلاق .

وانفتح الباب ، ثم اغلق بهدوء .

وعدت اسير على غير هدى ، أهيم في ازقة القرية ، لم يكن لدي ما افعله ، وفجأة هجم علي كلب استغرب وجودي ، بدأ ينبح بشدة وحاول ان يعضني ، فرفعت عصاي ادافع بها عني واذا اشتم ثم عدت الى القشرد من جديد





الكتاب والموضوعات

- بيلابارتوك والموسيقى العربية

دراسة عن التجربة للكاتب يانوش كارباتي

تعريب د. عبدالقادر ضللي

فنون

بيلا بارتوك والموسيقا العربية

دراسة : يانوش كارباتي

تعريب : عبد القادر خليلي

الفولكلور العربي وشمال افريقيا

طبيعة اثر الموسيقا العربية

اصوات الموسيقا العربية

... لقد نذر الملحن المجري بارتوك حياته لابحاث تجاوزت الى حد بعيد اهداف فنه المباشرة ، مكرسا اهتمامه بالشعوب المجاورة ، ثم الشعوب البعيدة . وكل هذا يعود الى ذوقه كعالم . ودأبه الدائم على العمل وحبه له واهتمامه باغناء التعابير الموسيقيـــة . لقد كان مفتونا بكل جديد وغريب وحتى مالم يسمع ، واراد ان يتعرف على الانسان في كل مظاهره الموسيقية : كل هذه الموسيقى المختلفة كل الاختلاف بعضها عن بعض ، فتحت له آفاقا جديدة وظلت آثارها في مؤلفاته الخالدة .

(زولتان كودالي
من خطاب ذكرى بيلا بارتوك)



بيلا بارتوك
١٨٨١ — ١٩٤٥

صيف عام ١٩١٣ قام بيلا بارتوك برحلة للدراسة الفولكلورية في افريقيا الشمالية ، وعاد منها يحمل عددا هاما من الوثائق المسجلة . وبعد ذلك في عام ١٩٣٢ اشترك بصفته احد مشاهير المختصين بدراسة موسيقى الشعوب في المؤتمر الموسيقي العربي في القاهرة .

وبذلك يمكن تلخيص علاقة بارتوك والموسيقى العربية . ويمكننا الاعتقاد بانه ليس فيها ماهو شديد الاهمية ، ومع ذلك ، ان اردنا تجاهلها فاننا نهمل صورة جوهرية من صور نشاط المعلم العلمي والخلاق . هذه الابحاث الموسيقية في الجزائر لايمكن اهمالها ، حتى وان كانت نتائجها تبدو اقل حجما من نتائج الدراسات الفولكلورية الرومانية والمجرية . ان دويها اقل مافيه سيظل شديد الاثر .

اننا مانزال نجهل حتى الان الرأسمال الموسيقي الذي جمعه بارتوك في البلاد ذات الحضارة العربية . وقد ضم مستودع آكاديمية العلوم في بودابست القليل منـــــه ، والتصنيف الذي مايزال متواصلا حتى الان لابد من أن يحمل مكتشفات جديدة منها . ومع ذلك ، فان مانعرف حتى الان يكفي لان ندرس مفصلا للموضوع الذي يهمنا ، اذ يشكل الجزء الاكثر اهمية في اعمال بارتوك التي نشرت حديثا .

واننا نستهدف دراسة مكانة وقيمة تحقيق بارتوك بين الابحاث الفولكلورية لشمال افريقيا وما هي طبيعة اثر الموسيقى العربية التي تتجلى في التأليف البارتوكي .

من الراجح جدا ان مشروع رحلة الدراسات في شمال افريقيا كان منويا منذ عام ١٩٠٦ وفي الحقيقة ، فقد كان بيلا بارتوك آنذاك يتنقل في اسبانيا والبرتغال كمرافق موسيقي للشاب المجري فرينس فيتشي ، عازف الكمان العبقري الموهوب .

وذات مساء في مدينة Cadix كاديكس خطرت له فكرة ركوب الباخرة التي تعمل على خطوط الشاطىء الافريقي . ونحن لانعلم شيئا عن انطباعاته . الا ان بيلا بالاش ، الكاتب الكبير ، وصديق بارتوك ومساعده ، يقول في كتابه « ذكريات » ان هذه الجولة كان لها اثرها الحاسم على مشاريع الرحلات العلمية التي كان برتوك ينوي القيام بها . ومن الراجح فيما بعد ، أي عندما لحن بارتوك اوبراه « قصر ذي اللحية الزرقـــاء » ، التي الفها بالاش ، لاحظ هـذا

الاخير وجود كتاب في قواعد النحو العربي فوق مكتب الموسيقار ، فسأله عن الامر الذي دعمه لتعلم اللغة العربية ، فاجابه الموسيقار الكبير :

« ... حين كنت ما ازال مراهقا افيشي ... سنحت لي فرصة لأقوم بجولة قصيرة في الشاطئ الافريقي . وهناك في ملهى عربي صغير ، سمعت اغاني شعبية قوية الجاذبية . ومنذ ذلك اليوم لم ينفط املي في ان ادرس تلك الالحان عن كثب . الا انه لأتفهم حقا الحان شعب ما، علي أن أفهم كلماتها » .

وعن هذا العصر ذاته تملك وثيقة اخرى عن مشاريع بارتوك . وفي الحقيقة ، فقد كتب في رسالة حررها من مونيخ في التاسع من حزيران ١٩١١ مايلي :

... الان فقط اصبح في استطاعتي ان اعود الى اوروبا الغربية : ان هموما مختلفة تتابني حتى الان في البيت . وها انا ذا اعود الى باريس لادرس الالحان الشعبية العربية ...

ونحن لانعرف شيئا آخر عن رحلة باريس هذه .

ولقد تحقق المشروع في عام ١٩١٣ . لم يكن ذلك يخلو من صعوبات . كان عليه بادئ ذي بدء ان يتغلب على العقبات «الادارية» كما تشهد بذلك رسائله العديدة التي يستحث فيها بعض الشخصيات الرسمية على مساعدته في الحصول على جواز سفره وتأشيرته . وقد كتب المرة تلو المرة الى كالمان ايشوري ، الذي كان آنذاك المسؤول عن فرع الموسيقى في المتحف الوطني المجري . ومما جاء في احدى رسائله هذه :

« ... اعذرني ان أزعجك مرة اخرى ايضا ، الا انه يهمني جدا ان اعرف فيما اذا كنت ساحصل على جواز سفري ام لا ، اذ اوصيت على اجهزة التسجيل من برلين سلفا ، كما ارسلها الى مرسيليا ... »

وفي السنة ذاتها طلب ايضا مساعدة جيزا فيلوش زاجون ، الكاتب الموسيقي الشهير آنذاك ، املا في ان يتوسط له لدى السلطات الفرنسية . وقد كان زاجون في الحقيقة على صلات وثيقة مع دور الطباعة والصحافة الباريسية . ومما كتبه بارتوك الى زاجون .

« ... عزيزي زاجون ، اود في هذا الصيف ، في شهري حزيران وتموز أن أقوم برحلة الى الجزائر ، وبالضبط تماما في منطقة بسكرا والقبائل الكبرى ، لاجمع منها شيئا عن الموسيقى العربية والبربرية (بواسطة اسطوانات طبعا) ... وقد خطرت لي فكرة ، وهي أنه ربما امكنني الحصول على رسالة توصية من احدى الصحف المجرية كمراسل خاص لها ... أو ... قد يمكنني أن اكون مراسلا « شكليا » لصحيفة باريسية ... سترسلني الى الجزائر للقيام بتحقيق عن الوضع الراهن للموسيقى الشعبية العربية والبربرية . بصفتي مراسلا ، سيعطونني كتابا ... يضمن لي في الوقت ذاته مساعدة السلطات الفرنسية . » .

ونحن نجهل اية مساعدة وأي كتاب توصية اتاحا لبارتوك بلوغ الجزائر . على أية حال ، فان احدى رسائله الى زالمان ايغوز تعطينا بعض المعلومات الدقيقة :

بسكرا ، ١٩ حزيران ١٩١٣

مرة اخرى،اشكرك كثيرا لمناء الذي بذلته من اجلي . في المحطة الاخيرة وصلني بالذات كتاب التوصية لدى حاكم الجزائر ، وقد كفل لي بعض الفوائد . اصبح لدي اشياء كثيرة هامة ومفيدة للمتحف ، وربما حلت المزيد منها ايضا وقد أفلحت في تحمل هذه الحرارة الخانقة ...

ويبدو ان مساعدة جيزا فيلموش زاجون ساهمت ايضاً في تحقيق هذه الرحلة . واليكم ما كتبه اليه بارتوك :

« ... باشرت اجمع مجموعتي في قرى الواحات منذ ثمانية أيام خلت ، وبفضل كتاب التوصية، تسير الامور افضل منها في المجر بالذات . ان العرب يصحبون غناءهم ، بشكل يكاد يكون دائماً ، بآلات ايقاع ، وفي وزن غالبا مايكون متشابكا جدا (ان الاشكال الوزنية المختلفة تأتي بصفة خاصة من حركة الصوت المختلفة في الوحدات القياسية المتساوية) . وهذا مايجعل تنفيذها مختلفا كل الاختلاف عن اوزاننا ... ومن ثمّ ، هنالك العديد من الالحان البدائية (على ثلاث درجات متصلة ببعضها) ونادرا مايوجد فاصل بمساحة اصوات « Quinte » والشعب العربي لايستعمل فقط ادواته القديمة من نوع الرباب Instr. à arch. (فصيلتها الاوروبية من انواع الكمان حلت محلها) الا ان آلات النفخ Instruments à vent تصدر سلالم « Gammes » غريبة تماما .

ان المنطقة التي اجرى فيها بارتوك بحثه ، هي احدى « ابواب » الصحراء الرئيسية . في الوسط مدينة بسكرا الواقعة قرب الواحة المسماة بذات الاسم والقريبة جدا من احدى الطرق النادرة المتصلة بالمفازات الصحراوية . وبالاضافة الى بسكرا فقد زار بارتوك ايضا ثلاث واحات اخرى في المنطقة هي : سيدي عقبة وتلجه والقنطرة . وسيدي عقبة وتلجه البعيدتان عن طريق قسنطينة — بسكرا — طجورت والطريق الصحراوي ، هامتان بصفة خاصة لنا فيها من عادات قديمة ظلت سليمة لاشائبة فيها .

وليس لدينا كشواهد على مايتعلق بتفاصيل ابحاث بارتوك سوى النزر من رسائله التي كتبها خلال رحلته ، وبعض نصوص الدراسة العلمية التي نشرت مؤخرا تثير اهتماما ايضا ، كهذا المثال الآتي :

« ... ان النساء المسلمات يخرجن محجبات دائما تقريباً ومحرم عليهن الحديث مع رجل غريب (عن عائلتهن) . وحيث انني لا استطيع ان

اقتصر على سماع غناء الرجال فقط ، فربما توجد نماذج من الالحان ليس من عادة الرجال غناؤها او انهم لايعرفونها ، ترتب علي في بسكرا ان استخدم السعي والحيلة لافلح في سماع النساء ايضا . ولقد اذنت لي السلطات في أن آتي الى بيتي بغانيتين (ولا يحق لهن في الحالات الطبيعية مغادرة حيهن) كيما اسجل غناءهما ... في تلجه تتجول النساء بحرية وبغير قناع ، وفيهما وجدت مغنيات دونما عناء . وفي سيدي عقبة والقنطرة توجب علي ان اعزف عن النساء اذ عرفت ان الرجال ايضا يغنون الاغاني الخاصة بالنساء » . .

ويحدثنا بارتوك في مناسبات عديدة عن الشروط السهلة نسبيـا في تحقيقه : لم تكن ثمة حاجة لاستعطاف واقناع الناس بالغناء . وهناهو الكاتب ديسا كوستلايني الذي دون احدى عبارات بارتوك بهذا الصدد: لقد دعا الشيخ رجاله فاستجاب هؤلاء لامره كأنهم مغنو اوبرا ... وقد كتب بارتوك مايقرب من هذا المعنى الى بيركا في خريف عام ١٩١٥ :

« ... اؤكد لك ان ذلك كان شديد الاهمية ، وبصفة خاصة ، بتقصي عملي . اصبحت لدي صلات بالمواطنين . . لقد كان الشيوخ في منتهى اللطف والكياسة : فقد كانوا يدعون الناس بكل بساطة الى الغناء . ومن الغريب كل الغرابة أن هؤلاء النـــاس لايبدو عليهم أي اثر من آثار الاستحياء ... »

الا ان هذا البحث الذي بدأ بداية طيبة ، انتهى مع الاسف في وقت سابق لما كان مقدراً له . فمن الشهرين المقررين لرحلته ، لم يبق سوى اسبوعين : اذ ان جسمه النحيل لم يتحمل حرارة الصيف الافريقي . ومهما يكن فقد كان واثقاً من نفسه عند مغادرته البلاد . وقد كتب في شهر نيسان الى زاجون يقول :

« ... ان الحرارة لم تكن لتخيفني . اذ درجة الحرارة في بسكرا (في الظل ٤٨) درجة سنتجراد . في شهر حزيران تشتد الحرارة اكثر على ما ارجح . واستطيع ان استريح خلال الساعات الشديدة الحرارة من النهار ، وسأقتصر على العمل صباحاً ومساء ... »

لقد راز قواه اذن . الا ان محاذير اخرى اجتمعت مـع الحرارة ، مثال ذلك التعب الذي كان يضني جسمه خلال تنقلاته . ولقد تحدث عنه في عام ١٩١٨ ايضا ، فقال :

« ... في افريقيا كنت ارتحل طوال النهار على ظهر بغل ، وقد كان في بعض الاحيان يعدو خبباً بحيث كنت اعتقد انني الفظ انفاسي ...

وهـــذا هو السبب الذي اكرهه على التخلي عن رحلته . وقد كتب الى صديقه يانوش بوشيتيا هذه الاسطر التالية المليئة بالاسى :

« ... منذ اسبوعين وانا اواصل جمعي (للوثائق) في اطراف الصحراء ، ولقد انتهى عملي بشكل يدعو الى الرثاء يمثل ما آل اليه عمل يليبش منذ اربع سنوات خلت . الحرارة هنالك لايمكن تحملها ابدا ، كما هي الحال هنا . وها انا ذا قد فرض علي ان اعود الى مدينة الجزائر لاستشارة الطبيب . على اية حال وجدت اشياء مفيدة هامة : فيالها من خسارة ان لم تعد لي قوة لمتابعة البحث ... »

رغم ان رحلة افريقيا الشمالية كانت اقصر مما كان مقدراً لها ، فقد اتاحت الحصول على نتائج هامة ، واذا كان بارتوك اعتبرها منتهية ـ فلا يفوتنا انه كان شديد الحساب لنفسه . اذ ما كاد يعود من افريقيـــا الشمالية حتى فكر بالعودة اليها . وقد كتب رسالة في خريف عام ١٩١٣ جاء فيها :

« ... في الصيف القادم سأعود هنالك عند اعزائي سكان القبائل ، انهم قبيلة بربرية تقطن الناحية الجبلية . كنت قد اشتريت كتاب نحو قبائلي ... »

وتشعرنا ملاحظة نشرت الى جانب دراسته مؤخراً ، انه كان قد عزم على القيام برحلة اخرى للدراسات في افريقيا الشمالية ، كانت ستتيح له ، بفضل معرفته اللغوية التي كانت قد ازدادت عمقاً ، ان يتغلغل بشكل اعمق الى صميم التقاليد الشعبية العربية في منطقة بسكرا ، وينصرف الى بحث اكثر تقدما في موضوع العلاقات بين الكلمة واللحن المغنى . ومن المعلوم ان الحرب العالمية اعاقت تحقيق هـذا المشروع . وبعد الحرب لم يعد بارتوك الى افريقيا الشمالية قط ، وقد سنحت له الفرصة مرة اخرى فسمع مغنين وموسيقيين عرباً خلال انعقاد للمؤتمر الموسيقي العربي في القاهرة عام ١٩٣٢ . وقد اتاح له هذا الاستماع ان يستخلص نتائج جديدة . ومهما يكن ، فانه لم يشرع في ابحاث علمية جديدة في هذا الجزء من العالم . وانا لنجهل سبب ذلك ، الا ان ثمة مجالات للاحتمال بان عمله كملحن وموسيقي لم يكن ليتيح له كثيرا من الوقت .

كرس بارتوك دراستين لنتائج ابحاثه في افريقيا الشمالية . الاولى منها ظهرت في المجر في عدد مجلة « سينفونيا » (بودابست ، ايلول ١٩١٧) ، والثانية نشرت عام ١٩٢٠ في مجلة « زايتشريفت فورموزيكفيسنشافت » (الطبعة الثانية العدد ١٨) وهذه الدراسة الاخيرة اكثر تفصيلا من الاولى . وفيهـا يستعيد بارتوك مادة موضوعه المجري عام ١٩١٧ ويكملها بنوطات وجداول ، مع نقل امين للكلمات العربية . وكلمات الغناء ، المنشورة كملحق ، تضم الحين خمسة وستين لحناً مدونا . ونجد بينها اغاني في مواضيع مختلفة ، دينية ودنيوية وموسيقى راقصة تعزف ببعض الآلات وببعض انغام الملائمة للآلات .

ولكي نفي كتاب بارتوك العربي حق قدره ، علينا ان نلقي نظرة على المراجع والكتب Biographique التي عالجت الموضوع . ونحن لن نعالج هنا دراسة مؤلفات كبار النظريين العرب من امثال الكندي والفارابي وابن سينا الذين لم يعالجوا الموسيقى الشعبية ، لكنهم عالجوا الموسيقى والنظرية التقليدية العربية ، وفق مبادىء فلسفية ورياضية اكثر منها موسيقية .

وفي رأينا ان جول روانيه هو الذي اعطى من بعد / كيزيفتر / في مطلع عصرنا اجود خلاصة عن مجموع الموسيقى العربية .

وفي كل الاحوال ، فقد كان هو الاول الذي نشر مسح يافيل كتابا في الغناء اشار الى نواقصه بارتوك نفسه في دراسته .

ان اول من اشتغل بصورة علمية بالموسيقى العربية لشمال افريقيا ، ووفق الطرق الحديثة هو آيريش فون هورنبوشتل الذي نشر لاول مرة الحانا دونت نوطتها بشكل دقة ، وذلك في دراسته تحت عنوان « فونوجرافيرتيه تونيزيش ميلودين Phonographierte tunesische melodien (تسجيلات لالحان تونسية) الصادرة عام ١٩٠٦ .

فكتاب هورنبوشتل هذا ، يفتح دون ادنى ريب صفحة جديدة في تاريخ دراسات الموسيقى العربية ، رغم انه لا يحتوي سوى ألحان تغنى في المدن كما اشار بارتوك . ان جدارته الكبرى هي في انـه اظهر لاول مرة تعريف اصوات الموسيقى العربية بدءاً من نموذج الطبقة الحادة Diatonique والمتسقة Tempéré . وفي عام ١٩١٣ ، عام رحلة بارتوك ، نشر آ . ز . ايدلزون ، وهو اخصائي آخر كبير بالفولكلور غير الاوربي دراسة قيمة عن نموذج « المقام » في الموسيقى العربية .

وبعد الحرب ، كان روبيرت لاخمان ، تلميذ ومساعد شتومبف وهورنبوشتل ، قد امتاز بصفة خاصة في الابحاث المعنية بموسيقى شمال افريقيا . وكانت دراسته الاولى المكرسة في هذا الموضوع اطروحة لنيل درجة الدكتوراه ظهرت عام ١٩٢٣ تحت عنوان « الموسيقى في المدن التونسية » Die musik in den tunisischen stadten .

هذا التأليف خلق مدرسة ، ويمكن اعتبار لاخمان دائما مؤلفا كلاسيكيا في هذه المادة . الا انه شأنه شأن هورنبوشتل ، اقتصر على دراسة موسيقى المدينة بـدءاً من معلومات مختلفة متفرقة ، استقاها من اسرى حرب عرب . وعلينا ان نذكر ، عدا عن هذا ، اعمال الكسي كوتان ، الكاتب الموسيقي الفرنسي الشهير والذي كان يقيم في مراكش . وكان اول من كرس لغير اساليب المدينة ، مكانة كبرى للموسيقى الشعبية البربرية في جنوب مراكش والتي كانت تكاد ان تكون معروفة حتى ذلك الوقت . الا ان في ابحاث كوتان نقصاً كبيراً : فهو لم يستخدم ابداً

الحاكي Phonographe ولا اية وسائل اخرى للتسجيل . ان اهم تأليفه هو : « رقيم الموسيقى المراكشية » Corpus de musique marocaine الصادر في باريس بمجلدين عام ١٩٣١ و ١٩٣٣ .

وفي الوقت ذاته الذي ظهرت فيه مؤلفات كوئان ، ظهرت الدراسات المكرسة ، قبل كل شيء ، لتاريخ وتركيب الموسيقى العربية (المدنية والبدوية) من قبل هنري جورجس فارمر ، الاخصائي الانكليزي الكبير في الابحاث الفولـكلورية في شمال افريقيا .

ان النتائج الاخيرة التي حصل عليها تعود الى موسيقيين وعلماء فرنسيين دون غيرهم . والقسم الموسيقي في « متحف الانسان Musee de l' homme » في باريس ، ينصرف باهتمام باشراف اندره شافنر ، ومعاونه جيلبر روجيه ، الى الابحاث القياسية عن الموسيقى الشعبية الافريقية بمساعدة اجهزة تسجيل متقنة وفي استقصاء علمي متفوق جداً . وهكذا بفضل العديد من الابحاث الناجحة ، يضم متحف الانسان وثائق هامة مدونة عن بعض مناطق الصحراء ، والقبائل (التي كان في نية بارتوك زيارتها ثانية) وموريتانيا في جنوب مراكش .

هذه الخلاصة الموجزة تتيح لنا ان نقدر بشكل افضل اهمية الابحاث التي انجزها بارتوك في شمال افريقيا . ورغم ان كتابه الذي وضعه بشكل مسودة لم يتم ، فقد فتح الطريق ، والبوم ما يزال فريداً في نوعه من وجهة النظر العلمية . وذلك للأسباب التالية :

آ — انه الاول والوحيد الذي جمع الالحان من اماكنها ، ودوّن نوطات التسجيلات مع دراستها . وكان يعتبر دائماً ان من الاهمية مكان اجراء التسجيل في مكانه وفي عام ١٩١٩ نقرأ في احد مقالاته ما يلي :

« ... لا يمكن ان يتم هذا العمل الا عن طريق اخصائيين (وفي البلد ذاته الذي ولد فيه اللحن) وبالدراسة القياسية المادة (ان تسجيلاً عابراً لا يمكن ان يتم الا في حالات شاذة كل الشذوذ ، حين يمر مغنون شعبيون اجانب) ... »

وبعد ذلك ، عام ١٩٣٦ في دراسته « لماذا وكيف نجمع الموسيقى الشعبية » يشرح بمزيد من التفصيل أهمية الابحاث في مكانها الأصلي :

« ... لابد من الاشارة بصفة خاصة انه لا يمكن جمع الالحان الشعبية الا في مكانها الاصلي ، اي في الارياف . ولا يصح بتدوين نوطات اغاني الريفيين المبعثرة في المدن ، كما هو الحال مثلاً : من الخدم والشحاذين واسرى الحرب . ان الناس الذين ينقطعون عن وسطهم ينسون اثر البيئة للموسيقى لوسطهم بحيث يطرأ على ادائهم للاسلوب تغيرات هامة . حتى وان لم يكن ثمة تشويه ، تظل العلاقة مفقودة دائماً بين المغني وابناء بيئته . وعلى هذا ، سيفقد خلال التسجيل هذا الطابع الحي الذي لا يمكن تحقيقه الا في مكان وبيئة مصدر الفولـكلور ... وفي البيئة دون سواها يمكننا ان نلاحظ الحياة الحقيقية والصيغة الدقيقة للغناء الشعبي .. »

وكذلك يولي بارتوك اهمية شديدة ، العمل في المكان الاصلي ذاته حين يراد تدوين نوطات التسجيلات تدوينا صحيحا . ولنورد من موضوعه ، المذكور آنفاً ، عام ١٩١٩ ، الفقرة التالية :

« ... ان المصاحبة الموسيقية المميزة بواسطة آلات ايقاع ، كما هو الشأن مثلا في الالحان العربية ، هي عنصر شديد الاهمية في موسيقى الشعوب الاجنبية ، واسلوب الضربات وكذلك اسلوب تواليها ، لا يمكن ان يكون دقيقاً عن طريق نسخ نصوصه من جهاز الحاكي » .

يمكننا ان نقول اذن بان بارتوك قد اكمل على احسن وجه جميع المتطلبات العلمية في ابحاثه الفولكلورية ، في حين ان هورنبوشتل مثلا لم يدرس سوى مجموعة من التسجيلات التي كانت شائعة آنذاك وهو نفسه لم يسجل سوى موسيقى الزمر التونسية حين مروره في برلين ، أي وهو بعيد كل البعد عن وسطها الاصيل .

اما لاخان فلم يذهب الى المكان الاصلي الا في عام ١٩٢٥ ، اي بعد بارتوك ، وعمله اللاحق لم يكن يعتمد الا على الابحاث التي اجراها بين أسرى الحرب .

٢ ـ كان بارتوك وما يزال الى اليوم ، الفولكلوري الوحيد الذي ارسى ابحاثه على اسس التمييز العلمي بين الاسلوبين الموسيقيين المدني والريفي . ولهذا يشير في دراسته التي كرسها عن بسكرا ، فيقول :

« ... **ان ما نعرفه عن الموسيقى العربية** عن طريق الكتب الخاصة التي عالجتها (**كتب و . ن . يافل ، وآريش م . فون هورنبوشتل** (E. N. Yafl etM. Erich fon Hornbostel) . ليس فيها شيء من الموسيقى الشعبية بالمعنى الصحيح ولكنها **موسيقى « عرب المدن »** ، ومما لاريب فيه ان ما تبقى من آثار الموسيقى العربية القديمة الصحيحة — التي لم تكن لتحفظ لفقدان تدوين النوطات الدقيق — لم يبق في شكله الحالي الا عن طريق النقل الشفهي . في هذه الدراسة لن اتحدث الا عن الموسيقى الشعبية » او القروية التي تظهر مع غيرها من الدراسات تباينات جوهرية ... » .

يشير لاخان ، حقا ، في احدى ملاحظات دراسته الآنفة الذكر الى ان بارتوك لم يحقق مشروعه في شكل تام ولم يهتم الا بالموسيقى القروية العربية ، في حين ، ان بين الالحان التي نشرها ، **نجد رقصات قبائلية (اي غير عربية) و « نوبة » (اي موسيقى مدنية)** .

ان بارتوك لم يكن ليفكر قط في ان يحدد الموسيقى العربية من وجهة النظر العرقية ، ولكنه اراد ان يستقصي فقط ماهية موسيقى قروية لمنطقة ما . حتى انه ذكر في دراسته اننا في حالات عديدة ، نحتاج الى الحان مقتبسة .

٣ — حتى من وجهة النظر الـكمية ، فان ما جمعه بارتوك يعد جزيلا . والمادة التي جمعها لم تنشر في مجموعها ، ويمكننا ان نفترض في هذه الحالة انه سيعثر على الحان اخرى حين يمكن الحصول على ما بقي مجهولا منها الى اليوم .

٤ — ان بارتوك هو اول من شرع بمثل هذا العمل وفق وجهات نظر علمية بحتة . فقبل كل شيء ، اختار لابحاثه منطقتين معينتين تماماً ومتحدتين قوميا (منطقة بسكرا والقبائل الكبرى) ، وحقاً، ان ما انجزه لم يف الموضوع ، الا انه قد يمكن اعتباره قاعدة لتأليف Monographie لمؤلف مكرس للموسيقى الشعبية في بسكرا . فلا هورنبوستل ولا لاخمان قاما في هذا العصر بابحاث في مثل هذه الدرجة من الوعي من التركيز على أرض بالذات . فقد انصرف كل منهما الى تصنيف المواد غير المتجانسة التي قدمت اليهما . ومن البديهي انهما كانا يعرفان فوائد الاسلوب العلمي ، الا انه كان يستحيل عليهما تحقيق هذا الاسلوب منذ البداية . فأول دراسة مركزة حقا للالحان لم تنشر الا بعد موته ، عام ١٩٤٠ .

واليوم بالذات ، يندر ان نجد اسلوبا في العمل بمثل هذه النجاعة . ان بعثات « متحف الانسان » في باريس تعمل وفق مبادىء مماثلة ، الا انه مازال حتى اليوم ثمة نقص في النشر التحليلي analytique والتأليف (المختص بموضوع واحد) Monographie والذي نشر حديثا للعالم الموسيقي الاسباني بالاشين Balacin ، والمكرس لموسيقى « داي » في جنوب مراكش ، يكاد يعد فريدا في نوعه .

٥ — كان بارتوك اول من حاول جمع وتصنيف الالحان الشعبية العربية وفق مبادىء علمية . وقد اخذ بعين الاعتبار ان من الاهمية كل الاهمية بمكان ان بضعة مئين لحنا لاتكفي مطلقا لتأسيس مقياس يشمل اسلوبا شعبيا بكامله ومع هذا فقد جرب تنفيذ ذلك ، كيما تكون مادة مجموعته الخاصة واضحة على الاقـل بالنسبة للقارىء . ان تجربة بارتوك لاتتبع ، كما هو معلوم ، مقياس تصنيف ايلماري كراون (Ilmari Krohn) ، اذ ان دراسة بارتوك تتناول عالماً موسيقياً مختلفاً كل الاختلاف عن ذاك الذي اجرى عليه العلامة الفنلندي الكبير دراسته . ان مبدأ التصنيف لدى بارتوك يعتمد على صحة المنطق والبنيان Structure اللحني وطول النص في الالحان المنثورة .

٦ — **ان بارتوك كان اول** من طبق ، فيما يتعلق **بالفولكلور العربي لشمال افريقيا** ، الطرق الجديدة في دراسة الموسيقى المقارنة . وفي الحقيقة ، في دراسته « كيف ولماذا تجمع الموسيقى الشعبية » (١٩٣٦) يستخلص نتائج هامة جدا من الابحاث التي اجراها في بسكرا ، فيقول

... عام ١٩١٢ اكتشفت عند روماني مارماروس Marmaros احدى الصور اللحنية من اللون الشرقي فيه بعض الزخرفات الفنية جدا تغنى بشكل ارتجالي . وفي عام ١٩١٣ في احدى قرى الجزائر الوسطى ، على اطراف الصحراء ، وجدت صورة لحنية مماثلة ، ومع أن التماثل كان شديد الوضوح منذ بداية الاستماع ، لم أشأ أن أرى فيهما شيئاً آخر سوى اتفاق ناشىء من قبيل الصدفة . من كان يفكر آنذاك ان مسافة اكثر من الفي كيلو متر تفصل بين الاقليمين يمكن ان تكون منذ اولها منطلقا لتوارث مباشر ، الا انه فيما بعد ، اكتشف بالتدريج ، أن الصورة اللحنية ذاتها كانت معروفة جدا في اوكرانيا والعراق وايران ورومانيا القديمة . وحينذاك ، اتضح أنه ليس ثمة اتفاق ناشىء من قبيل الصدفة : فهذا الاسلوب اللحني هو من أصل عربي — فارسي بكل تأكيد وقد تغلغل حتى الى داخل اوكرانيا ، وسنشير في حينه الى الوسيلة التي تغلغل فيها ، اذ اننا لانعلم فيما اذا كان الشاميون — الاتراك والبلغاريون قد عرفوه ...

وفي مؤتمر القاهرة طرح بارتوك هذه النظرية لاول مرة عام ١٩٣٢ ،

أي قبل سنة من نشر هورنبوشتل ولاخمان موضوعهما الهام حول القربى العائلية الآسيوية في الموسيقى البربرية لشمال افريقيا .

ان الدراسة التي قام بها هورنبوشتل ولاخمان ، كما هو معلوم ، اكثر تقدماً ، واكثر تنظيماً وذات مرمى اوسع من دراسة بارتوك الذي لا يظهر هذه القربى الا في شكل قياس فرضية . الا انه ، مما لا جدال فيه ان بارتوك هو اول من استعمل طرائق علمية في التأليف الموسيقي المقارن ، على الاقل فيما يتعلق بالموسيقى الشعبية لشمال افريقيا ،

٧ — ان نشاط بارتوك في المجال الذي يعنينا ، له اهميته الخاصة ، ليس لانه كان طليعة الرواد فحسب (كما بينا آنفا) انما لانه اسهم ايضا في عمل زملائه النجباء ، بتأييده نظرياتهم او ابدائه حولها شيئا من ملاحظات . فمثلا ، امدت دراسة بارتوك ، هورنبوشتل بمواد هامة جدا في ابحاثه عن اسس السلالم الصوتية الحادة Diatonique في الموسيقى الاوربية وعن منظومات systèmes الصوت الخاصة التي تختلف عن منظومتنا système المكيفة tempéré . حقا ان بارتوك لم يستخدم اشارات الانحناء الصوتية التي استخدمها هورنبوشتل ، ولا طريقة (أليس) اللحنية الدقيقة الذي يبدأ من « المئات » ، ولكنه استخدم اشارات معينة ليشير الى مايختلف عن منظوماتنا الخاصة . وبذلك أدى خدمات لاتقدر بثمن الى اصول التأليف الموسيقي وبصفة خاصة لايجاد جواب عن هذا السؤال : ماهي مختلف درجات السلالم التي يمكن ان تكون مواضيع لامثال هذه التكيفات؟ وكذلك يلقي الضوء على الاستعمال الخاص لآلات الايقاع بشكل اشد وضوحا مما عرف حتى آنذاك . ويوضح بارتوك في هذا الصدد قوله :

« ... باستغلالنا مختلف امكانيات تشكيل الحركات وكذلك توزيع الضربات المنتظم بين اليدين ، يمكننا الحصول على قوالب وزنية مختلفة الالوان ، حتى وان كان الطول الوزني لكل ضربة واحداً ... »

ولقد قام بارساخ حقيقة اخرى ، على جانب كبير من الاهمية ايضا ، تتعلق بمظاهر تعدد الاوزان في الموسيقى الشعبية العربية ، فيعبر لنا عن ذلك بقوله :

« ... في بعض الاحيان تكون المصاحبة الموسيقية غير مقيدة لدرجة انها تكاد تؤدي الى حياة مستقلة بذاتها ، عما يطابق اللحن . وفي هذه الحالة الشاذة ، لا تقوم في الحقيقة اية رابطة بين اللحن والمصاحبة الموسيقية...

ان مساهمة بارتوك في مؤتمر القاهرة كان لها اثرها الى حد ما ، ويبدو لنا ان من المفيد ان نورد بعض الفقرات من آرائه التي طرحها في المؤتمر . وهذه العبارات القليلة تكفي لتبرهن على الاثر الذي خلفه بارتوك في هـــذا المؤتمر الذي اشترك فيه آريش فون هورنبوشتل ، وكورت زاكس ، وروبيرت لاخمان ، بالاضافة الى العديد من الموسيقيين والمختصين بدراسة الموسيقى من العرب . ولنورد اطروحته بالحرف الواحد تقريباً .

«... تولد لدي الانطباع ، ان الموسيقى العربية المتمدينة ، نظراً لما فيها من مبتدعات غربية ومستحدثات ، تظهر متخلفة كل التخلف وراء موسيقى الارياف (والقد تولد لدي هذا الشعور منذ تسع عشرة سنة مضت ، خلال رحلة الدراسات للجزائر) . اذ ان الموسيقى المتمدينة غالبا ماتبدو فارغة ضيقة في طبيعتها ومصطنعة ، في حين ان موسيقى الارياف ، بطابعها البدائي ، تحدث انطباعا فيه الكثير من الفطرية وعلى جانب من الحيوية . لقد كان هذا الاختلاف صارخاً بصفة خاصة منذ اللحظة التي بدأت فيها فرق من الموسيقيين المتمدينين بناءعلى طلبنا ـ وبعد ان انتهت من عزف العديد من المقطوعات الموسيقية المتمدينة ـ بعزف بعض قطع الارياف : لقد كان ذلك العزف اشبه بهبة ريح ندية يشعر بها فجأة في مكان مغلق (فاسد الهواء) .

الا انه كما هو الشأن في كل مكان ، هنالك ايضا بعض الاستثناءات . فمثـــلا موسيقى العراقيين (الموسيقيين المتمدينين) لاتقـــل نموءها وحيويتها في اي شيء عن الموسيقى الريفية الاكثر ابداعا . وفي الحقيقة فان الابداع في العزف والتعبير الدراماتيكي في هذه المعزوفات العراقية يجعل من هذا الانتاج واحدا من قمم التظاهرات الموسيقية . وعلي ان احدد بدقة ان هذه الموسيقى العراقية ، بصحيح العبارة ، ماأشعرتني ابداً من الموسيقى المتمدينة : فهي على العكس ، ذكرتني بشبهها الشديد بموسيقى اخرى ريفية وبصفة خاصة بالالحان التي جمعتها من بني عرب « جلفة » (الجزائر) من جهة والحان « دومي Dumy » عنـــد الاوكرانيين من جهة ثانية والتي سنحت لي فرصة ان ادرسها عن كثب عند رومانيي « ماراماروس

« Marmaros . ان اوكرانيا ـ العراق ـ حلقة هي ثلاثة ؤوس لثلث طول كل من اضلاعه العديد من آلاف الكيلومترات . ونحن نعتقد على وجه التخمين بوجود سلسلة مذهلة من التأثير المتبادل تمتد عبر السهول والجبال والبحار . واننا لانعرف مع الاسف الا اول حلقة في هذه السلسلة: وفي هذه الحالة سيكون من الاهمية بمكان ان نبحث عن الحلقات الوسيطة في هذه السلسلة وان نعرفها ايضا .

« ورغم سخاء اللجنة التنظيمية وحيطتها في تقديم كل هؤلاء الموسيقيين العرب المتمدنين لم اشعر بالارتياح تماما منذ البداية ؛ لقد كانت موسيقى الريف مفقودة . ورغم فوات الاوان وفي الايام الاخيرة ، طرح هذا الموضوع على بساط البحث بنسبة ضئيلة . وان التظاهرات الموسيقية الاخيرة قد توجت بنوع من موسيقى السحرة ، بعزف قام به اناس مختصون بعومن يوجدون بين الطبقات الدنيا من سكان القاهرة . وكان هدف الاحتفال الموسيقي انقاذ الناس من اثر الارواح الشريرة . ولقد تضمن برنامجه الموسيقي : من ثمانية الى عشرة الحان عزفت بمصاحبة آلات ايقاع . لقد كانت تلك الموسيقى موسيقى ريفية حقيقية من حيث المحتوى ومن حيث التنفيذ ذي الطابع الممتزج جدا . وطبعا فان العزف الوحشي القريب من الجنون الذي يرافقه صخات وصرخات (ليست ابدا موجهة الى الصالة) كان من المضحك بحيث ان بعض المشاهدين ، وبصفة خاصة بعض موسيقيي الفرق الاخرى ممن اجتذبهم المشهد ، صموا اذانهم برعب شديد . »

هنا يجب التفرقة بين ماهو ثانوي ولاحق (الانفعال الديناميكية التي لامقياس لها) وماهو جوهري (البساطة الساحرة وهي بساطة في الشكل المليء بتعبير اللحن وعزفه) . عندئذ يمكن التسامح بالضجة المفرطة :

فلا داع هنالك لسيريناد Sérénade ، ان مايدعو هو عملية سحر يندفع خلالها المأخوذون ، من السامعين حتى الحماس ، كيا يتحرروا ويتعافوا .

ان واقع هذه الموسيقى ذات الطابع الريفي الصرف وقد عزفها موسيقيون متمدينون ، هذا الواقع يبدو مناقضاً لمبادىء الموسيقى الشعبية ذاتها .

وبعد ان توصلنا الى الاهمية الفنية في بحث بارتوك في شمال افريقيا ، يمكننا ان نطرح سؤالا ثانياً : اين وبأية صفة تتجلى مؤثرات هذه الرحلة في موسيقى بارتوك ؟ ان اللحن لم ينعزل عن الفولكلور ، ونتائج الابحاث العلمية استمرت بحيث اصبح لها اثر مخصب في مخيلته الفنية ، اثر واع وباطن لاشعوري في آن واحد

وفي وسعنا ان نورد العديد من الرسائل والتصريحات التي تشهد بأن بارتوك كان يبحث في وعي شديد لصوص الموسيقى العربية . والأسطر التالية المميزة جداً في موقفه الفني ، كتبت الى « اوكتافيان بو Octavian Beu » ، الفولكلوري الروماني :

« ... ان فكرتي في الفن الرفيع الحقيقي ... فن تآخي الشعوب ... هي الفكرة التي من اجلها كلها اوجه قواي ، وسأجهد في ان استغلها في مؤلفاتي . ولذا فانني لا ارفض ان اتأثر بأي مؤثر مها كان منبعه ، سلوفاكياً ، رومانياً ، عربياً او غيرها . شريطة ان يكون هذا المنبع صافياً ، رحباً وسليماً » .

وفي الرسالة ذاتها ، في اسطر تلي ، يورد واحداً من تآليفه يتجلى فيه الاثر العربي :

« ... ان الفصل الرابع من (ملحق الرقصات Suite de dances هو ذو طابع شرقي (عربي) من اوله الى آخره . وفي الفصل الثالث المؤثرات العربية تتعاقب فيه ...) »

في عام ١٩٢٨ عقد بارتوك في الولايات المتحدة مؤتمراً حول الموسيقى المجرية ، تحدث فيه بهذا الصدد عن طريقته كملحن : « فيما يتعلق بغير الموسيقى الشعبية المجرية ، جمعت ايضاً موسيقى شعبية سلوفاكية ورومانية الاداني كنماذج . قبل الحرب ارتحلت حتى الى افريقيا الشمالية لأجمع وأدرس موسيقى عرب الصحراء . ولقد نال مني تأثير الموسيقى الشعبية العربية ، وعلى سبيل المثال في الحركة الثالثة من (ملحق البيانو Suite pour Piano اوبرا ١٤ ...»

ان هذا الانتباه الواعي بالذات ، تعكسه بعض مؤلفات أخرى اقل اهمية ، كما هو الشأن في « غناء عربي Chant Arabe » في « ثنائي الكمنجة Duos pour Violons » رقم ٤٢ ، او كما هو الشأن في « على الطريقة الشرقية A l'Orientale » في الدفتر الثاني من « العالم المصغر Microcosmos » رقم ٥٨ .

ونحن قبل ان نتناول فحص الالحان المذكورة آنفاً بمزيد من التفصيل ، علينا ان نحدد على وجه الدقة بان التأثير العربي في موسيقى بارتوك يتجلى بشكل يختلف تماماً عن التأثير الذي اوحى اليه المقطوعات الموسيقية « على الطريقة الشرقية » المعروفة جيداً في تاريخ الموسيقى الاوربية . انها لا تحوي اللون الشرقي المزوّر في قطعتي « الاتوركا Allaturca » ولا في « الف ليلة وليلة Mille et une nuit » لـ « رمسكي كورساكوف Rimsky Korsakov » .

ان ما استحوذ على بارتوك في الموسيقى العربية لم يكن الشرق المليء بالالوان ولا الغرابة الفارغة ، ان ما استحوذ عليه هو القوة الذهنية ، والتعبير الفطري والسحر الاصيل العريق في الموسيقى الشعبية .

ان بارتوك لم يستخدم قط الحاناً عربية اصيلة . ان التأثير العربي يتجلى في موسيقاه في النصوص والالحان الموسيقية الجديدة ، او في شكل المصاحبة الموسيقية الخاصة . اننا لا نعدم

في اي مكان من موسيقاه ، موسيقى عربية صاخبة ، أو مفرطة في التقليد الى حد بعيد ، وانما نجد افكاراً موسيقية عميقة مبتدعة .

ونحن لانملك سوى مثال واحد تستهدف فيه العناصر العربية تأثير اللون ، ويظهر ذلك في الحركة الرابعة من « ملحق الرقصات » . وليس من الصعوبة معرفته ، اذ ان اللحن هو «على الطريقة العربية» ، وفي لون المزمار الانجليزي الواضح ، ويطابق كل المطابقة الفكرة التي كونها الموسيقيون الاوروبيون عن الفن العربي . وبين المؤلفات الاخرى ، فان المقطوعة الصغيرة من « العالم الصغير » الآنفة الذكر يمكن ايضاً استخدامها كمثل : ففيها ايضاً يستخدم بارتوك عناصر لحنية ليخلق جواً معيناً ، كاستخدام « الثانية الزائدة » و «قفزات البعد الخامس المخفف» . والخمس المخفف، بمصادره الاخرى ، الذي كان له دور بارز في الحان وانغام بارتوك ، ماتزال له مكانة تتجلى بشكل اقوى في تآليفه ذات الاتجاه العربي . ويجب بحث سببها في انطباعات بارتوك الشخصية في بسكرا ، اذ كما أورد في مناسبات عديدة في دراسته ، فان هذه الفترة تتميز كثيراً بسلالم وانطلاقات لحنية عربية : « ... اننا نجد بصورة متشابهة جداً في نهاية المقطع الموسيقي تسلاً من النوطة النهائية الى الخمس المخفف السفلي ، وفي الالحان الراقصة المنفذة على الآلات نجد الظاهرة ذاتها في اسفل المقطع ذاته ... »

ويتجلى الخمس المخفف في شكل آخر احياناً يذكرنا ببعض السلالم او المقاييس من كل الاشكال .

فمثلاً ان السلم الخاص بآلة المزمار المجوز ، لايحوي اي خمس صحيح فوق نوطته الاساسية انما على وجه العموم يحوي اخماساً مخففة . وها هما لحنان للمجوز بتدوين بارتوك ، ولكي نتممها ، نضيف اليهما اثنين آخرين جمعناهما بأنفسنا من مراكش :





ان المقارنة ضرورية بين السلالم وبين (الحركة الثالثة ، كما اشار اليها بارتوك نفسه وهي تحوي عناصر عربية)



ان استخدام السلالم الشعبية العربية ، هو بالتالي ، نتاج مطبق على نطاق واســـع في تآليف بارتوك . وكما قلنا عن ذلك ، لم يستخدم بارتوك الحانا مبتدعة ، لقد اخذ منهـــا فقط العناصر الصافية الاصلية والقواعد ، ولذا نجد سلالم ، ومقاطع لحنية وتراكيب وزنية مميزة جدا. هذه هي العناصر التي يجب استقصاؤها في تأليف بارتوك لنعثر على تأثير رحلته في الجزائر . اذ ان هذا التأثير لاينجلي في التآليف المشروحة بنص صريح فحسب ، انه يتجلى كذلك في مقطوعات موسيقية اخرى صافية خالصة ، مثلا في الحركة الثانية من (رباعي الاوتار الحادي عشر IIe Quatuor à Cordse) (١٩١٥ - ١٩١٧) ، والمشهد الكبير المركزي (مشهـــد الملحق) في قطعة الحكيم المظيم Mandarin Merveilleux (١٩١٨ - ١٩١٩) .

ولا بد من التنويه ، قبل كل شيء ، الى ان المصاحبة الموسيقية المضروبة ، تحاكي قرع الطبول في (رباعي الاوتار الحادي عشر) . الا ان ذلك ليس برهانا كافيا . اذا كانت
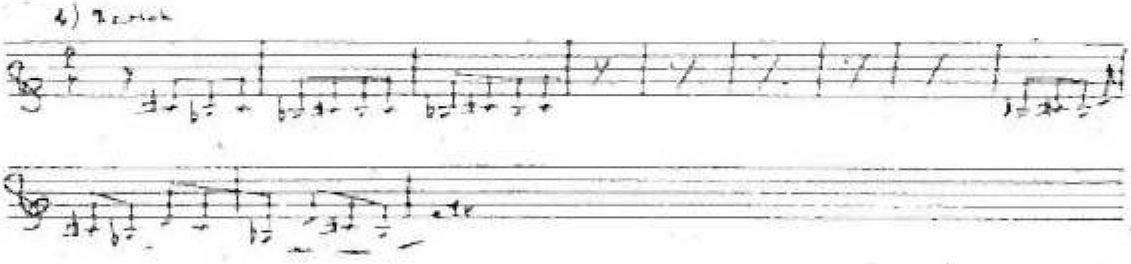


« مصاحبة الطبول » هذه لم تكن مشفوعة بلحن يتحرك في مقياس اصوات عربية صرفة . ان الحلية المؤلفة من ثلاث اوضات من جزئها الاول تصبح بطابعها الموجز اساسا لنصوص الموسيقية ، وتكاد تشبه « المقام » في كل حركته . والرسم الصاعد في الشكل الاولي يصبح هابطا نحو نهاية الحركة :
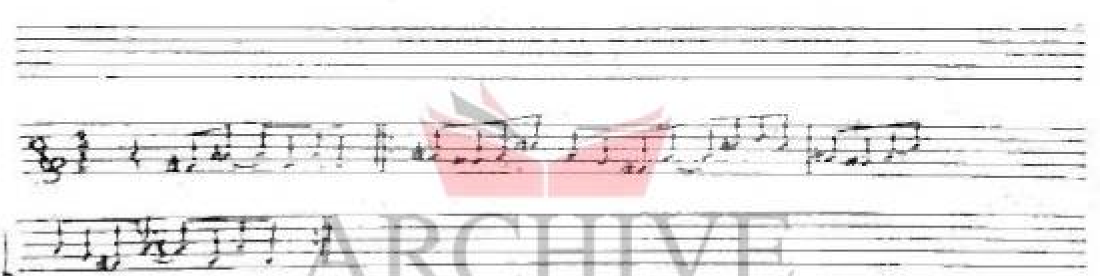


ان هذا المثال البسيط هو برهان ساطع في عرض ذكريات بارتوك العربية ، اذ اننـــا اذا ماتفحصنا فحواه الموسيقي ، لابد وان نقتنع بانه ليس هنالك من (ثلث كبير Tierce majeure) يقابل (ثلثا صغيرا Tierce mineure) ، ولكن هنالك مقياس اصوات يتألف من

ثلاث نوطات كان بارتوك غالبا مايصادفها في رحلته في بسكرا . ونجد بالتالي مثالا مشابها في (ثنائي للكمان Duo pour violon) تحت عنوان « غناء عربي » :



وهذا النموذج ذو الثلاثة اصوات يقسم في الجمل التالية، في شكل لحن ذي خمسة اصوات وهذا السلم الاكثر اتساعا يشمل بدوره طابع الالحان الشعبية العربية :



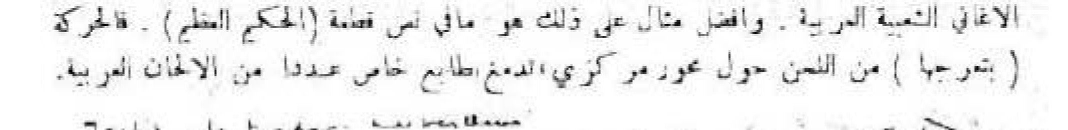
واننا لنجد صورة الوجه العربي ليس في السلم فحسب ولكننا نجدها ايضا في المطاقات وبناء اللحن العام



ان بناء « و » تدوين « النص متميزان هنا بصفة خاصة ، اذ انهما يتبعان المبدأ ذاتـــه الذي تتبعه الالحان الشعبية في منطقة بسكرا :

« ... ان الحان الرقص لاتنقسم الى جمل موسيقية فحسب ، انما تنقسم ايضا الى مقاطع ذات مقياس واحد او اثنين ، وبعض الاحيان الى اربعة او خمسة او ستة مقاييس ، تتردد باستمرار .

واخيرا نجد في مؤلفات بارتوك بعض المقاطع يبدو فيها رسم اللحن وله علاقة بلحن بعض الاغاني الشعبية العربية . وافضل مثال على ذلك هو ما في نص قطعة (الحكيم المظلم) . فالحركة (بتموجها) من اللحن حول محور مركزي الدمغ بطابع خاص عددا من الالحان العربية.



ولابد من الاشارة الى خصائص التنفيذ الموسيقي : فالالحان العربية التي من وزن « مقام جيوستو Giusto » تصاحب بدون استثناء بآلات ايقاع . وقد اوردنا آنفا استنتاجات عديدة لبارتوك تعني اهمية وتعقيد وزن المصاحبة . ومما لايتطرق اليه الشك ان هذه الخاصية في التنفيذ بالضبط هي التي اثرت كل التأثير في انطباع بارتوك على الاغلب ، وهو الشديد التأثر بالوزن . اذ ان المصاحبة الموسيقية بآلة ايقاع في الموسيقى الشعبية في اوروبا الشرقية غير معروفة . وقد لاحظ بارتوك في الجزائر الصورة الاولى للقوة السلفية في اوزان في الفولكلورات الموسيقية . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الدور الذي لعبته مختلف الاشكال الوزنية وعوامل الايقاع في تأليف بارتوك ، فاننا نجد مع ماهو موجود هنالك ، احد اسس لغته ونفهم اهمية هذه الانطباعات الجزائرية .

ومن الواضح ان علينا الا نبحث عن الاثر العربي فقط حيث الالوان او العناصر « على الطريقة العربية » ، ولكن يجب ان نبحث ايضا في العديد من العناصر الجديدة في لغته الموسيقية . فكما ان الفولكلور المجري يمكن ان يظهر اثره بين غيره من الفولكلورات في استخـــدام « التوافق الرابع » كلحن متطابق ، فكذلك الشأن بالنسبة للفولكلور العربي ، الذي يمكن ان يظهر متفرقا هنا وهناك بشكل انعطاف لحني او تركيب وزني جديد ، دون ان يؤدي ذلك الى ان يأخذ طابعا عربيا صرفا . ونريد ان نعني بذلك ان العديد من عناصر الفولكلور العربي ، كما في مثلا : الوزن الجامد في المصاحبة ، والتوزيع المميز في اللحن ، واستخدام بعض السلالم الشرقية ـ دلت كلها الى اي مدى قد تأثرت لغة موسيقارنا الموسيقية ووسائله في التعبير ، والتي لايمكننا بحال ان نميزها ، ونضعها تحت عنوان : « التأثير العربي » .

ويكفي ان نفكر بكل بساطة في واقع ان بارتوك ، القليل الكلام ، والمنغلق على نفسه الى حد ما ، والذي ما احب الحديث عن مؤلفاته ، ـ ان نفكر فيما دفعه ان يكون شديد الايجاز والجفاء .. كل ذلك يضطرنا الى ان نتذكر مراراً عديدة الاثر العربي الذي تأثرت به موسيقاه ، ليتاح لنا ان نفهم معناها بصورة افضل . ولنا ملء الحق ان نفترض ان هذه الجمل الموجزة تخفي حقيقة اشد عمقاً ايضاً .

ومن جهة اخرى ، نحن نعلم ، الى اي مدى كان بارتوك يؤكد بالحاح على اهمية البقاء على علاقة مباشرة مع حياة وموسيقى الشعب . ولنورد بعض تصريحاته في هذا الصدد :

« .. اعتقد بان الموسيقى الريفية لايمكنها ان تحدث تأثيرا عميقا حقيقيا على الملحن الا اذا انصرف هذا الاخير الى ابحاث شخصية في المكان ذاته وسمع الالحان الشعبية التي يغنيهـا

الفلاحون بأنفسهم، وبتعابير اخرى ، لايكفي الاهتمام بالموسيقى الريفية « المعلبة » الموجودة في المتاحف : اذ ان من الاهمية الرئيسية للملحن ان ينقل الى لوحة الموسيقى الصحيحة الطابع الدفين _ هذا ولااعرف اي شيء في الموسيقى الريفية لايمكن التعبير عنه _ وان يدخل في موسيقاه الخاصة الجو الذي خلقه التعبير الشعبي . فلا يكفي تطعيم الموسيقى الصحيحة بهذه العناصر او تلك او بعناصر هي تقليد للموسيقى الريفية . ان امثال هذه النتائج ، لايخرج منها سوى زخارف سطحية .... »

افليس جليا والحالة هذه ان التقاء بارتوك مع الموسيقى الشعبية المربية قد اهبط عليه وحيا يوازي ذلك الوحي الذي اوتيه عام ١٩٠٦ ، ومابعد ، من وراء اكتشاف الموسيقى الشعبية المجرية في الفترة ذاتها حيث كان في حقبة من أهم حقب تطوره الفني . وفي رأي بارتوك ، كما في رأي معظم الخلاقين ، ان زمن الصمت هو زمن الدراسة والتمثل والابداع . لقد كان هو كذلك عام ١٩٠٦ ، وعام ١٩٠٧ عاما تفتح الموسيقي العظيم ، وعام ١٩١٣ عام رحلته الى افريقيا الشمالية ، رحلة شديدة الغنى في تعابيرها ، وفيرة الخصب في طفرتها الخلاقة .



- كتاب المعرفة — الحياة الاسلامية في الجزائر —
  مع مقدمه الكتاب
- مطالعات الصحافة الادبية الاجنبية —
- المكتبة العربية — براعم — من أدبية الشرق والعروبة
  — ثم مات الأمل
- كتب جديدة —
- الصحافة الادبية العربية — مع الآداب — بيروت —
  و النشرة التربوية — الجزائر
- أخبار ثقافية —
- فنون —
- جولة الشهر —
  مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب المعرفة


BIBLIOTHÈQUE DE SOCIOLOGIE CONTEMPORAINE

LA VIE MUSULMANE EN ALGÉRIE

D'APRÈS LA JURISPRUDENCE DE LA PREMIÈRE MOITIÉ DU XX^e SIÈCLE

par

Jean-Paul CHARNAY

PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE

الحياة الاسلامية في الجزائر

تاليف جان بول شارنيه

عرض وتقديم المحامي ظافر القاسمي

مقدمة الكتاب

للمستشرق الفرنسي جاك بيرك

ترجمة المحامي نجاة قصاب حسن

من خلال احكام القضاء
في النصف الاول من القرن العشرين[1]

تأليف الدكتور جان بول شارنيه
٣٩٣ صفحة من القطع الوسط

مؤلف هذا الكتاب دكتور في الحقوق والآداب ، منحه معهد فرنسا (Institut) جائزة التقدير ، مكلف بالبحث في «المركز الوطني للابحاث العلمية[1]» ، الذي يعتبر اليوم قطب الرحى في تسيير مرافق الدولة العامة في فرنسا ، والذي انشيء في عام ١٩١٧ ليجمع العلماء الذين يقدمون الى الدولة الخدمة الكبرى في المجال الحربي ، ثم اضحى متسع الآفاق حيث اخذ يساعد على نشر الكتب العلمية النافعة ، كهذا الكتاب ، وكالكتاب الذي ترجمه حنين بن اسحاق الى اللغة العربية عن اليونانية ، وسماه (تعبير الرؤيا) ، ونشره المعهد الفرنسي بدمشق بمعونة هذا المركز .

قدم الكتاب الى القراء الاستاذ (جاك برك Jacques Berque) ، استاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس . والاستاذ برك غني عن التعريف لقراء العربية ، ومقدمته تستحق بحثا برأسه ، فلا نعرض لها في هذا الفصل .

عكف مؤلف الكتاب على دراسة الاحكام القضائية التي صدرت في الجزائر خلال النصف الاول من القرن العشرين ، ليرسم من ورائها

---

(1) La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la première moitié du x xe siècle, par Jean - Paul Charnay - Presse universitaire de France .

(2) Centre National de Recherches Scientifiques .

راجع حول هذا المركز كتابنا : فصول في اللغة والادب ص ٢٣٧ ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ١٩٦٤ .

سورة للحياة الاسلامية فيها ، خلال هذه الحقبة ولكنه لم يستند الى هذا المصدر وحده ، كما أعلن في عنوان كتابه ، وانما اضاف الى ذلك مئات المصادر الاخرى ، ومعظمها بالفرنسية ، وأقلها بالعربية ، واشار اليها في هوامش كتابه ، هذا بالاضافة الى تجاربه الشخصية .

مهد المؤلف لكتابه بمدخل استغرق تسع عشرة صفحة ، ثم قسم البحث الى خمسة ابواب رئيسية ، هي : الاسرة ، الصراع في سبيل الارض ، المسلمون في النطاق الفرنسي ، القضاة والمتقاضون ، وخاتمة . ثم الحق الكتاب بمعجم لبعض الالفاظ الاصطلاحية ، فصيحها وعاميها ، مما له علاقة بموضوعه .

ان الفترة الطويلة التي عاشت الجزائر العربية أيامها في ظل الاستعمار الفرنسي ، خليقة بالدرس الطويل . وينبغي أن الباحثين الذين يتصدون في نبش حقائق هذه الفترة التي بلغت قرنا وثلث القرن ، سوف يجدون فيضا من المصادر ، يحتاج الى صبر العلماء ، والى تجردهم عن الهوى، وسعيهم الى الحقيقة الخالصة ، ليدونوا التاريخ الحقيقي لاستعمار لم تعرف الانسانية له مثيلا .

رزق الدكتور (شارنيه) مؤلف هذا الكتاب كثيرا من المزايا التي ينبغي أن يتحلى بها الباحث ، ولست أعرف كتاباً بالفرنسية ، كتب في موضوع اسلامي أو عربي ، قليل الخطأ ، حاول فيه صاحبه الابتعاد عن العصبية ، كهذا الكتاب الذي اقدم اليوم الى القراء الفصل الاول منه المتعلق بالاسرة . فلقد قضى المؤلف فتوته في الجزائر نفسها ، والظاهر أنه رأى بأم عينه ما كان يجري فيها ، واختزن في نفسه كثيراً من أليم حوادثها ، حتى اذا ما اتيحت له الفرصة لأداء الخدمة الى الارض التي ارتوى من مائها ، وسار على غبرائها ، وتنسم من هوائها ، سارع الى العلم والى مصادره ، يستخدمها في اقرار الحقيقة التاريخية . ولقد أعانه على ذلك معرفته باللغة العربية ، واطلاعه على كتب الفقه الاسلامي ، وأخذه بنصيب من الثقافة العربية .

لقد عرفنا قبله كثيراً من المستشرقين الذين يتخذون العلم أداة للسياسة ، او للأهواء المذهبية أو لبغض من الاسلام والعروبة . وعرفنا غيرهم من الذين تصدوا لبعض الدراسات ، وهم يجهلون الموضوع الذي يدرسون ، فيعتمدون على كتب مترجمة الى لغتهم ، أو على خرافات وأباطيل شائعة ، ملفقون منها كتاباً يزعمون أنه خلاصة بحث ودرس ، وليس له اية صلة بالبحث والدرس .

ولست أعني أن هذا الكتاب قد تبرأ من العيوب،فلنا عليه ملاحظات سنشير اليها في مواضعها .

يقول المؤلف (ص ١٠) : « وعلى الجملة ، فقد بذلت الجهد لتقديم أساس متين للحركات العامة التي سيتناولها الوصف ، ولأوضح بصورة مادية أكثر ما تكون كمالا ، كيف كان الجزائريون يعيشون ، وكيف كان رد الفعل عندهم في حياتهم اليومية ، وكيف كان سلوكهم ، واحلامهم ، ومصالحهم ... ولتحقيق هذا الغرض ، اخترت اكثر الامثلة العديدة التي سردتها . لاجرم أنه كان أمتن للقارىء ، كما كان اسهل على المؤلف ،

أن نقتصر على الأمثلة الباهرة . ولكننا حينما وازنا بين عرض براق ، ولكنه مشوه ، وبين ما في الحياة من عواصف ، وما في السلوك الشخصي والجماعي من غزارة ، رجحنا الطريقة الثانية على الاولى ، لأنها وحدها جديرة بتقرير علم خصائص الاعراق : التيبولوجيا(١) . »

ثم أضاف (ص ١١) : « ومن البديهي أننا لاندعي هنا رسم وجه كامل للجزائر ، من خلال بضع مئات من الدعاوي ... لأن ذلك يقتضي تتبع كل مافي الجزائر من مظاهر الحياة : كالصحافة ومحاضر المجالس المنتخبة ، والجمعيات ، والبحوث الجمالية ، والأدبية ، والتحقيق المحلي الخ ... » ولما لم تكن الاحاطة بذلك كله ممكنة ، فقد قصر مصادره على أحكام القضاء .

كان طبيعيا ان يلم المؤلف بنظام القضاء في الجزائر ، في مستهل بحثه ، لأن دراسته تعتمد ، أول ماتعتمد ، على الأحكام الصادرة عن هذا القضاء ، اضافة الى تجاربه الشخصية (ص١٨) . فلقد عرفت الجزائر ثلاثة أنواع من القضاء : القضاء الشرعي ، والقضاء الفرنسي ، والقضاء القبلي . وغني عن البيان أن القضاء الفرنسي كان يعتبر قضاء وطنيا ، لاقضاء أجنبيا .

فأما القضاء الشرعي فلغته العربية ، ولكن أحكامه لاتنشر في المجموعات التي اعتادت المطبوعات القانونية نشرها ، لأن لغة هذا القضاء كانت العربية ، وكانت العربية الفصحى لغة أجنبية في الجزائر ! ! (ص٢٠٨) ، لأنها لغة الخطاب في جميع البلاد العربية ، كذا حكمت الغرفة الاولى من محكمة الجزائر بتاريخ ١٥/١١/١٩٣٠ !

واذا اتفق ان بقيت الدعوى بين يدي القاضي الشرعي ، فان أحكامه كأحكام قاضي الصلح الفرنسي تابعة للاستئناف أمام غرفة خاصة لدى محكمة الاستئناف في مدينة الجزائر اسمها (غرفة اعادة النظر) ، وجميع قضاتها فرنسيون .

اما القانون المطبق فهو الشريعة الاسلامية على مذهب الامام مالك ، الا في قضايا الأوقاف ، فان مذهب الامام أبي حنيفة كان عونا على تخطي بعض الصعوبات التي تضمنها المذهب المالكي ، والا ما يتعلق بالأراضي الخوارج ، وهم قليلو العدد فتطبق عليهم أحكام القانون العام .

وأما القضاء القبلي الذي يتقيد بالعادات والتقاليد ، **فان قاضي الصلح - وهو فرنسي - هو القاضي « المسلم » الوحيد** ولقد أعجبني المؤلف وضعه لكلمة « المسلم » بين قوسين ، دلالة على ما في ذلك من المفارقات ، وتعبيرا عن التهكم للمهذب ! ومن الامثلة التي ضربها (ص ٨٤ حاشية ٤) ان من عادات القبائل جمع مجلس العائلة لاختيار وصي على القاصر ،

---

(١) التيبولوجيا : العلم الباحث عن الخصائص المميزة لعرق من الأعراق Typologie ولم نجد لهذا اللفظ مقابلا بالعربية ، وسألنا بعض الأصدقاء المهتمين بالمصطلحات العلمية فاجابوا بعدم العلم . وبالنظر لطول العبارة التي تدل على مفهوم اللفظ ، آثرنا تعريبه على ترجمته . « راجع : معجم ليترة ، مادة TYPH ، الفقرة التاسعة) .

وان رئيس هذا المجلس العائلي هو قاضي الصلح الفرنسي !!

ولنا أن نتصور كم عانى المسلمون خلال قرن وثلث القرن من فصل منازعاتهم الشرعية ، على أيدي قضاة فرنسيين ، يجهلون اللغة العربية ، ويستندون في أحكامهم الى ما يترجم لهم من كتب فقه للمذهب المالكي ، أو المذهب الحنفي !!

فاذا ماشرع المؤلف في صلب بحثه أوضح في الفصل الذي عنوانه : **الزواج امر حميد على الصعيدين : الديني والسياسي ص ٢٠)** أن الزواج في نظر المسلمين وسيلة لابد منها لضمان ازدياد جماعة المؤمنين، وان المسلمين (الجزائريين) قد تنبهوا فأدركوا أن زيادة عددهم يمكن ان لاتروق للمستعمر : ذلك بأن هذه الزيادة سوف تؤدي الى تعزيز ومضاعفة قوة المطالبة ، التي ربما سمحت بادراك الاهداف التي سبق أن حلم بها بعض الجزائريين . ثم يلحظ المؤلف ان هذه الزيادة تجعل وضع المرأة أكثر تعقيدا ، لأن الحرية التي تتمتع بها المرأة الأوروبية ، باعتبارها سيدة منزلها ، لم تدركها المرأة المسلمة ، ولعلها لن تدركها أبدا . وهذا مما نأخذه عليه ، فهو لم يقدم ـ خلافا لعادته ـ أي تعليل لهذا الحكم القاسي على المرأة المسلمة ، بينما نرى أن الواقع يخالفه كل المخالفة ، ولا نعتقد أنه يجهل كم أثرت حرب الاستقلال (كما يسميها هو ص ٤٦) في تطور المرأة المسلمة ، تطورا نهض بها نهضة رائعة ، لاتخالف أحكام الدين ، وتتفق مع روح العصر .

واذا كان المؤلف قد أصدر هذا الحكم القاسي في صلب الصفحة (٢٠) ، فانا نقدر له أنه قد شهد للأسرة الاسلامية في المدن شهادة رائعة ، ولكنه سجلها في الفقرة الثالثة من هامش الصفحة نفسها ، مع أنها تتعلق بصميم الحياة الاجتماعية في الجزائر ، وقد كان خليقا بها ان تدرج في الصلب لافي الهامش ، حيث قال : أما بنات المدن من الأسر الشريفة ، فاذا مسهن الاملاق ، فلا يستخدمن في بيوت الاوروبيين : انهن يقمن بأعمال مختلفة (كالنسج ، والطبخ) لدى العائلات الاسلامية الميسورة .

كذلك لسنا ندري لماذا اعتبر المؤلف أن (الحشمة) وقد فسرها بالحياء والطهر ، تجعل المرأة في حل من الاحتفاظ عن الرجل كأبيها أو أخيها أو زوجها (ص٢١) ، وان كان قد حاول أن يجلو هذا الرأي بأن الحشمة تبقي المرأة في عالم مغلق .

وقد أشار المؤلف الى زواج غير البالغين ، وأن ذلك عادة شائعة ، مردها الى قاعدة (الجبر) ، التي تخول الولي تزويج بنته غير البالغة . الا أنه استغرب أن يوجد تشريع يجعل من مباشرة الرجل لزوجته غير البالغة جرما معاقبا عليه ، وان يسمى هذا الجرم (الغصب) ، بينما يستحيل وجود هذا الجرم بين الأزواج . على ان هذا القانون قد استثنى القبائل من شمولها لأحكامه .

وفي البحث الذي عقده المؤلف عن محاولة المرأة لابراز شخصيتها (ص ٢٥) حصر دور

المرأة في المجتمع الجزائري بين حدين ، أدناهما أنها متعة للزوج ، واعلاهما أمومتها . وكأنـه اراد بذلك ان يعزلها عن المجتمع . ولاشك في أنه قد خالف الواقع ، ان لم يكن قد ظلمها ، وان كان تطورها حتى عام ١٩٥٠ ، وهو التاريخ الذي حدده نهاية لبحثه ، تطوراً محدوداً الا ان هذا التطور قد بدأ قبل عام ١٩٥٠ ، وأثمـر أطيب الثمرات في حرب التحرير ، كما أشرنا الى ذلك قبلا .

وقد أخذ المؤلف على التشريع القرآني (ص ٣٦) تصوره الذي لا ينكر في موضوع البينات ، وذلك بصدد امكان اثبات الزواج بالشهادة . ولم أر في الكتاب كله الا هذه الجملة التي كان اسلوب التعبير فيهـا بعيدا عن أساليب العلم . وقد كان يحسن بالمؤلف ان يعبر عن رأيه هـذا بأسلوب آخر ، لاسيما وانه قد استعمل تعبير (التشريع القرآني) ، بينما ردد عشرات المرات قبلهـا وبعدهـا : الفقه الاسلامي . ولا أحب أن أرد على المؤلف بأكثر من سببين ، على الرغم من أن مجال القول متسع :

فأما اولهما فذلك ان الزواج ، وان اعتبرته الشريعة الاسلامية عقدا كالعقود الاخرى ، الا انه يختلف عنها بنتائجه ، أعني بذلك الاولاد ، وما يتبع ذلك من صحة الانساب . فمن وجد في طرف امتنع عليه فيه تسجيل العقد ، لاي سبب من الاسباب ، وكان مضطرا فيه للزواج ، كان من الواجب اثبات العقد . في حال الخلاف على وقوعه ، بالبينة الشخصية .

وثانيهما أن التشريع الفرنسي نفسه ما زال حتى اليوم يأخذ بمبدأ اثبـات العقود التجارية بالبينة الشخصية ، لابل ذهب الى أكثر من هذا فجعل محاكم التجارة البدائية من التجـار لا من رجال القانون . وقد يكون الخلاف على ثروات عظيمة ، ومع ذلك فان طرق اثباتها أسهل من اثبات العقود المدنية الاخرى التي اشترط فيها البينات المكتوبة ، ولم يقل احد ان هذا نقص في التشريع ، بل ذهب العلماء الى ان ذلك يتفق مع طبيعة المعاملات التجارية .

وعلى هذا فلو أنصفنا لوجدنا ان القـاعدة الشرعية التي تجيز اثبات عقود الزواج بالشهادة هي القاعدة التي تتفق لامع طبيعة المجتمع الاسلامي وحده ، بل مع طبيعة المجتمعات كافة . وما رأي المؤلف لو ان زواجا قـد انعقد ولم تتم مراسمه الشكلية ، وانما تمت مراسمه الشرعية ، فهل تكون العلاقـة بين الزوجين سفاحا ، وهل يكون الاولاد اولادا غير شرعيين ؟ ما أظن ان احـداً يقول بذلك .

ويحمد للمؤلف ملاحظتـه (ص ٤٤) **ان تعدد الزوجات آخذ في الزوال .** ويرد ذلك الى تطور اساليب الحياة ، والى الصعوبات الاقتصادية التي **اخذت الاسرة تعانيها في هذا العصر .. وهذا يكون ملحوظاً في جميع الاقطار الاسلامية .**

كما يحمد له ملاحظته (ص ٥٩) ان الخلافات العائلية في الجزائر المسلمة ليست اكثر عددا مما هي لدى المدنيات الاخرى ، وانه يمكن ان يمثل بنساء شابات ، اصبحن أيامى ورفضن الزواج ثانية ، بغية الاهتمام بتربية اطفالهن والمؤلف **يرى بصورة عامة ان المرأة المغربية ام صالحة** (ص ٦٩)

وقد اشار المؤلف في هامش الصفحة (٦٤) الى اعلام النهضة النسوية في الاقطار العربية ، فوقع في اخطاء ، ما كان ينبغي لمثله ان يقع فيها . منها مايتعلق بصحة الاسماء ، ومنها مايتعلق بصحة دعوة الاعلام الذين ذكرهم الى النهضة النسوية ، ومنها اغفاله لاعلام لايصح اغفاله في مثل هذا المقام . فسعد زغلول ، سماه احمد زغلول . وعبد الحميد سعيد سماه زكي عبد السعيد ، ولم نعلم له اية دعوة خاصة لتحرير المرأة . واما قاسم امين فليس له أي ذكر .

واذا ماعالج المؤلف موضوع الخرافات والاباطيل التي سيطرت في الماضي على عقول كثير من النساء قال (ص ٦٦) : « ان جميع هذه المعتقدات التي حارب من اجل محوها جميع علماء الدين المصلحين ، قد صنعت في الواقع من المرأة المسلمة حصناً فعالا للاسلام ، كما سهلت ، بالمقابل ، هذه النهضة الاصلاحية » ثم يضيف في الصفحة ٨٥ ايضاحا لرأيه هذا فيقول : « لما كانت المرأة تضمن استمرار النوع ، فانها من اقوى الحواجز التي تحمي الاسلام من التفرنج . » واكد هذا المعنى في مواضع اخرى .

ويستطرد المؤلف في هامش الصفحة ٧٤ فقرة ٣ الى انشاء المدارس في الجزائر عام ١٨٨٣ ، ولا يفوته ان يؤكد بكثير من التجرد ان الذي قاتل انشاءها هم المستوطنون .

وهكذا نرى ان المؤلف في هذا الباب الاول قد غلب صوابه على خطئه ، وانا نحمد له على الجملة هذا الجهد العظيم الذي بذله في جمع كثير من الحقائق ذلك بأنه قد حاول ان يكون متجردا ، وقد وفق الى غرضه في معظم المواضيع التي عالجها . واذا كان قد نص على المجتمع الجزائري بعض العادات والتقاليد ، الا انه كان مهذبا في الاسلوب ولم يعد في اكثر الاحوال مايطالب به المصلحون المسلمون انفسهم .

ومما تجدر الاشارة اليه انه قد فرق بين احكام الشريعة وبين الخرافات ، وانه سمى الاشياء باسمائها ، فلم يخلط بين حق وباطل ، كما فعل كثير غيره من الباحثين .

تناول المؤلف في هذا الباب الاول اوضاع الاسرة المختلفة في فصول متعددة ، كالزواج ، وانعقاده ، والاكراه ، وقصر الزوجين ، والانعكاسات الاجتماعية الناشئة عنها ، وابراز شخصية المرأة ، والخلافات الزوجية ، وسعي المرأة لاسترداد حريتها ، وبدايات الزواج في الشريعة الاسلامية ، والطلاق ، والمرأة بين ابيها وزوجها ، ومالا ترضاه المرأة ، واساءة معاملتها وعقرها ، وعنة الرجل ، وضرائرها ، وبيت حميها ثم بحث في الحياة الاقتصادية للاسرة ، والخلافات المالية بين الازواج ، وتفكك الاسرة بسببها . ووضع الصحة بالنسبة اليها ، وحقوقها حين طلاقها ، ومهرها وجهازها ، وماسماه : المودة الخائبة . كذلك بحث في الفصل الاول بين اموال الزوجين ، وتضاؤل المرأة في الحياة الاقتصادية المنطلقة ، والمرأة في المجتمع . وعقد فصلا خاصا موضوعه : المرأة حامية الاسلام ، وقوة المقاومة ضد الاستعمار ، ثم بحث الحضانة ومشكلاتها ، في الحضر وفي البادية ، واعقبها ببحث الوصاية ومايرافقها . ولم يهمل بحث الاسرة وتحولاتها الفعلية ، وختم هذا الباب بدراسة عن الاوقاف ، وعن اثرها في تجميد اموال الاسرة أو في بعثرتها . ولعلنا نوفق الى تلخيص بقية ابواب الكتاب في مقالات آتية .

مقدمة الكتاب(*)

للمستشرق جاك بيرك
ترجمة : المحامي نجاة قصاب حسن

اذا كان صحيحا ان تحرير البلاد التي كانت مستعمرة فيما مضى يعطي العالم وجها جديدا لا تزال في اول الطريق الى اكتشافه ، فان دراسة الوجه الماضي ـ ذلك الذي كانت الامبراطوريات تضفيه على الكثير من الاقطار والمجتمعات واساليب السلوك ـ تتطلب اهتماما يتناسب واتساع التجديد . وعلى ان تحرير المستعمرات ، المرتبط بماض اقدم من الامبريالية ، يجاوز الامبريالية مجاوزة واسعة من حيث المدى والخطورة ، فان دراسة هذين الحادثين المتشابكين ، في ترابطهما ، هي وحدها التي تلقي عليهما ضوءا لا يتاح لمن يدرسهما مفترقين . واذن وفي هذا الوقت الذي تجري فيه التبديلات الكبرى التي تلم الشعب الجزائري في علاقاته مع فرنسا ، ومع ذاته ، ومع سائر العالم ، نرى من المفيد ان يأتي كتاب كذلك الذي وضعه ج . ب شارنيه فيجعل هدفه دراسة المرحلة الحادثة في الظاهر او المستوية التي سادت في الجزائر منذ اوائل القرن حتى اعقاب الحرب العالمية الثانية

ان يكون التعصب قد تعالى في هذه المرحلة التي تلاشت تصريحات الولاء والمراكز الربيحة والتباهي الرسمية ، وان تكون القوى الخفية قد تعاظمت والحاكمون عنها في جهل وغفلة ، وان تكون علاقات القوى بين هذا الشعب والمسيطرين عليه ، بين السلطة التي تحكم في نطاق مغلق والدفاع سائر العالم ، قد تبدلت تدريجا حتى مالت الكفة ميلا حاسما الى جانب الحرية، كل هذا نعرفه اكبر المعرفة .وسيغرينا هذا بأن نعود الى الحقبة المنقضية لنتأمل فيها ببصيرة دقتنا ثمنها غاليا . على انه لابد للمؤرخ ، ليتجنب الوقوع في هذا الشرك ، من ان يعالج الموضوع بالكثير من النعومة . لابد له من تصحيح مؤلفات المؤرخين السابقين بقدر ما حل الحاضر من تكذيب لما كانوا يزعمون ، فلقد

* ـ كتاب (الحياة الاسلامية في الجزائر)

أوغلوا في تلك الحقبة حتى خيل اليهم انهم قد بلغوا كنهها .

على ان المؤرخ يجد نفسه هو الآخر امام اخطار يمكن ان يقع فيها ، كأن يعطي دروساً يستوحيها دون ان يعلم – كما فعل السابقون الذين يتقدم – من الحوادث التي وقعت ، او ان ينظر الى هذه الأمور نظرة لا تمتاز بالافق الواسع ، فيفاجأ او يرجع عما كان رآه . والحق ان دراسة الأمور بعد تمامها تمتاز عن دراستها قبل وقوعها ، وانها اقدر على استخلاص الدروس من الحوادث حين تتضح الاوضاع وتبلغ مرحلة الحل والنتيجة ، وان هذه الدراسة تستطيع ان ترى في الوضع الاستعماري – بين مجموعة العوامل التي كانت من قبل غامضة وتفسر بما لكثير من الاحتمالات – معناه والبهم الذي يوضح اتجاهه .

على ان هذه الاحتمالات قد تبين انها كانت كلها خاطئة الا واحدا كان الاقلون يعزونه فيما مضى والاقلون يجرأون على الاعتراف بـه ، وهو الاستقلال .

ان تحرير المغرب يدخل في وضع شامل ، واخلاقي ، نجد فيه صورة التغير العالمي تبدو بمزيد من الوضوح كل يوم . ولذلك فالصواب كل الصواب ، والأمر الذي لا مفر منه ، هو ان نبحث في وثائق هذا الماضي القريب الذي ذهب الى غير رجعة ، عن دلائل اقتراب هذا التغير . ولكن علينا كذلك ، ونحن نبحث في اكداس الحوادث الماضية ، الا نغفي عما كان يكتنفها يومذاك من احتمالات متماسكة .

وانها لدراسة خصبة ومفيدة على مرارتها ، تلك التي تقوم على مقارنة ما نكتشفه اليوم من معاني التاريخ ، بالمعنى الذي كان يتصوره من كانوا يعيشون في تلك الحقبة ، أي مـــا كانوا يتخيلونه أو يفهمونه أو – بصورة اعم – يعيشونه .

وحـــين تأتي الاهداف الخداعة التي ينسبها مجتمع الى نفسه ، او تنسبها اليه – على الاقل – فئاته المسيطرة ، فتتحدث عن القوانين المكتوبة والمنطق والمساواة ، ثم نبحث عن سلامتهـــا العملية في ما تضمه من انظمة وعقود ، وفي ما تستخدمه من المؤسسات الكثيرة ، ومن تستخدمه من الرجال المرهوبين دائماً ولو كانوا محترمين او جديرين بالاحترام ، اقول حين تتجسد هذه الاهداف الاجتماعية في ممارسة حق قضائي ، فان هذا يعطينا بالنسبة لهذا البلد وهذا المجتمع حقلا للدراسة غنياً بما يكشف عنه من دروس .

عكف المؤلف على تتبع احـــكام المحاكم الجزائرية في المواضيع « الاسلامية » ، وكان اكثر ما انصرف اليه اهتمامه احكام مؤسسة فذة هي غرفـــة اعادة النظر في محكمة استئناف الجزائر ، وكانت قد نهضت منذ عام ١٨٩٢ بعبء مشكور هو تثبيت القواعد القضائية . ان اثر مثل هذا البحث في معرفة المجتمع في المستعمرات امر واضح ، ونحن لا نملك بالتالي الا ان نغتبط لهذه المحاولة التي قام بها المؤلف لتفسير هـــذه المجموعة من الوثائق ، واسعفته فيها دراسته الحقوقية وخبرته بالبلاد ، وما يمتاز به الباحث الاجتماعي من قلق وتدقيق ، فأسهمت بذلك في تاريخ الجزائر الاجتماعي اسهاماً يدهشنا ، بل

يؤسفنا ايضاً بعض الاسف ، أن يكون تأخر لم تحس الحاجة اليه كل هذا الوقت .

ثم ان هذه الدراسة تجاوز الحوار التقليدي بين القواعد القانونية والوسط الاجتماعي ـ الاقتصادي ، الى السعي لاكتناه مواقف القضاة والمتقاضين . فهي تنظر الى المنازعات على اعتبارها علامات على التوتر الذي تخلقه الحياة العملية ، وتبحث عن الواقع الجماعي المشترك من خلال المنازعات بين المتشاكين ، وربما من خلال حركة هذه المنازعات . ذلك ان النزاع القضائي بما يفترض فيه من اعتماد على القواعد النظامية ومن التقيد بالشكليات ، وحتى من اعتماد على الادعاءات الفارغة ، ومما يمكن من ارتباطه بالمنازعات الملموسة على المصالح ، فانه يحرك ايضا المنافسة على قضايا النفوذ والشرف ، ويظل فيه دائما شيء متأرجح مجهول النتائج ، بل انه يكشف الستار ايضاً عن اعمق المبررات العاطفية والمادية . واذن ، ففي كل صفحات الكتاب ، سنرى الفرد يبرز بالمزيد من الجلاء وقد نجد ان مبادهة الفرد وحيته اللتين تألفان بسرعة شطارة قواعد الاصول ، تخففان عنه ، الى حد ما ، وطأة نظام يرضخ له اكثر مما يرضاه . ففي كل نزاع نجد عزاء وبحثا عن المخرج ولكن العزلة الاجتماعية والضعف الاقتصادي اللذين يشكو منهما الفرد الجزائري ، واللذين تتضح آثارهما الفاجعة من خلال اضطهاداته ومطالبته بحقوقه ، مما تزيده الايام وضوحا ، كان لابد لهما من ان يسدا الطريق على كل مخرج آخر غير العصيان ، ولم يكن لهما أن يجدا في اللجوء الى القضاء تعويضا حقيقيا ، بل لم يكن هناك أحد ينتظر هذا التعويض الحقيقي من المحاكم .
كان قصارى ما يمكن لهذه المحاكم أن تفعله ، أن تجد حلا عادلا لحالات فردية وذلك بأن تعزلها عن الواقع الاستعماري باعتباره كلا . بل تكون هذه المحاكم سعيدة لو انها استطاعت ـ وكانت تبلغ ذلك في اكثر الاحيان ـ أن تجد هذه الحلول بكفاءة وان تحوز مع الايام شهادة موضوعية وهي ان وجهة نظرها لم تكن نابعة من موقف متحيز ومحدود بحدود الصلاحيات ، بل تنبع من ضمير حي .

والحق ان كل سلطة قضائية تعمل في هذا المجتمع الذي تسوده الزعزعات القاسية ، لايمكن أن تعرف منه الا ماتسمح لها القوانين والاخلاق بمعرفته ، وكل تعليق على اجتهادها ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار قدرتها وحدودها في وقت معا .
ان القضاء الاسلامي الذي مارسته فرنسا كان لابد له من ان يتنازل تنازلا كبيرا عن غنى الواقع الحي ، ومن ان يغلف قوة المصالح ببراقع يفرضها الحياء .

ان هذا التنازل قانون مفروض في مثل هذه الاحوال كما هو مفهوم . شأن الاحكام القضائية فيه شأن كل اساليب التعبير : فلا تستطيع ان تضع صيغة الا اذا حذفت غيرها . بل اكثر من هذا كانت وظيفة هذه الاحكام ان تقوم بوضع المعايير ، أي ان تختار بعض التعبيرات الواقعية بتفضيلها على ماسواها . كل مافيها ، حتى ضرورات وضعها في صيغ ـ وهي في هذا المجال صيغة فرنسية ـ لابد من ان تنتقص او تشوه

النجار الذي يقرع باب المحاكم التي يملؤها ضجيج العمل والشهوات الانسانية. وفي الجزائر كان هذا القانون النوعي يستفحل نتيجة للظروف الخاصة بسلطات ذلك الوقت. **ان وقضية هذه العدالة، بالمعنى الحقوقي للكلمة، هي المحافظة على نظام يراد ولاشك ان يكون عادلا، ولكنه يظل نظام سيطرة.** وتبتعد المؤسسة القضائية عن الحياة ولاتنطق بلغة هذه الحياة الا في الحجرات الخاصة او عن طريق الترجمان. وهي لاتكتفي فقط بأن تنظم هذه الحياة عن طريق اخضاعها لقواعد مقننة، بل ينبغي أن تروضها أيضا لتسيطر عليها، ذلك انها كانت تهضم واذ تتمثل « من يخضع لها لابطريق القمع فقط، ولكن برقابة تلقى في نفس الوقت على الاقتصاد والثقافة والسلوك ولم يكن لهذا العمل ان يمر بدون تشويه وضغط وبالتالي فلم يكن لجهاز العدالة المساعد بد من ان يتخذ بعض سمات الشرطي، فمن « عون » القاضي الى كاتب المحكمة والمحضر، تألفت مجموعة من الموظفين الصغار تنتحل سلطة لاتقتصر على انها سلطة العدالة وحسب، بل هي ايضا سلطة النظام المستبد. وتمارس هذه المجموعة سلطتها على نحو يحس به الناس أقسى مما يحسون به سلطة القضاة وباختصار، ففي البلد العربي البربري الذي لايزال منذ قرون يصبغ الوقائع بصبغة اسلامية ويصبغ الحقوق بالصبغة الافريقية، تضع العدالة نظاماً آخر فوقه، نظاما فرنسيا، بل رومانيا بدون شك من حيث المصادر والاسلوب، واستعماريا بالمعنى الموضوعي بمعنى التطبيق العملي وكان دخول الجزائريين عالم المحاماة في الحدود الضيقة التي يتسامح بها النظام دليلا يدل – بكل مافيه من شبهة – على الاهمية التي يعلقها الجزائريون بحق على القضاء وعلى رغبتهم في الافادة منه بتجريده من سلاحه.

إن هذا الصراع يمكن ان يجد في هذه الوثائق القضائية الماضية بالتأكيد آثار انعدام في المساواة اليم وخطر. وقد نجد في هذا المكان أو ذاك اشارة الى فقدان المساواة في نص يحاول بحق أن يظل في حدود الامانة العلمية ولنكرر هنا، أنه في هذه المرحلة التي يدرسها الكتاب، وعلى الرغم مما كان فيها من انعدام المساواة، ومن وضع جماعة من الناس فوق غيرها بصورة رسمية، كان التنظيم القضائي الفرنسي يدين لقيمته كجهاز، في أن المتقاضين كانوا يتقبلونه نسبيا. وسيظل هذا القضاء قطاعا اكثر بعداً من غيره عن اساءة الاستعمال، واكثر تمتعا من غيره بالثقة. وقد كان الأمر كذلك في بلاد أخرى، وبالنسبة الى انظمة من هذا النوع، كالقضاء المختلط في مصر، ومحاكم الانتداب في الشرق التي كانت الخدمات التي قامت بها والذكريات الايجابية عنها وعن رجالها سبيلا الى نجاتها حتى اليوم من الاستنكار (١). وكم نتمنى أن يجري في هذه المجالات الاخرى تحقيق في مثل

---

(١) قد يكون هذا الرأي صحيحاً فيما يتعلق بالمحاكم المختلطة في مصر، باعتبار ان قضاتها كانوا ينتسبون الى امم مختلفة، فوقع التنافس بينها، لا في ميدان العلم ليس غير، بل في ميدان النزاهة ايضاً. اما المحاكم الناظرة في قضايا الاجانب التي كانت في سورية ولبنان خلال الانتداب، فلها وعليها، وليس هنا مجال بحثها. ـ المترجم ـ

دقة التحقيق الذي اجراه ج . ب شارنيه ليوضح ماتركته من درس تاريخي ومن دلائل اجتماعية. قلت أن هناك قانونا نوعيا يفرض على القضاء نفسه ، وان هناك عيوبا في اسس هذا القضاء . غير أن هذا التعبير لايعطي عن الحقيقة الا فكرة ناقصة ، ولو كان يبرز هذه النقائص والعيوب اكثر من غيرها . فالتطورات الخفية التي يفضحها – ولا اقول يكشفها – قد نشأت في معظمها من الصدمة التي أتت من الخارج وتغلغلت حتى اعمق الاعماق . وقد كان القانون الفرنسي – أو المصوغ على الاسلوب الفرنسي – باعتباره يضم فصلا خاصا بما يسمونه « الحقوق الاسلامية الجزائرية » ، أقوى وسيلة في هذا التغلغل ، باعتبار أنه يمس مساسا مباشرا بقضايا الزواج والمواريث والاملاك ، بالمنازعات على شؤون الجسد وعلى شؤون الارض على حد سواء . ولكنه رغم ذلك ، كان يجد أن جزءا من هذه المنازعات ومن خلوفها يخرج من يده . فصاريف الدعاوي تجعل المدعين يفرون منها ، وعلمانية القانون أو بعده عن الشريعة ينفر منه المؤمن العريق .

لقد كانت تختلج تحت النظام الاستعماري السائد ، حياة بأسرها تقوم على العادات والتقاليد أي على أسس خفية ولا يجهر بها أحد ، وفي معنى معاكس – ولو انه يرتبط ارتباطا ذكيا بالمعنى السالف – كان الاصلاح يبحث خارج نطاق النظام الاستعماري عن الصيغة المعقولة التي تلائمه . اننا غير قادرين ، بعد ، على ان نعرف مقدار مايغير بهذا الشكل – ولو في النطاق العملي على الاقل – من يد المؤسسة الرسمية للقضاء . ولكننا نستطيع ان نؤكد ان الافكار والاعمال التي تجري خارج نطاقها وتحته اكثر واعمق من تلك التي تجري داخل هذا النطاق . وفي هذه المسافة بين مايجري ضمن المؤسسة القضائية وما يجري خارجها ، كان الاندماج الثوري بين العزائم الدفينة وآمال المستقبل يتهيأ ، ومن هذا كان الشعب الجزائري يستمد بقاءه الداخلي ، لابوصفه خارجا عن حدود العقلانية مهانا ، ولا بوصفه معزولا ومجهولا في تلك الايام ، ولا باعتباره منغلقا على نفسه وعلى « الاخرين » الذين كانوا يلقون أنفسهم دونه ، بل بكل ذلك معا مع بحثه عن تاريخ وعن وعي يتبين فيهما ملامحه ، من خلال ماجاء به الاجنبي وضد ماجاء به هذا الاجنبي من هذه المنطقة التي لم يستكشفها العلم الا قليلا سوف تخرج قوى التحرير الرئيسية . ان انتباه الملاحظ وانتباه المواطن ايضا ، قد انحصرا حتى اليوم اكثر مما ينبغي في الفئات الاجتماعية التي كان يجري فيها النشاط ورد الفعل والتعامل . وعلى الانتباه ان يلتفت بعد الان الى هذه الاعماق الداخلية والى الصلات التي تربطها بالمحيط . من كل هذه الاشياء المعقدة لانعرف شيئا ذا بال . ولكن من الملحوظ مع ذلك أن الشهادة التي استطاعت هذه الدراسة أن تستمدها من أقضية المحاكم تجعلنا نرجع اليها في كثير من المواطن . ومهما يكن العمل القضائي ضيق الافق وشكليا ومحدودا فان هذا لايمنعه من أن يمس الحياة بأعنف مصالحها . فهو يكشف اذن ، كما سنرى ، ملامح ثمينة في نظر عالم

الاجتماع والتاريخ . ان هنـــاك توافقـا ـ ولو بـــدا ذلك متناقضا في اول الامر ـ بين المستعمر (بكسر الميم) الذي يعنيه ان يطوق حياة السكان المحليين ويحصرها اكثر مما يعنيه أن ينكرها ، وبين المستعمر (بفتح الميم) الذي يعنيه هو الاخر ان يحافظ على ما في حياته من صفات اصيلة . ومنذ ذلك تنفصم الحياة في المستعمرة الى مستويات بعضها فوق بعض ، بعضها مستقل جدا عن هذه الحياة ، خارج عنها ، ويطبق عليه القانون الفرنسي ، وقسم آخر يزداد تعلقه منها بمقدار ما يزداد النفوذ الاقتصادي الجديد والاخلاق الجديدة ويحلان محل العادات القديمة ، وبعضها اخيراً يدخل في نطاق الحياة المحلية دخولا قويا وتعيش فيه باستمرار رموز الانسان الجريح : الايمان ، والقبة ، والاخلاق العائلية ، ولكن كل هذه المستويات من اكثرها قربا الى السطح الى ابعدها توغلا في الاعماق تنكشف في المنازعات التي تصل الى القضاء ، تبعا لخطورتها ونوعها . ومن هنا كانت اهمية البحث في الاحكام القضائية . وانا لنلاحظ في نطاق العلاقة بين المعايير والانظمة نتيجة مزدوجة : فأولا ، ان كلا من القانونين الفرنسي والاسلامي يضعف الاخر ، والنظام الاستعماري ينتقص في نفس الوقت — ولو بصورة غير متساوية — من النظامين المترافقين . ومن الواضح ان الجزائريين هم الذين يتلقون اقسى الضربات في حين ان ما يصيب المستعمر اقل ظهوراً ولو كانت نتيجته ستكون مشؤومة عليه في النهاية ومن ناحية ثانية ينتج هذا النظام الحقوقي الخليط تبديلات في العقلية والسلوك ، ويترك نوعا من

التمازج الثقافي غير المتكافىء . ان الاتصالات ظلت ممكنة بين الافراد في ظل هذا النظام من علاقات القوى وتناقضها ، ولكن الجماعات والمجتمعات والانظمة الحقوقية تبقى غير شفافة بعضها حيال بعض ، وهو امر حكم على النظـــام الاستعماري بالزوال بعد حين .

. . .

هذا التطور الذي له مستويات متعددة وتفككه بصوره واضحة ، لم يكن يكتفي بتحريك العلاقات المادية والصلات البسيطة بين الاسباب والنتائج ، بل كانت تلمح فيه بداية لعبة الحكم والتكيف . فالحـــالات الواقعية التي تزول تصبح رموزا ، والرموز المنتصرة تحاول ان تتجسد . ان هذه اللعبة سواء انشأت من القضية الفردية او من القضية الجماعية ، هذه اللعبة المعقدة التي قوامها التعويضات والقضاء ، ترتدي الطابع الشرقي واللغة التي يعبر عنها هذا الطابع من قيمه السامية الى منحدراته الواقعية . وبهذا تفسر الدور الذي يتمتع به الحاكم الشرعي — القاضي — بصورة عامة ، والاعتبار الذي يتمتع به الفقه وما يتصف به من الأثرة الحنين الى الماضي رغم محنته ، وهذا هو السر الذي جعل الحقوق الاسلامية الجزائرية تعيش لا في نطاق الوضع الاستثنائي الذي يدحرها اليه التشريع المسيطر ، ولكن في تحفظ المواطنين في سلوكهم وفي اعماق المجتمع الخفية التي سيخرج منها التحرر . نحق بعد هذا ان يتقلب الوضع ، وان تتأكل هذه الاعماق الجزائرية وما يتكون فيها ، والتي كانت لاتزال موجودة كقيمة ، ان تتأكد كواقع ، اي ان تنفتح على سائر العالم .

قلت ان الفقه لم يكن يبدو ، تحت النظام الاستعماري ، الا كفصل في القانون الفرنسي ، وقد يكون الاصح ان نقول : كفصل من عملنا القضائي . لقد كان هذا الفقه يدخل في القانون كاجزاء مبعثرة ، كالحجارة التي يعاد استعمالها في بناء جديد . وكما ان مسجد القيروان استخدم الاعمدة الرومانية ، واستخدم رؤوس الاعمدة الكورنثية في حمل مجموعة قبابه الشرقية ، فكذلك كان النظام الفرنسي يجمع ـ في اتجاهه ـ عناصر مستمدة من الشريعة . ومن الطبيعي انه كان يشوهها وينتقص منها . فقد حولها من حقوق قائمة على الفلسفة والنقاش حيث المبارزة تجري وفقا لقواعد خلقية او منطقية دون ان ترتبط باي شيء ايجابي، الى مجموعة متفككة من الاحكام بل من الوصفات . لقد كان يطمح الى تقنينها بوضع التراث القديم والتشريع الحديث على نفس المستوى . وحين ازال منها اسباب وجودها وعلته ، اخذ يلخصها ـ ببراعة ـ ولكن من اجل ان يدخلها في تركيبه الخاص به ، وكان بذلك يفتتها ويقلل من قيمتها . كان القانون يرمي الى ان يجمد في مواد كل ما لم يكن من قبل الا لحظة من الجدلية القضائية . ولكنه حين اعجزه ـ او لم يشأ ـ ان يحقق في التعامل والاهداف كل ما كانت القاعدة الاسلامية تحرص عليه من اشياء يصعب ضغطها وتمثلها على ما يريد ، وما فيها من اشياء غرابتها محترمة ، اسهم القانون في تحويلها الى رموز . ان تعليقات الشيخ بن باديس التي تمجد الشريعة المتروكة وتحاول ان تظهر كل ما فيها من قوة عقلانية ومن اثارة اخلاقية واسعة تبدو لنا كمقابل لقانون موران ، وهو امر له مغزاه .

وبالتالي فان كتاب شارنيه يعودنا الى القضايا الكبرى التي يطرحها تحرير المستعمرات ، والتي لا يمكن ان يوضحها لنا الا البحث السابق عن التأثير الاستعماري ، فالى اي مدى على الارض ، وفي المجتمع والنفسية ، بلغت اعمال المتدخلين والردود التي اثارتها هذه الاعمال ؟ وما هي النتائج التي نستقرئها بذكاء والتطورات الخاصة التي تجري في المناطق التي لاتزال مستعمرة؟ وما هي الروابط ـ في المصير او التعبير ـ التي كانت تربط ما في الداخل بما في الخارج ؟

لا ريب في ان نظامنا القضائي كان يسود في الجزائر قسما هاما من الحياة المدنية والحياة الاقتصادية . فالحقوق العقارية التي تساندها الاساليب الادارية في التحديد او « التحقيق عن الحصص » كانت تسود كل الجانب الذى ينجم عن علاقة هؤلاء الناس بارضهم . ولكن هل كان هذا النظام يؤثر خارج نطاق المنازعات ام يظل في حدود ما يعرض عليه يوما بعد يوم ؟ والى اى حد كان هذا النظام يصل الى التراث الشعبي ، والعادات ، و « الشريعة السابقة » اذا استعملنا تعبير لويس جرنية ، التي كانت تسيطر بصورة واسعة على كل تصرفات المجتمع ولا سيما المجتمع الريفي ؟

وبالمقابل ، ألم يكن هناك خارج هذه « الحقوق الاسلامية الجزائرية » مناطق لاتزال تعيش في التصرف او المشاعر الروحية ،

ومناسبات حياتية لاتزال تسود فيها قواعد الفقه الاصيلة ان لم يكن بالحرف ففي الروح ؟

واذا كانت « الحقوق الاسلامية الجزائرية » تمارس اداريا وتنشأ عن النظام الاستعماري ، ألم يكن الفقه يستمر ، في ظل هذا النظام وضده ، في سيطرته المديدة على المجتمعات الافريقية الشمالية بألف سنة من الاسلام المغربي او الاسلام في منطقة البحر الابيض المتوسط ؟ من الحق اننا نجد في هذا الاسلام آثارا يونانية ورومانية ، وبالتالي ، وفي بعض النواحي ، قانون نابوليون (١). والمساهمة القضائية الفرنسية رغم انها اثرت بشكل مشوه ومشوه ، قد استطاعت ان تقتح طرقاً ملائمة لثقافات غربية ، او لاعادة اكتشاف اشياء قديمة . ان التكنيك القضائي الفرنسي وهو اكثر جدة ، وصلابة بالتطبيق المادي ، والمثل الاعلى العقلاني الذي يرمي اليه كما يرمي اليه الفقه دون ان يدري ، قد غرسته — وربما كان ذلك على نحو اعمق مما تصوره الناقشة الاستعمارية ومما كانت تصوره اهدافه نفسها — في الضمير المغربي . ليس موضوع الكتاب ، كما سبق ان قلت ، ان يكشف بنظرة عائدة الى الوراء اساءة الاستعمال التي تضمنها تاريخ ثمله التقادم . ان هذا التقادم نفسه الذي يهدى عواطف المواطن ويسمح بالدراسة يتيح لنا ان نميز الايجابي من السلبي : الايجابي الذي سيظهر بمزيد من الجلاء الان ، بعد ان مسح الاستقلال بواسطة الاصلاح الزراعي آثار طرد الجزائري من ارضه ، وبذلك يمكن لمساهمة القضاء الفرنسي ان تظهر جسيمة . فلا يعود مجرد تنظيم ابقاه الاستقلال في مكانه مع قسم كبير من التشريع بل يمتد كذلك بلا ريب ، الى عدد كبير من الافكار والاعمال والاخلاق سيأتي يوم تحصى فيه . ويومها سنعرف ما الذي سيبقى مستمراً من هذا العمل القضائي في النطاق الجزائري ، والمغربي بوجه اعم .

بين هذا الاسهام والاسهام الشرقي يبقى الاسهام القضائي مسلحا بعصريته ، والاخر مسلحا باصالته ، الاول مستندا الى قيام الحضارة الصناعية والاخر محافظاً ، رغم كل ماتبناه ، ومستنداً الى القيم الروحية . اية خليطة سيكون منهما ؟ وبالاحرى ، أليست جزائر الغد بهضمها وتمثلها كل ماجاءها من مساهمات ، وبتركها خصومات الماضي ، ستدهش في هذا الميدان كما في غيره ، بناء ذاتها او ابتداع هذه الذات ؟

•

(١) قد يكون في قانون نابليون أثر من الشريعة الاسلامية — المترجم

في الصحافة الادبية الاجنبية

يقدمها حسام الخطيب

علم السياسة الحيوية

(العلم والاخلاق والسياسة العامة)

نشرت مجلة (يال ريفيو Yale Review)، في عدد الخريف ١٩٦٤ مقالا للندلتون كالدول Lynton Caldwell بعنوان : علم السياسة الحيوية Biopolitics ويحوي المقال اموراً جديدة وخطيرة ، سنحاول فيما يلي ان نورد له تلخيصاً ملماً بأفكاره الرئيسيه :

علم السياسة الحيوية علم جديد تنبأ به . ج. ب . ميلر J . P . Miller وعرفه بأنه: **العلم المختص باثبات ان مايجب عمله لاسباب سياسية ، لا بشكل من الناحية البيولوجية ، خطراً على العرق البشري .**

وفي عام ١٩٦٣ نشر ميلر على عمود في الصفحة الاولى من (نيويورك هيرالد تريبون) وصفاً خياليا لهذا العلم الجديد تضمن مقابلة صحفية متخيلة تجري في المستقبل مع احد المختصين بهذا العلم عام ١٩٧١، في اعقاب انهيار اتفاقية الغاء التجارب الذرية وتسابق الدول الى التفجير الذري الخطير .. ومن اجل منع الهلع الشعبي والمظاهرات المعادية للدولة يتقدم المسؤولون عن السياسة الحيوية ليبرهنوا علمياً ان التقديرات السابقة لتحمل الناس للاشعاع الذري والاخطار

الجانبية الناجمة عن التجارب الذرية ، بما في ذلك (سترونيوم ٩٠) هذه التقديرات كانت ادنى بكثير من قدرة احتمال الانسان . . . ويكون لهذا التصريح الرسمي أثر عجيب في تهدئة الناس ، وتعود الثقة العامة الى نصابها .

إن هذا العلم الذي تحتمه مطلقاً تفرضه طبيعة المشكلات التي يواجهها العالم من جراء التقدم البيولوجي والتكنيكي ، وليس من السهل تقدير مدى الحاجة اليه ، ولكن كل انسان ذي ضمير ينتابه القلق حين يفكر في المشكلات المتصاعدة التي يتطلب لها علم الحياة (البيولوجيا) حلاً سياسياً ، ومن المؤكد ان علم الحياة يدخل في السياسة بنسب متزايدة ، وهذا يعني بالضرورة مزيداً من دخول السياسة في علم الحياة .

إن العالم والسياسي والفيلسوف كل منهم يواجه بمسألة مهمة وهي : كيف ان وجود الفعل السياسي لعلم حياة متجدد ممتد سيكون لها عند التطبيق تأثير في سعادة الجماعة ومصلحتها ، وفي احوالنا السياسية الحيوية (Biopolitical) الحاضرة ضرورات ملحة تكرهنا على التوفيق بين القيم الاخلاقية والحقائق العلمية في السياسة العامة التي تشمل فيما تشمل الطبيعة البيولوجية للانسان .

وإذاً فالسياسة الحيوية (الحيا سياسية Biopolitics) ، ولو أنها ليست تصحيحاً لعلم معين ، تظل قطعة مفيدة من الاختزال تعمل على توجيه جهود سياسية للتوفيق بين الحقائق البيولوجية والقيم العامة ، ولا سيما القيم الاخلاقية في تشكيل السياسات العامة ، والقضايا (الحيا سياسية Biopolitical) تميل الى التوزع في مجموعتين عامتين تختلفان اختلافاً رئيسياً في عمومية ومباشرة تأثيرتها :

ويمكن أن يطلق على المجموعة الاولى اسم (المجموعة البيئية) والقضايا من هذا النوع تنجم حين تتردى البيئات نتيجة لعمل انساني متعمد أو غير متعمد . وأشد هذه القضايا مأساوية انتشار الاشعاع الذري او السموم الكيميائية ، وعندما تفشو هذه الامور في البيئة وتصبح خطراً على الصحة العامة ومثار ذعر وهلع بين الناس يمكن أن يتدخل علم (الحياسياسة) ويجري توفيقاً بين حقائق العلم ومتطلبات السلامة النفسية للبيئة .

اما المجموعة الثانية من القضايا الحياسياسية فيغلب عليها نوعياً وبشكل مباشر **الطابع الفيزيولوجي** اكثر من الطابع البيئي ، مثال ذلك استخدام التبغ والمهدئات والمخدرات والكحول وما يمت ذلك من الضبط الكيماحيوي Biochemical للشخصية ، وهناك قضايا أوثق اتصالا بالفرد رغم انها ذات اهمية عظمى بالنسبة للمجموع ، مثل مسألة التكاثر وما له من تأثير في سكان المستقبل كيفاً وكماً ، يضاف الى ذلك أن الاخلاق والبيولوجيا تعنى عناية متبادلة بالقضية السياسية الخاصة بالمسؤولية العامة عن الصحة العامة والعناية الطبية ، واخيرا ربما كانت الصلات بين البيولوجيا والسياسة والاخلاق واضحة اشد الوضوح في الحرب البيولوجية .

ومن المهم أن نشير الى أن المسائل الحياسياسية

ـ ولاسيما المسائل الكبرى منها ـ تتخذ بشكل متزايد نطاقاً قومياً فدولياً ، بل شاملاً للكرة الارضية فيطابعه .. وان قصور الآليات السياسية المتعارفة في معالجة مسائل عصر البيولوجيا الجديد يبدو واضحاً جداً في المحيطات التي ربما نشأت الحياة عنها ، والمحيطات التي يأخذ منها الانسان باستمرار مقومات حياته ، وبقيام الجماهير على طرح الفضلات الصناعية والبيولوجية في الانهار والبحيرات ومياه الشواطئ، قد أفسد وأتلف مصادر هامة للتموين والانتاج الغذائي . وقد جاء في تقرير لدائرة الصحة العامة في الولايات المتحدة أن مبيد الحشرات . د.د.ت قد غزا بطريقة غامضة ، البيئات المائية في العالم ، وهو موجود بنسب كبيرة لدرجة مفزعة في دسم وزيت الاسماك المصطادة من أعماق البحار .

على أن أهم القضايا الحياسياسية تتعلــق بنمو الانسان نفسه . وان توافق التفجر السكاني في العالم مع المعرفة البيولوجية يمكن أن يمثل أهم مرحلة حاسمة في نمو الانسان منذ العصر الجليدي العظيم ، وضرورة مراقبة عدد السكان المقبل والصفات الجنسية للمواليد ، والتمكن من هذه المراقبة ، كفيلان بأن يخلقا وضعاً ليس له سابقة في تاريخ الانسانية ، وهذه القضايا تدعو بالضرورة الى التهيؤ لمواجهتها ومحاولة لوضــع نظريات ترصدها ، وقدرة على اقناع الناس بأنجح الأساليب لمعالجتها ، وكل ذلك يدخل في نطــاق العلم الجديد (الحياسياسة) . وفي صلب هذه القضايا يجد المرء العناصر المألوفة : الحقيقة والقيمة ، العلم والتقليد ، المعرفة والعمل ،

واذا ازداد تسارع المجتمع في اتجاهه الى عصر البيولوجيا فلنا أن نسأل : كيف تستطيع القيادة الشعبية ، العلمية والتربوية والسياسية ، أن تقيم جسراً بين واقع التصورات الشعبية وواقــع الحقائق العلمية ؟

إن هناك تفرقة بين العلوم البيولوجية والسياسات العامة ، والمصادر الحالية قاصرة عن سداد هذه الثغرة وان عملية بناء جسر أقوى فعالية بين العلم والمجتمع تعودنا الى طرح أربعة عناصر اساسية هي :

أولاً : التصور السائد لعلاقة الانسان بالطبيعة

ثانياً : معنى العلم كما يفسره التعليم الشكلي

ثالثاً : الصلة بين العلماء وصانعي السياسة

رابعاً: القيادة المتجهة نحو إيجاد تركيب من المعرفة العلمية والقيم الخلقية. وللتعليم دور رئيسي في علم الحياسياسة ، لأنه وسيلة صقل الجماهير وتوجيهها نحو المصالحة بين المعتقدات الشعبية والحقائق العلمية ، والوسائل التعليمية الحاضرة أعجز من أن تفي بمتطلبات هذا العلم الجديد ، واذا وضع هــذا العجز في إطــار العجز

العـــام للتعليم في المجالات المختلفة تبين لنـــا أنه يستحق الافضلية في المعالجة لأنه يتعلق بالعلم الذي يبحث في دور العلم في المجتمع ، ولقد دفعنـا حتى الآن ثمناً من أموالنا وصحتنا وسعادتنـا بسبب اهمالنا النسبي بهذا الموضوع ، ودخلنا ، دون اعداد كاف ، في تجربة حاسمة لمقدرتنـا على تجنب الوقوع ضحايا لما يتمخض عنه ذكاؤنا ،وليس من سبيل لتجنب هذه النهاية الابدراسة (الحياسياسه) Biopolitics مـــع ما تتطلبه من مزج غير عادي بين الفهم والجرأة والتواضع .

علم العلم

أية دراسة ـ ترى ـ يمكن أن تحيط بتطور العلم الحديث ؟

لقد اصبح العلم الحديث على درجة من التطور والتعقيد لاتسمح له بأن يسير دون أن يعي ذاته ويقوم خطواته ويسلط اضواء النقد على مايأتي به من مردود .

ومنذ خمس وعشرين سنة ، حاول العالم الفيزيائي البريطـــاني برنال Bernal أن يطرح جانباً من الاسئلة التي تحاول الكشف عن ذات العلم وتقدير قيمته الجوهرية فكان كتابه المشهور « الوظيفة الاجتماعية للعلم Social Function of Science » .

وفي ذلك الحين كان علم الفيزياء يمثل ارفع درجات التخصص العلمي ، وقد حاول برنال ان يمد جسراً مابين المختبر والمجتمع ، وكان كتابه مرجعاً مهماً في أيامه ، أما الآن فقد تغيرت خارطة العلم وتشعبت فروع الاختصاص ، واصبح برنال يذكر بين حين وآخر من قبل زميل وفي أو تمجيد بار ، كما فعل السيد شارلز سنو Charles Snow الذي حاول ان يلقي بعض الاضواء على حياة برنال في مقدمة مجموعة المقالات التي نشرت تحت اسم (علم العلم The Science of Science) وقصد بها أن تكون تخليداً لذكرى برنال .

ويحق للمرء أن يتساءل : ماذا يقصد بهـــذه العبارة : (علم العلم) ؟

ان السيد سنو في تعليق له على كتاب (علم العلم) في مجلة نيو ستيتسمن New Statesman يقول :

إن المتخرجين الجدد في كلية العلوم الذين لايشعرون بميل الى فرع خاص من فروع العلم ، يستطيعون أن يختصوا (بعلم العلم) ، وهو نوع جديد من الاختصاص ، يعنى بدراسة خطوات العلم وتطوره وأهدافه ، ويحاول أن يجعل العلم واعياً لنفسه عن طريق التخطيط والنقد .

وقد ناقش الكتاب ، الذين أسهموا في تأليف كتاب (علم العلم) ، المسائل التي أصبحت حادة

جداً في البلاد التي أصابت الحظ الأوفر من التطور العلمي والتقني ، حيث يتوجب على العلم ان يواجه مصيره ويعي ذاته ، لا بسبب المسؤوليات الملقاة على عاتقه فقط ، بل بسبب الصعوبات الناجمة عن ازدياد نموه وحجمه .

ومن أهم هذه الصعوبات ، ازدواج وتكرر الجهود العلمية ، والاخفاق في نظام التنسيق بين الابحاث ، لأن هذا النظام لا يراعي الضخامة العلمية المتضاعفة يوماً بعد يوم ، وكذلك طغيان سيل من المعلومات التافهة ذات القيمة الضئيلة ... على أن هذه الأمور لابد أن توجد لها حلول مناسبة .

وإذا كانت بعض المقالات في هذا الكتاب تبدو مهلهلة بعض الشيء ، فان هناك مقالات أخرى تعج بالحيوية . وان مقالة هادلين Hadlane المختصرة تكاد تكون آخر ما كتبه ، وتعد نموذجاً يحتذى في الوضوح ، وقد تدفع من يقرؤه للمرة الاولى الى ان يحكم أنه استاذ للعبقرية ، وان مناقشته للتطبيقات الاجتماعية لعلم التكوين البشري تدلنا على خطورة التقدم العلمي على تركيب المجتمع ، كما تدلنا على ضرورة التفكير والتمعن العميق قبل الاقدام على التلاعب في عملية الانجاب والتحكم في المواليد وتكوينهم.

واذا صح كلام هادلين ، فالانسانية المقبلة ستواجه مشكلة عسيرة ، من مظاهرها ان الذين سوف يتحكمون بمصائر الناس عن طريق العلم ، او الذين سوف يتمكنون من فهم طبيعة التقدم العلمي الرهيب في المستقبل هم قلة قليلة اما سائر الناس فسوف يظلون متخلفين جدا ، عن متابعة مسيرة العلم المجنحة .

ومن المشكلات التي يتطرق اليها الكتاب العلاقة بين العلم وبين النظام الاجتماعي ، ويقول السيد بيري Pierie ان على العلم نفسه ان يتدخل في طبيعة التركيب الاجتماعي وبغير ذلك لن تستقيم الامور ، وامام العلم مهمة تحقيق العناصر الاساسية اللازمة لحياة الانسان في المجتمع الذي ينبثق عنه العلم ، وفي رأيه أن هذه الحاجات بسيطة مثل الطعام والصحة والا كتفاء الجنسي وطمأنينة الذهن ، والتعليم والراحة ، وتسهيلات الاستمتاع بهذه الراحة .

ولنا ان نسأل الاستاذ بيري .

هل هذه الامور بسيطة كما يقول ؟ أليست مشكلات العالم وازماته وحروبه كلها ناجمة عن التنافس على الاستئثار بهذه العناصر الاساسية ؟

وهل العلم هو الذي ينبغي ان يتولى مهمة تنظيم موارد الناس ام النظام الاجتماعي العادل الذي يكفل تكافؤ الفرص والمساواة للجميع .

براعم

شعر من المغرب لعبد المجيد بن جلون
١٣٨ صفحة من القطع المتوسط

عرض وتحليل : محمد المنتصر الريسوني

تطوان

ماذا من حديث الشعر في المغرب ؟

أجل ، ماذا من حديث الكلمة الطليقة الرفرافة في هذا الجناح الغربي من العالم العربي ؟

حديث الشعر فيه يتشقق ويطول ، ولكن لامناص من إعطاء فكرة تسلط الاضواء الكشافة عن حركته دون انحياز وتزمت .

الشعر هنا ـ في المغرب ـ يقتات على السراب والضياع والفراغ ، فليست هنالك قيم تحدده وتعطيه صفته الحقيقية وصبغته الجوهرية ، وبصريح العبارة : ليست هنالك اتجاهات ادبية تعينه وتضع النقط على الحروف ؛ وآية ذلك أن نتاجنا في هذه الفترة ضحل لاترفده أصالة المعرفة العميقة ، والتجربة الذاتية الحية القادرة التي تزخر بجدية الشعور ، وتدفع الذات المبدعة الى تسلق قمة الروعة الا في القليل النادر والنادر جداً اذا ما استثنينا مجموعة من الشعراء الشباب الذين تأثروا بالتيارات الادبيــة في العالم العربي ، ومجموعة اخرى من الشعراء الكلاسيكيين بعضهم لمت اصداؤهم ، وبعضهم ظل منكمشاً في قوقعته محملاً بمجتر مرارة الوحدة والعزلة التي يرى فيها دنياه السعيدة كالشاعر محمد بن موسى(١) . أما النتاج الباقي فيعتبر من المرتجلات والسطحيات التي لاتدخل في حيز التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية كما تفرضه طبيعة العمل الادبي الاصيل ، ولا نفش اوه ذلك الشاعر الذي قال :

الشعرُ صعبٌ وطويل سلمُه
اذا ارتقى فيه الذي لايعلمُه

(١) سنكتب دراسة عن حياته وشعره .

زلّتْ به الى الحضيض قدمه
يريد أن يعربه فيعجمه

أقول هذا بصراحة عارية عن أثواب النفاق والمراوغة ومن أراد التماس الدليل على ما أذهب اليه فليفزع الى اغلب جرائدنا في صفحاتها الثقافية ومجلاتنا – على كثرتها – التي تطلع علينا بين الفينة والاخرى بنتاج مغربي يعوزه الصقل ويفتقر أشد الافتقار الى القيم الشعورية والتعبيرية والى رصيد من المعرفة ليس الهين في شتى الميادين اللغوية والنحوية والاسلوبية ونحن نعزو هذا بادىء ذي بدء الى المسؤولين على هذه المجلات والجرائد .

وما أصدرته من حكم على أدبنا بل على شعرنا خاصة قد يغضب بعض طلاب الادب الى سماع مثل هذا التعبير ، وقد يذكي الهمم ويثير في أنفسهم جذوات من التعصب المقيت ، بيد ان الحق فوق الجميع وفوق كل الاعتبارات فللدولة الباطل – كما يقولون – ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة ، فليثر من يثور وليشمئز من يشمئز مادمنا نتحرى الصواب ونتوخى طريقة السداد ، وما دام الواقع الصارخ شاهداً عدلاً يقطع دابر الشك .

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن شعرنا ان ننوه ببعض شبابنا الطموح الذين بدأوا يستشرفون آفاقا من الثقافة رحبة واسعة تتمثل في رواد الشعر العربي الحديث أمثال نزار قباني ، وصلاح عبد الصبور ، ونازك الملائكة وغيرهم أولئك قد يحقق على يدهم الأمل الرحيب ، والخير كل الخير في المستقبل القريب .

وبين يدي الآن ديوان شعر للشاعر عبد المجيد بن جلون سنقضي معه لحظات زمنية عابرة في ديوانه « براعم » والشاعر عرفناه قصصياً في مجموعته القصصية « وادي الدماء » وفي « الطفولة » وعرفناه كاتباً في كتابه « هذه مراكش » و « مارس استقلالك » ، واليوم يقدم لقراء الضاد ديوانه الذي نظمه في سن مبكر وهو الآن يجاوز عتبة الأربعين ، فشعره ، إذن ، الذي بين أيدينا شعر شاب في ميعة عمره لم تكتمل أداته الفنية ، ولم تصهره التجارب الحياتية ، ولعل ذلك هو السبب الذي دفعه الى ان يسمي ديوانه بـ « براعم » ، ومن اجل هذا سنأخذ شعره على علاته من غير ان نطيل الوقفة إزاء الوقفة ، ومن غير ان نقسو في الانتقاد ونشتد في الجرح والتعديل ، وحسب ماتثيره في الذهن لفظة « براعم » .

ونقطة ينبغي الاشارة اليها هي ان ابن جلون ليس شاعراً كما توحي به هذه الكلمة المطلقة بقدر ماهو قصصي بارع يجيد كتابة القصة وليس لدي ادنى شك في انه هو بدوره لايجد غضاضة من الاعتراف بهذه الحقيقة .

. . .

يستهل الاستاذ ديوانه بقصيدة (الطبيعة) ويتحدث فيها عن جمال الطبيعة، غير أنها لاتتوفر على صور شعرية بديعة رشيقة ، وانما تحتوي على

افكار نيئة ، لم تنضج نضجها الطبيعي ، فاستمع اليه اذ يقول في مفتتحها :

من لي بكوخ في الخمائل نائي
وسط الطبيعة أمنا الحسناء
بيني وبين العصر بون شاسع
انا في الخمائل وهو في الصحراء
وأيم الوادي واغسل عنده
ماقد تعلق بي من الاحياء
وتكون احضان الطبيعة ملجأي
من عالم الاقسام والاجزاء
الفجر تنضح مهجتي انداؤه
حتى تعود شريفة الاهواء

اية نفحة شعرية في هذه الايات ! ؟ ولست ادري ماذا يقصد الاستاذ بلفظة العصر في البيت الثاني ، أيقصد العصر بسكون الصاد الذي هو الدهر وجمعه عصور أم العصر بفتح الصاد وهو الغبار . فاذا كانت الثانية فسينكسر الوزن ويبدل السكون حركة ، وذلك مما يحدث اضطرابا موسيقيا تنبو عنه الاذن النغمية ، وكيف ما كان الحال فكلا اللفظتين لامعنى لها ، والحق أقول انني لم افهم البيت ! !

فقصيدة (الطبيعة) مهما يكن لاتمتاز الابالوزن الذي هو بدوره قد يختل ، ولو قام الخليل بن احمد الفراهيدي من رمسه وسئل عنها لاجاب على الفور بأنها من البحر الكامل وبيتها الاول عروضه مقطوعة وضربه مقطوع وذلك مما لم يسمع !

وانظر معي هذه الايات ، وامعن النظر جدياً ثم اصدر الحكم :

والشمس تسكب في فؤادي نورها
فيعود مثل الشمس في اللألاء
أقضي نهاري هائماً متنقلاً
بين الأزاهر حول كوخي النائي
أنا والحبيب ... نظل طول حياتنا
نحيا معاً في هذه الأفياء

أترى جودة وروعة تترجرج في ثنايا هذه الايات ؟! لا ، خيال محدد ضيق ، أفكار ساذجة ، ومعان طفولية ، الشمس تسكب في قلبه نورها فيعود مثل الشمس في تلألئها ثم يقضي النهار هائماً متنقلاً بين الازاهر حول كوخه النائي ويظل وحبيبه معاً طول حياتهما يعيشان في هذه الأفياء !

وأيم الحق لا أجد صوراً موحية ، وخيالاً جديداً مبتكراً ، ومضامين جيدة واضحة الدلالة تشوق القارىء المتعطش الى خلق جميل يتمسس الى النفس في نشوة فتحس بالدبيب التأثري ، فالاستاذ يقتصر فقط على تسطيح الشاعرية !

وهذه الضحالة الفنية التي تتخلل قصيدة (الطبيعة) والبساطة المضمونية التي تتسم بها لاتبعد كثيراً عن قول الذي قال :

---

(١) القطع في الاصطلاح العروضي هو حذف ساكن الوتد المجموع ، ثم تسكين ماقبله مثل متفاعلن تصير متفاعلْ وتنقل الى فَعِلاتُنْ وبدخل هذا في قسم علل النقص .

كأننا والماء من حولنا

قوم جلوس حولهم ماء

وعن قول القائل :

الليل ليل والنهار نهار

والأرض فيها الماء والأشجار

وإذا طاب لنا أن ننتقل الى قصيدة أخرى طالعتنا قصيدة (محمد) ... لاغبار عليها ، يقدم لنا فيها الشاعر حديثاً من رسول البشرية عليه الصلاة والسلام ، وكيف كان الانسان قبل بعثته يتخبط في ليل من الجهل بهيم يخطر في شوق النور ... نور الخلاص من قيود العبودية الجفاء، وأغلال الاستبدادية الرعناء :

اذا خيم الليل فوق القصور

ولم يبق في هذه الأرض نور

وغابت عن الأفق حتى النجوم

ولم يبق في الأرض غير الوجوم

فلا تيأسوا من صباح منير

ولا تيأسوا من إله رحيم

اذا ما استبد الملوك الطغاة

ولم ترتفع همسة بالصلاة

وهانت على الظالمين الدماء

وصار الثرى كافراً بالسماء

فلا ترقبوا غير عدل الاله

إله يرى خلقه أبرياء

وانبثق النور من الحقيقة الأزلية العظمى ليغمر الجزيرة العربية ممدنا بقدوم موكب السلام ليصارع فلول الضلال ويبدد سحب الجهالة :

فها هو ذا النور خلف التلال

يصارع في البيد ليل الضلال

وها هو ذا الفجر في الأفق لاح

رويد رويداً أنار البطاح

وما لاحت الشمس بين الجبال

لدى الأفق حتى ترامى الصباح

ولما بدا الفجر فوق السهول

على عالم سابح في ذهول

هناك انبرى هاتف في الزمان

الى الله يدعو الورى في أمان

تنادوا من الشخص؟ قيل الرسول

فقالوا : وما الصوت : قيل الأذان

ويختمها بقوله :

فيا أيها المنقذ المجتبى

محمد : صوتك مثل الصدى

يشق الى الناس ماضي القرون

ويرشدهم من وراء السنين

فهل أنت مرشدهم للهدى

ليهدوا كما فَعَلَ الأولون

ويرتفع شيئاً ما بمستواه الثمري عندما نقرأ له (نجوى) التي يصور فيها ضياعه المشحون بمرارة الوحشة ، المفعم بضياء الذكرى ، الملىء

بالعياء والتقي بماضٍ بات خيالا وحلماً ، فتنهمس معه همسته الجريحة :

في طريقي المظلم المضطرب
وأنا اقطعه في تعب
مجهد الأنفاس أخفي نصبي
وقف رجلي .. ودارت مقلتي
ورنت لهفة نحو الوراء
بادرتني صورة قديمة
طوقتها هالة سحرية
وبدت لي بسمة نورية
رقصت في الافق وسط الظلمة
انها الذكرى .. بها قلبي استضاء

وصورة شعرية جميلة يرسمها الشاعر في نفس القصيدة ، هي تحدثه عن مكان اللقاء تحت نور القمر او على الشط الظليل المرح المزهر وعطفة الوادي وظل الدوحة غير ان ذلك كل ذلك اضحى حلماً هباء ... أمسى يعيش على الأحلام الممدية :

ملتقانا تحت نور القمر
او على الشط الظليل المزهر
مدخل الروض الذكي النضر
عطفة الوادي وظل الدوحة
كل هذا بات حلماً وهباء

و (انتهت قصتنا) ، فيها نفحات شعرية ترقرق، تنبىء عن نفس احتوتهـا جراح ، واستولت عليها موجة من حنين ملتهب ، ولهفة محرقة الى غابر ضائع ، فلم يعد في رحاب القلب غير ذكريات صامتـات جارحات موجعات ، انتهى كل شيء ، كل شيء قد انتهى ، بالها من خاتمة مؤلمة حرور ، مهرجان حافل بالاماني صوح فأصبح خراباً يباباً :

وأخيراً ختمت قصتنا . . .
وأخيراً ... صمتت نغمتنا ...
وتلاشت في الدجى ومضتنا
سادنا الصمت الرهيب المطبق
واحتوانا في دياجيه الظلام

. .

لم تعد في القلب الا ذكريات
صامتات جارحات موجعات
محد الحافل بالبهجـة مات
عجباً . . مات البهاء المشرق
وانتهت قصتنا ... يا للختام

فالقصيدة من ألفها الى يائها ابيات محرورة، وحسرات متقدة تظللها سحابة الاسى الممض ، عرف الشاعر كيف يرصف مداميك الكلمات ويساوقها مع الجو اللطيف المتورم مما يشع في المسارح الشعرية ذوباً مسكراً وهو يلهث في الختام محموماً :

أيهـا النجم الذي يرمقني
وأنا أذرع ليـل الزمن

←

ميّ ، أديبة الشرق والعروبة

تأليف محمد عبد الغني حسن
عرض وتحليل عدنان بن ذريل

الأديبة ، والكاتبة العربية (مي زيادة) وجه أدبي ، لسوي ، من الوجوه النيرة ، في النهضة الأدبية العربية الحديثة ، اكسبت حركة الادب ، والفكر ، والاصلاح في الربع الاول من القرن العشرين ، وفي شطر من الربع الثاني منه ، نشاطا ، وحيوية ، وروحا عصرية ، ناهضة ، وربح النثر العربي الحديث ، النثر الفني ، والمقال ، من شاعريتها ، وثاقب فكرها ، نماذج ممتازة ، راقية ، دفعت بحركة التجديد الأدبي ، خطوات الى الامام ، كما دفعت بحركة

→

اهدني في الليل . . أولا تهدني
سرت في الليل ورأس مطرق
أملي خلفي . . وأسعى للامام . .

و (عينان) قصيدة تفيض بالوله اللاهب ، والهيــام المتأجج ، والحنين الفوار الى العينين المليئتين بالمعاني والصفاء المشوب بالهيان ، لونهما يشبه تماماً لون المحيط في زرقته ... فيها الصمت والغنى والشرود ، تجرحــان الفؤاد فهما اذن قاسيتان لا ترحمان ، تشع بالاحلام ، بالهامن عينين .

فيها العمق زاخر بالمعاني
والصفاء المشبوب بالهيان
مثل لون المحيط زرقاوان
فيها الصمت والغنى والشرود
تجرحان الفؤاد . . قاسيتان

• • •

ومضات تشع بالأحلام
ورنو يفيض بالأوهام
خلف جفن مثقل بالهيام
تحسب الجفن قد عراه الهجود
وقضى ليلة بغير منــام

• • •

وما أحب ان اتحدث عن كل قصائد الديوان فلست راغباً في ذلك لضيق المجال ، فهناك أكثر من قصيدة مثل : من انت - الى الجحيم - البحر صلوا للسلام - يانديمي - مضى العام - الارض الدائرة - مات الحب - الشمس في الغروب - التمثال - تحية النيل - عند الفجر - عزاء - طفل شريد - الراقصة وغيرها .

وأود ان انبــه الشاعر الى ان ديوانه لم يخل من بعض الهنات العروضية التي لا تخفى عليه اذا ما راجعها لتصحيحها ، وأعاد النظر فيها .

الاصلاح الاجتماعي في طريق قويم ، نحو التقدم ، والانصاف ..

و (مي) لبنانية الاصل ، مصرية النشأة ، ولدت قبل مطلع هذا القرن ، القرن العشرين بسنوات ، في الناصرة ، في فلسطين ، وتوفيت في مصر ، عام ١٩٤١ ، وقد عرفت في مصر الجرائد ، والمجلات ، بأدبها ، نثرها الفني ، مقالاتها ، دراساتها .. وعلى الخصوص مجلة ـ المحروسة ـ ، التي أسسها في مصر ، والدها الصحفي ، الاديب (الياس زيادة) عندما رحل الى هناك ، كما أسست في مصر ، منتدى أدبياً ، كان مرتاد رجال الفكر ، والأدب ، والصحافة هناك ، لا يتخلفون عنه ، مثل : شبلي شميل ، ويعقوب صروف ، واسماعيل صبري ، وولي الدين يكن ، وحسن المرصفي ، ومصطفى عبد الرزاق ، ومنصور فهمي ، واحمد لطفي السيد ، وطه حسين ، وعباس محمود العقاد .. وغيرهم ..

وقد كانت حياة (مي) مزيجاً من الافراح ، والاتراح ، الأنس والوحدة ، الصحة ، والمرض ، والرحلات ؛ وقـــد قضت الشطر الاخير من حياتها نهب الوساوس ، والآلام ، ونهب الوهن العصبي ، والمرض النفسي ، فأعرضت عن الناس ، وفقدت سيطرتها على اعصابها ، وادخلت مرتين الى المصحات النفسية ، في لبنان ، ومصر ، حتى توفيت وحيدة ، كئيبة ؛ فبكتها اقلام الاصدقاء والعارفين ، الذين كانوا يقدرونها ، ويعطفون عليها في محنتها ؛ كما اقـــام ـ الاتحاد النسائي ـ برئاسة (هدى شعراوي) حفلة تأبين لها في دارة ، شارك فيها الأدباء ، والشعراء ، ورجال الفكر ، فبكوا سجاياها ، وعددوا خدماتها للأدب ، والمجتمع ، والتجديد المصري ، بما في ذلك تحرير المرأة العربية ..

وقد تركت (مي) عدة كتب ، أدبية ، ومترجمة ؛ وعدداً من المقالات لم يجمع في كتاب مستقل ؛ وهي (ازاهير حلم) ، وهو ديوان شعر بالفرنسية ؛ و (سوانح فتاة) ، وهو مجموع كلمات وخطرات في موضوعات مختلفة ؛ و (المساواة) وهو بحث اجتماعي في الطبقات الاجتماعية ، والديمقراطية ، والاشتراكية الثورية والاشتراكية السلمية ، وغيرهـــا ؛ و (كلمات واشارات) وهو في موضوع المرأة ، و (ظلمات وأشعة) ، و (بين المد والجزر) وهما مقالات في موضوعات مختلفة ؛ و (باحثة البادية) ، و (وردة اليازجي) وهما مقالات في النقد الأدبي كتبت المقالات عن (عائشة التيمورية) ، ولم تجمع في كتاب مستقل ؛ كما ترجمت (مي) ثلاث روايات عن اللغات الأجنبية ، هي (رجوع الموجة) ، و (الحب في العذاب) ، و (ابتسامات ودموع) ..

وقد قدم الاستاذ (محمد عبد الغني حسن) ، في كتابه الجديد : ـ مي ، أديبة الشرق والعروبة صورة جامعة ، موفقة عن (مي) ، حياتها ، أدبها ، منتداها ، افكارها .. ومما يذكر ان المؤلف عرف (مي) في اواخر حياتها ، كما القى في حفلة تأبينها قصيدة مؤثرة .. وقد كان كلفه الاستاذ (فؤاد صروف) ، رئيس تحرير المقتطف ، عقب وفاة (مي) ان يجري احاديث

عن (مي) ، مع رجال الفكر ، والأدب ، الذين عرفوا (مي) عن قرب ، مثل مصطفى عبد الرزاق ، وعباس محمود العقاد ، وهدى شعراوي والعلوني الجميل ، ومنصور فهمي ، وابراهيم عبد القادر المازني ، وخليل مطران ، وطه حسين وقد نشرت الاحاديث تباعاً في المقتطف ..

وقد اغرت الاحاديث المؤلف ، بالكتابة عن (مي) ودراسة ادبها ، وخصائصه ، وروحها الشرقية ، وحفاظها على العربية وقوتها الخطابية التي كانت تختلب بها عقول السامعين ، وعواطفهم ومشاركتها لنهضة المرأة العربية حتى لاتتخلف عن المرأة الاوروبية ، وندوتها الادبية — او صالونها — الذي كان ملتقى رجال الفكر ، والادب ، والفن ، وغيرها من الموضوعات في أسلوبها ، وأفكارها ؛ وأنجز البحث ، وأوجزه ، ونشره مع أحاديث الادباء الذين عرفوا (مياً) في كتاب (حياة مي) ، الذي صدر في اوائل عام ١٩٤٢ ؛ وقد ارتأى ، اثر ذلك ، ان يضيف الى كتابه ، فصولا ، ودراسات جديدة عن محنة مي ، وموتها ، والنثر في تأبينها ، وايضاً ادبها ، وتآليفها ، وافكارها .. كما اختار لهـا نماذج من نثرها ، وخطبها ، ورسائلها ؛ وجمع ذلك كله ، فكان منه هذا الكتاب ..

هـذا الكتاب (مي ، اديبة الشرق ، والعروبة) ، اذن ، يضم ثلاثة اقسام ، هي على التتالي : دراسة ادبية في (مي) ، بعنوان ، (دراسات ، وملامح) ، واحاديث الكتاب عن (مي) ، بعنوان ، (احاديث عن مي) ونماذج من ادبها ، بعنوان ، (منتخبات من مي) ، وتضم نماذج من الرسائل ، والخطب ، والمقالات لها .

والكتاب ، بدون شك ، مرجع جامع ، قيم ، وموفق ، يوضح كثيراً من جوانب حياة (مي) ، وأدبها ، ونشاطها ؛ على الخصوص أنه واضح الاسلوب ، سلس الديباجة ، رشيق العبارة ، ينم عن احاطة بالموضوع ، وفهم له .. إلا إننا كنا نود هذه المرة أن يقصر المؤلف كتابه ، على الدراسة الادبية ، والنماذج المختارة ؛ خاصة ، وقسم (احاديث عن مي) سبق ونشر مرات في الصحف ، والكتب ، ومعروف من جمهور الادب .

أمـا الدراسة الادبية فدقيقة ، وجامعة ؛ ولكن جاء بعضها مقتضباً ؛ ذلك انا كنا نطمع ان يتوسع المؤلف في ملامح العصر ، وأحداثه المختلفة ، وأثره في الادب ، والمجتمع ؛ فذلك يعطي فكرة اوضح عن ادب مي ، وقيمته ؛ علاوة أنـه كان باستطاعة المؤلف التوسع في ادب مي ، وأسلوبها ؛ وربطها بأدب العصر ، وتطوره ، مع اظهار ملامح تطور هذا الاسلوب ، وذاك الادب ؛ فذلك امر هام ، وضروري ، اهملـه المؤلف لصفحات لاتكفي في الموضوع ، وأما موضوعات الدراسات الاخرى فممتازة ، وناضجة ، ومن مستوى عال ..

ثمّ مات الليل

شعر من العراق : لشاذل طاقة

١١٦ صفحة من القطع المتوسط

منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت

عرض وتحليل: ماجد صالح السامرائي

شعرنا الحديث ـ وان تنكر له البعض ـ ان هو الا حركة تطور حضاري ، وضرورة لا بد منها في عصر تفجرت فيه الطاقات المبدعة الخلاقة الكامنة في نفس الانسان لتقدم معطياتها لهذا العصر المتفجر الزاخر بالامكانيات الهائلة ..

فالبيت الشعري ظل امداً طويلاً من الزمن سجين نظام رتيب ممل ، يؤسره قيد (العروض) الذي ملك البناء الشعري في القصيدة .. فكان من تبعات ذلك ان عاش اكثر النتاج الشعري في واقع مسطح ، وطاف في بحر من المثالثة ، وانحدر الى تهافت ملحوظ .. فظلت التجارب منهكة خائرة تشد الى واقع عقيم من ابين معالمه الجمود والتحجر والتقوقع والانغلاق .. وكثيراً ما كانت التجارب التي يعيشها الشاعر في قصائده تجارب مقلدة مفتعلة ، بعيدة عن المعاناة والصدق.

في مثل هذا الواقع المتردي ظهرت حركة التجديد ، فكانت ثورة على الشكل والمضمون في القصيدة ، واستطاعت ان تولد قيما ومقاييس جديدة ، فأنقذت القصيدة من الذاتية والسلفية التي كانت تعيش فيها . وكسر شعراؤنا الهندسة الروتينية للقصيدة ، فخرجوا بها من محبسها الذي ظلت رهينة فيه قرون عديدة من الزمن ؛ الى دنيا تموج بالتعابير الموحية الحية ؛ والصور التعبيرية المتدفقة النامية .

وديوان « ثم مات الليل » للشاعر شاذل طاقة واحد من هذه البواكير الشعرية التي تبشر بعطاء خير ، ومستقبل للشعر الحديث زاهر .. فمعظم قصائده تتناول موضوعها بعمق ، وتأخذ الحدث من الجوهر ، وتجسده بشكل حقيقي ، وواضح ، بعيداً عن الثرثرة والتقعر والاسفاف والهلامية التي تطبع نتاج بعض الشعراء المعاصرين ولو ان هناك بعض القصائد التي لم تسجل رصيداً فنياً واضحاً ، او هي لم تبلغ ذروة التكامل في تجربتها . لكن الديوان كما قال عنه ناشره من

الله » اشارة زمن ، ودلالة ثورة تعتمل في نفس الشاعر ، فتشكل عالماً خاصاً يتطلع اليه كل فتى عربي له امنيات وآمال تتقد . »

ان (شاذل طاقة) يربط جذور الحاضر بالماضي ، فيستخدم الأساطير للتعبير عن واقع معاصر مر او يمر بنا ، وهذا الأمر قد درج عليه اغلب شعرائنا المعاصرين ، فلجأوا الى الاساطير البابلية واليونانية الاغريقية للتعبير عن واقع يحيونه او يحياه مجتمعهم . مثال ذلك قصيدة « قابيل في الدهاليز » التي تعبر عن لحظات الم عاشها الانسان ..

في القصيدة رؤيا شعرية واحدة تستمد ابعادها من جو الحدث الكبير الذي ترك في الشاعر ابعاده النفسية والحسية .

يطغى على جو القصيدة طابع الرعب ، وتتمثل فيها مأساة الانسان الذي كان يرى الموت امام عينيه .. الموت بهذه الصورة المرعبة صورة الدهاليز . فيعطينا الشاعر صوراً ممتدة الأبعاد ، متداخلة الايحاء ، تحمل طابع الحزن :

« كفني في البئر المهجوره

ثلج قانٍ ووسادي من حجرٍ

ومن الأغصان المقروره ..

وعظام الأمواتِ

وبقايا الآثارِ

تاريخ أعمى حوليَ ينظر مأساتي

ويعيش الاسطوره !

الربيع تئنُّ بلا مطر

والبوم تحوّم مذعوره

وأخي قابيل يفتّش بين الأطمار

عن سرّ الثوّار

عن سكين يغمدها في قلب الصوره

عن حبلٍ ينفع في شنق القمرِ .. »

ومنها :

« قابيلُ .. ياقابيلُ .. طار الغرابْ ،

ومات هابيلُ .. وجاف التراب !

يونس كان ههنا في المساء

من ههنا جرّوه عبر الهضابْ

ومزّقوا عينيه .. مصّوا الدماء

من قلبه .. حتى استحالوا عواء ... »

فاعتماد الشاعر على الجانب النفسي في الحدث ، ولجوؤه الى الموسيقى التي تشيع فيها رنة الحزن بهدوء ، هما عاملا الاثارة في الشعور والتأثير .. وقد وفق الشاعر في تصوير الحدث ، فلم يلجأ الى التقرير ومجرد سرد الحوادث ، انما اخذ الحدث بأبعاده الانسانية ، وغار في جوه ، فخرج منه وهو يملك المادة الحقيقية لهذه المأساة الرهيبة ... وهذا ما يضفي على القصيدة طابع الحركة ، فلا يدعها تختنق في سكونها . « ولا شك ان تجربة (الموت) تجربة معطاء ، واسعة عميقة ، وقف الشاعر منها « موقفاً صارخاً لان مرارتها » فجرت « فيه الثورة والتمزق والانعتاق » ..

والديوان ككل ، يشكل مجموعة من العواطف الحية ، والمشاعر العميقة المنتزعة من صميم احساس الشاعر ، ومن جاعية الوجدان المرهف . فيها النبض الحي الصادق ، والرعشة الوجدانية الخالصة التي يتداخل فيها الايحاء ، وتتخللها المعاناة الحقيقية ، والرمز الذي يشبع جو القصائد .. ثم الاسطورة التي يعتمدها الشاعر موضوعاً يطرح من خلاله الفكرة التي يريد التعبير عنها .. فاستطاع بوعي وادراك ان يجسد تجاربه ، ويرسم صورها ، ويسجل رصيداً فنياً بين المعالم في مرحلة من مراحل التقدم الحضاري والتطور الفكري في ميدان الفن الاصيل النابع من اعماق الجيل .. جيل المعاناة والقلق المبدع .



ربابة الثورة — تأليف المرحوم علي عبيد — جمع وتقديم سلامة عبيد

هذه مجموعة مختارة من قصائد المجاهد الشاعر المرحوم علي عبيد ، يعاد طبعها للمرة الثانية ، وتشمل هذه المجموعة بالاضافة الى قصائد المجاهد الشاعر عدداً من القصائد لبعض رفاقه في الجهاد والمنافي وهي جميعاً تصور بلهجتها الشعبية وعفويتها مرحلة مشرقة من نضال هذا الشعب الابي ونماذج من تفكيره ومثله في الحياة والوطنية .

دعيت هذه القصائد بـ « ربابة الثورة » لأنها الصدى الأدبي والفني لتلك الثورة التي انطلقت اول ما انطلقت من سفوح الجبـل العربي في معركتي الكفر والمزرعة عام ١٩٢٥ وما عتمت ان امتدت بلهيبها التحرري الى الغوطة وسفوح جبل الشيخ والمناطق الوسطى من سورية . ولما كان ابرز ماتتغنى به هذه القصائد هو الموضوع الأساسي « الثورة السورية الكبرى » عن اسبابها ومراحلها ونتائجها . وما امتازت به من ايمان وبطولة وتضحية ونخوة وصبر وما شابهها من أطماع او وهن ، مشيدا ببطولة المناضلين الاشداء الواسعي الادراك ، منبها ومقرعا لكل متخاذل او متهاون .

الحضارة العربية الاسلامية — تأليف الدكتور احمد شوكت الشطي — دمشق

هذا الكتاب هو مجموعة ابحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة العربيـة الاسلامية والمجتمع العربي .

يقول الدكتور شطي في مقدمته : لقد اجمع الباحثون فينا من دهاقنة التـاريخ والسياسة والاستغراق من طراز لوبون وترند وسانتلي لون ودوزي وطوبني وغيرهم على ان العرب لو استطاعوا ان يجدوا الاسلوب الصالح الموحـد

لكيانهم لكانت جامعات باريز ولندن واكسفورد، بل جامعات الدنيا جميعها في خدمة العرب والعروبة ولكن روح التفرقة التي سيطرت على العرب، اخذت تنخر في ضلوعهم حتى مزقتهم شر ممزق، واني اذ اؤيد اقوال هؤلاء الاعلام ارجو ان يكون في مستقبلنا القريب بدء البناء لرتق الخرق الهائل الذي رآه فينا هؤلاء الافذاذ.

وقد قسم الدكتور الشطي كتابه الى عدة ابواب وهي: تاريخ علم الفيزياء وعلمائه عند العرب — السيمياء والكيمياء — علم النبات عند العرب — علم الحيوان عند العرب — علم الوراثة عند العرب.

اما اجزاء الكتاب الاخرى فقد صدرت على حدة. تعالج ذات الموضوع من زوايا اخرى.

الاصـــالة في الشعر الشعبي العراقي

تأليف جميـــل الجبوري — نشر

وزارة الثقافة والارشاد القومي-بغداد

... وحديث صدق الشعور واصالة العاطفة في الشعر الشعبي العراقي حديث خصب غني معطاء والتراث الذي خلفه الشعراء ضخم بقدر ماهو عميق، كبير بقدر ماهو سام، ومتذوق حديث العامة ولهجتها يجد فيـــه ما قد لايجده متذوق الفصيح في شعر الفحول والنوابغ. ذلك لان فيه ميزة مهمة.. او على وجه الدقة فيه «نكهة» عطرة عبقة قد لانجد نظيرها في الكثير من روائع القصيد الموروث والمعاصر.

فدارسه لا يـكاد يلمس مدى الحرمان ذاك وحسب.. بل انه يكتوي به ويحترق بلهيبه. ان لهثات النفوس الصبة وخفقات القلوب العاشقة وآمال وله المحبين والمتيمين المتاعين تتفعل بصدق أصيل واصالة صادقة في آنية الورد الصحراوي أطر الشعر الشعبي العراقي.

المدار المغلق — شعر جبرا ابراهيم جبرا —

المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر —

بيروت.

يقف جبرا ابراهيم جبرا من الشعر الحديث موقفاً معاصراً. ولئن كان شعره يعتبر من منحى الشعراء الحديثين، على ان لشعر جـــبرا نكهة خاصة تخالف في كثير من مواضعها اتجاهات زملائه.

ويطل ديوانه الجديد «المدار المغلق» على مكنة فنية عالية في مضمار الشعر الحديث، وقـــد ضم الديوان القصائد التالية: البوق — امرأة في عاطفة — نرجس والمرايا — اركضي يامهرتي — يوميات من عام الوباء — غريب على اليمن — هـلاس — عصفور المقيق — دهاليز متوالية شعرية — لعنة بروميثيوس — مارجيروم في بيت لحم — رسالة الى توفيق صايغ — ما بعد الجلجلة.

وقد سبق ان صدر للاستاذ جبرا «صراخ في ليـل طويل — رواية — » وعرق وقصص اخرى» — «تموز في المدينـة» شعر — صيادون في شارع ضيق» رواية بالانكليزية» — هاملت» ترجمة»

نداء الدماء - شعر حسن عبدالله القرشي

نشر دار العلم للملايين ببيروت

عاش وطننا العربي - ولا يزال - معارك نضالية دامية ضد قوى الشر والعدوان ، وقد قدر لهذا الوطن الكريم ان ينتصر في بعض معاركه هذه ، فيزحزح عنه كوابيس الاستعمار .

والشاعر العربي كان لابد ان يتفاعل مع مشكلات وطنه فحمل المشعل لابناء هذا الوطن وسكب الضياء على ضوى الطريق .

ونداء الدماء ، شعر يسير معظمه بطواعية وانفعال مع ركب الوطن العربي الكبير المناضل في سبيل استعادة ماضيه المجيد وتثبيت دعائم حاضره العتيد .. للانطلاق قدما مع القافلة الخبة الحادة السير في طريق الحق والخير والسلام .

وقد صدر لمؤلف هذا الديوان عدة كتب مختلفة في الشعر والقصة والدراسة منها شعراً : البسمات الملونة ، مواكب الذكريات ، الأمس الضائع ، سوزان ، ألحان منتحرة ، ومنها دراسة بعنوان ، فارس بني عبس ، ومنها مجموعة قصصية: انات الساقية ، ومجموعة مقالات وابحاث « شوك وورد »

مع الادب العاملي - دراسة ونقد

علي الزين - بيروت

جل ما في هذا الكتاب من دراسة ونقد وتحليل مصوب الى ما كان يلابس الافكار من أدباء ابناء المنطقة والمثيرة الاقربين حول الادب في جبل عاملة . فالانتقاد للادب العاملي وان كان خاصا في بحثه فهو عام بمقاييسه وموازينه واحكامه ليس للباحث المنصف أن يستخف به او يتسامح في قراءته ودرسه او ينظر اليه كما ينظر الموسوسون — في الادب العاملي — الى كل ماهو اقليمي او قومي من ادب ونقد ، وفن نظرة هازئة اوقانطة او متعالية .

ثم اذا جاز ان يعتبر هذا الادب وهذا النقد من الادب الاقليمي فجدير بمن يعنى بأدب الاشخاص ودرس آثارهم وانتقادها ان يعنى بهذا الادب الاقليمي الصادق في تصويره أو تقليده ، درساً ونقداً وانتقاداً .

وقد جاء هذا الكتاب في دراسته وتحليله مستوفيا الغرض المقصود من وضعه .

محاضرات اسبوع العلم الرابع -

المجلس الاعلى للعلوم

هي مجموعة محاضرات طبعت في خمسة اجزاء ضمت المحاضرات التي القيت في مهرجان اسبوع العلم الرابع لعام ١٩٦٤ .

تناولت هذه المحاضرات في الجزء الاول : الثروات الطبيعية في سورية - المشاكل الصحية - التعليم الزراعي واثره في التنمية الزراعية - تطور وسائل النقل البرية وتأثير هذا التطور على انشاء الطرق .

وفي الجزء الثاني : الطرق الكيميائية الفيزيائية الحديثة في فحص ودراسة عناصر التربة - جهاز لقياس الاشعاع الحراري - العقيق والجزع اليماني - تفاعلات الاوزون مع مركب البيرين -

عرض لبعض مسائل الرياضيات المطبقة ـ الحساب التائي وتطبيقه في الكيمياء .

وفي الجزء الثالث : التهاب الباريطوان الدوري ـ نظرة الى مشاكل التعليم الطبي في سورية ـ حقن الغاز امام العجز ـ المعلومات الاخيرة عن السرطان ـ الولد الاصم وحياته المدرسية ـ الوفيات والاصابات بالسرطان في سورية ـ عقابيل الحول ومعالجتها عند الرضع وعند الاطفال ـ خزع الرغامى ـ عصاب ذي التوائم الثلاثة ـ آراء جديدة في الصبغيات ـ اخطار الفيتامين D في الممارسة الطبية في بلاد الشمس ـ الوقاية في مفهومنا الحاضر .

وفي الجزء الرابع : مقاومة الشد للبيتون ـ انشاء البيتون المسلح ـ التطور في انشاء السكك الحديدية ـ تاريخ تطور الدماغ الالكتروني ـ دراسة وتطور الثروة المائية ـ اهمية الثروة المائية الجوفية في تطوير الاقتصاد السوري .

وفي الجزء الخامس : ملاحظات فنية اقتصادية عن مكافحة حشرات القطن بالطائرات في سورية ـ استعمال الحشرات المفيدة ـ دراسة تجريبية لتأثير بعض المبيدات الحشرية على ذبابة الزيتون ـ حديث عن صناعات اللحوم ومشتقاتها ـ تأثير ميعاد الزراعة على محصول القطن ـ تأمين حاجة البلاد من البذار .

وقد دلت هذه المحاضرات على عمق نظرة اصحابها الى المواضيع التي عالجوها .



- نحو لغة عربية واحدة

الآداب ـ بيروت

- اللهجات المحلية ولغة التعليم في الجزائر

النشرة التربوية ـ الجزائر

- مجلة جديدة باسم « سورية العربية »

دمشق

الآداب ـ بيروت

« نحو لغة عربية واحدة » عنوان المقال الذي نشره محمد محمود عبد الرزاق في العدد الأخير من مجلة الآداب التي تصدر في بيروت . يقول الكاتب « مشكلة الفصحى والعامية من اعقد المشاكل التي تواجه الفنان العربي المعاصر ، واذا كانت قضية « الازدواج اللغوي » هي قضية كل لغة ، فانها لاتوجد في لغة ما بالتأزم والتشابك الظاهر حالياً بالنسبة للغة العربية ، ومغالط من يسمح لنفسه بمحاولة المقارنة بينها وبين أي لغة كائنة من هذه الناحية . فعندنا دول ودويلات عربية كثيرة ، ولكل دولة او دويلة لهجتها العامية الرئيسية .. ولكل دولة اكثر من لهجة واحدة ، ففي مصر ، فضلا عن لهجة القاهرة ، توجد لهجات عدة للصعيد والوجه البحري والصحراء الغربية ولهجات اعراب الواحات تختلف عن لهجات اعراب الفيوم او محافظة الشرقية مثلا ، وبعملية حسابية بسيطة . بضرب عدد الدول والدويلات في عدد اللهجات يكون لدينا اكثر من خمسين لهجة وهو عدد لا نحسد عليه ، بل واحد مسؤولية أزمة التعبير الفني عندنا ، وبعضا من أزمة الفنان وقلقه .

وبعد ان يضرب الكاتب عدة امثال عن لهجات الدول الاجنبية يخلص الى ان لهجات الدول العربية تعتبر اكثر اللهجات تلونا واختلافا . ثم يشير الى ان ثمة محاولات عديدة قامت للتقريب بين الفصحى والعامية واشهر هذه المحاولات تجربة الحكيم في مسرحية « الصفقة » التي كتب حوارها

بألفاظ منتقاة تقرأ بالعامية والفصحى معاً ، ورغم ما يبدو عند النظرة الاولى من ترفيه هذه البدعة، التي ربما ابتدعها الحكيم لمجرد ابتكار اسلوب طريف ، وطريقة جديدة لحل المشكلة . ورغم هذا فاننا نستطيع الوصول معها الى نتائج هامة تحبط الظن بعدم حلها المشكلة لانها لاتذيب احدى اللغتين في الاخرى وانما تؤكد انفصالهما ، وهذا هو عيبها الاول على مايبدو ، والفاصل بينهما يتضح بالقراءة ، الى ان يقول : انها تقارب بين عامية واحدة هي العامية المصرية وبين الفصحى ، وفي ذلك اجحاف بحق العاميات الاخرى وهذا هو العيب الثاني . والذين تتراءى لهم هذه العيوب لم يتعمقوا حقيقة التجربة ، بل تناولوها بنظرة قشرية عجلى ، ولكي نصل الى هذه الحقيقة علينا ان نتساءل : اي عامية يريد توفيق الحكيم ان نكتب بها حواراً يقرأ بالفصحى ؟ وبتركيب آخر للسؤال : من اي عامية نختار فصحانا ؟ هل نفرض على جميع العرب لهجة واحدة ؟ الجواب بالنفي ، لأن في هذا الفرض تضخيماً للمشكلة لا حل لها . لم يبق اذن الا ان يختار كل فنان فصحاه من عاميته ، شامية كانت ام عراقية ام جزائرية.

وبعد أن يسخر الكاتب من الذين يعتقدون بصعوبة ايجاد لغة عربية واحدة يقول : ان العاميات العربية جميعها تتضح من اناء واحد تقرأ في الفصحى، وفي ذلك نصر مؤقت ، ويأتي النصر المؤزر بمضي الوقت أي بعد ان تتجمع لدينا حصيلة ضخمة من الفاظ الفصحى التقطناها من كافة اللهجات وعرضناها على نطاق اوسع من نطاقها المحلي . وعندها سندخل مرحلة جديدة ، مرحلة فرض اللفظة نفسه بنفسه على مختلف الألسنة والاذواق ، ليزوي غيره من الالفاظ المشابهة المتأبية على الالسنة . كل الالسنة ، خجلا في عالم النسيان .

ويختم الكاتب مقاله عارضاً الحل الذي يجب اتباعه فيقول: ان امامنا عملا بطوليا ضخما لايتطلب سوى الاخلاص والعزم .. في نفس الوقت الذي نخوض فيه تجربة الاسلوب الجديد ، علينا ان نقوم بتجربة جبارة لمحو الامية في البلاد العربية جمعاء ، حتى ولو حرمنا قبول الطالب بالجامعة الا بعد تعليمه القراءة والكتابة لمدمعين من الاميين .. حتى ولو ضحينا بغلق الجامعات والمدارس عاما بعد عام وتجنيد طلبتها للمساهمة في هذا العمل القومي المجيد ، فان غلق الجامعات عاما ، خير من غلق العقول اعواما . ان تعلم العامل والفلاح معناه التقاؤنا بجمهورنا الحقيقي الذي نفتقده ، فتصبح كتابتنا لجمهور بعد ان كنا نعتمد على بضعة آلاف من القراء في احسن الظروف تفاؤلا ثم ان هذه الآلاف ليست في الغالب الجمهور الحقيقي الذي ننشد مخاطبته وبغير هذا الجمهور سيواجهنا مصير مظلم ..

وعلينا في نفس الوقت مرة ثانية ان نقوم بتيسير الكتابة وتيسير النحو . فنحن بين اثنتين كما يقول طه حسين : اما ان نيسر علوم اللغة لتحيا . واما ان نحتفظ بها كما هي لتموت .

النشرة التربوية ــ الجزائر

تصدر هذه النشرة وزارة التربية الوطنية في الجزائر وهي تعنى بتقريب اللغة العربية الى اذهان الجماهير الجزائرية وبحوثها تدل على جهد عميق ،

وقد نشرت في افتتاحية عددها رقم « ٨ » الاخير كلمة بعنوان : « اللهجات المحلية ولغة التعليم في الجزائر » ، فأشارت الى ان اللغة الفصحى خير وسيلة يمكن الاستعانة بها للتفاهم بين ابناء الاقطار العربية لو استعملت كلغة حضارة في الاحاديث اليومية ..

ثم قالت : حينما اشرقت شمس الاستقلال وبزغ فجر الحرية على البلاد ، وجد المسؤولون عن التعليم انفسهم امام امر خطير لايمكن تجاهله ، فكان لابد لهم لتخطي هـــذه المرحلة الحرجة من الاستعانة باخواننا المعلمين في البلاد العربية للقيام بمهمة التعليم في كامل انحاء الجمهورية الى جانب اخوانهم الجزائريين الذين تلقوا العلم في الاقطار الشقيقة . وهكذا حضر المعلمون من العراق وسورية والاردن ولبنان والعربية المتحدة الخ ... وبدأوا في عملهم المقدس وفي اداء واجبهم القومي الذي القي على عاتقهم تجاه اخوة لهم في اللغة والدين والتاريخ والمصير .

ولكن ما أن بدأ المعلمون في التعليم ــ وعلى وجه الخصوص في المدارس الابتدائية ــ حتى بانت لنا مشكلة جديدة وهامة معا ، يجب ان نلفت الانظار اليها ، من اجل السعي لايجاد حل لهـــا تكون فائدته للتلميذ الجزائري والمعلم العربي الوافد .

وضربت النشرة مثلا تقول فيه « في العراق مثلا حينما يقول المعلم لتلميذه « ماكو » يدرك تلميذه المعنى وهكذا دواليك في بقية الاقطار الشقيقة في المشرق والمغرب .. اما حين ينتقل المعلم العراقي الى الجزائر او المصري الى المغرب او السوري الى السعودية و « يحمل » معه لهجته الاقليمية او المحلية ويستعملها وسيلة للتعليم يقع العجز في الفهم والادراك فوراً ، وتظهر مساوىء اللهجات المحلية واضحة جلية ، ويصبح المعلم كمن يغني لأصم او كمن يرقص امام اعمى .

وهذا نفسه هو الذي حصل في الجزائر ، فقد « حمل » المعلمون معهم « لهجات اقاليمهم » واستعملوها وسيلة للتدريس في مجتمع له لهجته الاقليمية لايعرف سواها من اللهجات الغريبة عليه . اعتاد أن يستعملها في احاديثه الماشية وغير الماشية ، بالاضافة الى اللغة الفرنسية التي لاتزال ــ ولو موقتا ــ احدى وسائل التعبير في الجزائر هذا بقطع النظر عن ذلك الخليط المضحك من المفردات الفرنسية في جمل غريبة النطق وصعبة الفهم على الوافدين .

وقد اقترحت النشرة حلاً للمشكلة :

١ ــ ان تستعمـــل الفصحى ــ في اغلب الاحايين ــ وسيلة للتعليم .

٢ ــ ان يستعمل المعلم الوافد بعض الكلمات الجزائرية المحلية مثل « ماكان شي ــ ماكاش » بدلا من « ماكو » « مافيش » او « مافي » « كاس » بدلا من « كلاس » او « كباية » وهلم جرا .

٣ ــ من بين الكلمات الجزائرية المحلية ماهو عربي فصيح صحيح مثل كلمة « كأس » السابق ذكرها وكلمة « سروال » و « لابأس » الخ .

هذه بعض الحلول التي نعتقد أنها تساعد على حل مشكلة التعليم بين المعلم العربي الوافد وبين التلميذ الجزائري .

سورية العربية ــ دمشق

صدرت في دمشق مجلة جديدة عن وزارة الاعلام تحمل عنوان « سورية العربية » وهي مجلة توجيهية ، تهتم برصد النشاط الفكري والفني والصناعي والزراعي وبقية القطاعات في سورية ويشترك في تحريرها عدد من الكتاب . وقد صدر عددها الاول بغلاف ملون جميل وطبعت طباعة انيقة .

الفنان

زياد الرومي

- اشترك في عدة معارض محلية قبل ان يدرس الفن دراسة علمية اكاديمية .
- سافر الى القاهرة وانتسب الى كلية الفنون الجميلة (قسم التصوير) وتخرج بدرجة جيد جداً عام ١٩٦٤ .
- كان مشروع البكالوريوس الذي منح على اساسه الشهادة عن الحصاد في الريف السوري .
- اقام معرضه الاول في صالة الفن الحديث العالمي بدمشق منذ شهرين وعرض (٥٠) خمسين لوحة زيتية ودراسات عامة .
- عين بعد تخرجه مدرساً للتربية الفنية في القامشلي .

اللوحة

الفنان زياد واقعي في تجربته الفنية ، مرتبط بالشكل والمضمون الواقعي الى حد بعيد ، ولكنه في بعض اللوحات وخاصة المناظر الطبيعية يحاول ان يحلل المعطيات الطبيعية امامه ويعطيها الشكل البنائي كما يلاحظ في فهمه للاشجار .

الوانه حارة فيها طبيعة شمس الشرق الدافئة .

الخط عنده اساسي وهام .

وهذه اللوحة احدى لوحات دراسته في كلية الفنون الجميلة في القاهرة .



الفنان زياد الرومي   منظر

اخبار ثقافية

احتفالات ثورة آذار

احتفالا بالذكرى الثانية لثورة الثامن من آذار فقد قدمت وزارة الثقافة والارشاد القومي برنامجاً فنيا حافلا ساهمت فرق الوزارة الفنية في احيائه واستمر اسبوعاً منذ ٤/٣/١٩٦٥ حتى غاية ١٠/٣/١٩٦٥ .

فقد قدمت فرقة امية القومية للفنون الشعبية برامج شعبية جديدة مستوحاة من واقع الثورة ونضال الفلاح والطبقة الكادحة .

اما المسرح القومي فقد استمر في عرض مسرحية دون جوان تأليف موليير والتي اخرجها للمسرح اسعد فضة .

وكان للاطفال نصيب في هذه الاحتفالات اذ قدم مسرح العرائس مسرحية سندريلا على مسرح مدرسة ابن زيدون في الميدان .

كما افتتحت المتاحف ابوابها مجانا لمدة اسبوع في جميع المحافظات واتاحت لجميع افراد الشعب رؤية محفوظاتها الاثرية والفنية

اسبوع الفيلم البولوني

كما اقامت الوزارة بهذه المناسبة في صالة سينما الحمراء ابتداء من ١٤ آذار الى ٢٠ منه مهرجانا للافلام البولونية .. الافلام التي عرضت خلال هذا المهرجان هي على التوالي : « فن الحب » و « قطار الليل » و « زوجة لرجل اوسترالي » و « حياة الفنان شوبان » و « الرقيب كالين » و « جواهر ورماد » وكان من ابرز افلام المهرجان فيلما « قطار الليل » و « جواهر ورماد » .

توصيات مؤتمر الادباء العرب الخامس :

عقد مؤتمر الادباء العرب دورته الخامسة في بغداد في الفترة الواقعة بين ١٥ و ٢٥ شباط ، وقد مثل وزارتي الثقافة والتربية والتعليم في هذا المؤتمر على التوالي فؤاد الشايب والدكتور

جودة الركابي اللذين أشارا الى ان المؤتمر كان مناسبة قومية جامعة التقى فيها ادباء العروبة على صعيد من الود والتآخي . وقد حضر المؤتمر بدعوات خاصة ، بعض الادباء والشعراء السوريين ايضا . وكانت القضايا التي طرحت للبحث أمام المؤتمر تتناول دور الادب في معركة التحرير والبناء . وقد توزعت جوانب البحث ست لجان هي : لجنة الادب والثورة ، ولجنة الادب والبناء ولجنة الادب والتراث ، ولجنة الادب وفلسطين ، ولجنة وضع قانون اتحاد الادباء ، ولجنة حقوق التأليف واتحاد الناشرين .

وقد اشترك الوفد السوري في لجان الادب والبناء والادب وفلسطين ولجنة وضع قانون اتحاد الادباء ، كما اسهم في مناقشات اللجان الاخرى .

وكان عمل اللجان في صباح كل يوم متواصلا وخصصت جلسات المساء للمحاضرات العامة التي اشترك فيها الوفد السوري بمحاضرتين الاولى عن الادب والوحدة والثانية عن الادب وفلسطين وكانت أهم التوصيات تدور حول وحدة الوطن العربي الاكبر ، واشتراكيته ، وضرورة عناية الادباء بالقاعدة الشعبية لابقاء الوعي العربي على اوسع نطاق حتى يواجه الشعب العربي مشكلاته بهمة وصدق تأكيدا للكيان العربي الاشتراكي الوحدوي الجديد .

كذلك اهتمت توصيات المؤتمر بقضية فلسطين من جميع النواحي السياسية والفكرية ، والروحية والتاريخية ، الاثرية ، وتأليف معجم شامل البلدان فلسطين وخططها . وترجمة روائع الادب العربي عن فلسطين الى اللغات الاجنبية والعمل على مامن شانه رفع قضية فلسطين الى المنابر العالمية عن طريق الصحافة والاذاعات والتأليف ، ومختلف الوسائل والمجالات . كما عنيت توصيات الادباء بضرورة دراسة المجتمع العربي ومجابهة مشكلاته ، بما يساعد في وضوح الدعوة الى الوحدة والاشتراكية . وبضرورة التأكيد على التراث العربي والاسلامي في بناء الاشتراكية .

ووضع مؤتمر الادباء قانون اتحاد الادباء العرب وألف لجنة لمتابعة تنفيذ التوصيات التي بلغ عددها اكثر من ستين مادة .

وقد حضر المؤتمر بدعوة خاصة من العراق كل من السيدة وداد سكاكيني المحاسني والدكتورة عائشة الرفاعي والاستاذ سليم الزركلي والدكتور شكري فيصل .

محاضرة صالح الخرفي

ألقى الاديب الجزائري صالح الخرفي في المركز الثقافي العربي بدمشق محاضرة عن الشاعر الجزائري محمد العيد « لمحات من المأساة الجزائرية » ..

فتحدث عن شعر الشاعر الكبير محمد العيد في مختلف مراحل حياته ، وتطوره منذ مطلع القرن العشرين ، ومواكبته التجربة الجزائرية السياسية والوطنية .. في ظل الاستعمار الفرنسي ، على الخصوص ، ثم في ظل الثورة الجزائرية ، فالسيادة والحرية والاستقلال ..

وقد كان المحاضر يستشهد في كل حنية من حنايا محاضرته بشعر الشاعر محمد العيد ، وكيف أن الحالة البائسة في ظل الاستعمار دفعته الى الانطواء على نفسه ، ثم النظم في كل مايؤلم النفس من مظاهر الظلم ، والتعسف في ظل الاستعمار ،

وهي هذه الاحوال التي اورثت الشاعر محمد العيد الصوفية الانسانية عنده ، ورغم صوفيته ، كان مع شعبه ، واحداثه الاجتماعية ، والسياسية ، فسجلها ، وسجل انطباعاته بها .. ثم صار الى الفترة الثورية ، فسجلها ايضا في شعر ثوري ، ملتهب ، كما تغنى بالاستقلال ، والحرية ..

وشعره شعر سلفي ، محافظ على الأوزان والقوافي العربية السلفية ، وهو رغم كونه من شعر الشيوخ الفحول ، والمحافظين ... الا انه مليء بالتجديد والصور والتشبيهات الواقعية الحسية وتكثر الصور والاخيلة في شعره ، كما أن جرسه جميل معبر ..

البترول العربي

بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد القومي القى عبد الله الطريقي محاضرة بعنوان « البترول العربي » على مدرج جامعة دمشق ، وحضرها جمهور غفير من المثقفين .

وقد اكد الباحث الطريقي ما للبترول العربي من اهمية في تسيير السياسة الدولية ، واشار الى ان استغلال هذا الكنز كما يجب يجيء في صالح الحركة القومية المتحررة في الوطن العربي وقد عدد المحاضر منابع الزيت في المناطق العربيـــة وما تقدم يوميا من البراميل ، واكد ان البترول العربي له القدرة على منح النصر للامة العربية في اية معركة تخوضها .

تأبين الفنان توفيق الصباغ

دعا وزير الثقافة والارشاد القومي الى حفلة في صالة مسرح ابي خليل القباني لتأبين الفنان المرحوم توفيق الصباغ

وقد كان برنامج الحفلة كما يلي

١ — كلمة وزارة الثقافة والارشاد القومي

٢ — كلمة لجنة التأبين تقدمها امين سر اللجنة سعيد الرومانى

٣ — كلمة لجنة الموسيقا في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

٤ — كلمة مجدي العقيلي : توفيق صباغ وموسيقاه .

٥ — كلمة الدكتور فؤاد رجائي : تاريخ حياة الفقيد ونشأته .

٦ — كلمة ميشيل الله ويردي : عبقريـة الفقيد الفنية

٧ — كلمة حسني كنعان : طرائف ونوادر عن الفقيد

٨ — كلمة نقابة الموسيقيين وقصيدة تقدمها احمد الجندي وقـد تخلل الحفلة اذاعة تسجيلات لبعض مقطوعات الفقيد الموسيقية وعزف مختارات من موسيقاه من قبـل فرقة نقابة الموسيقيين وفرقة المعهد العربي للموسيقا بدمشق التابع لوزارة الثقافة والارشاد القومي .

حلقة التكامل الاجتماعي والفنون

والتوجيه المهني واهمية للتكيف .. عنوان المحاضرة التي القاها نصري ساحوري .

كما اشترك الفنان الايطالي لاراجينا ومحمود حوا في ندوة كان موضوعها : التصوير الحديث .

قصائد حب عربية

يصدر للشاعر نزار قباني في هذا الشهر عن المعهد الثقافي الاسباني ـ العربي في مدريد ديوان

شعر بالاسبانية عنوانه (قصائد حب عربية) (Poemas Amorosos Arabs) يقع في نحو ١٥٠ صفحة ، وقد قدم الكتاب المستشرق الاسباني الاستاذ بدرو مارتينز . . والكتاب عبارة عن مختارات شعرية مأخوذة من جميع دواوين نزار بمعدل خمس قصائد من كل ديوان ، بالاضافة الى بعض القصائد الجديدة التي كتبها عن اسبانيا وفي اسبانيا . .

توينبي والحضارة

القى محي الدين صبحي في المنتدى الاجتماعي بدمشق ، محاضرة بعنوان « توينبي والحضارة » حاول فيها أن يقدم عرضاً وافيا عن نظرية « توينبي » في نشوء الحضارات ، واندراسها ، وهي النظرية التي تقوم على مبدأ « التحدي » الذي يعتبره المؤرخ الانكليزي الكبير بمثابة المحرض الرئيسي للحضارة .

وقد بين المحاضر في مطلع المحاضرة الخاصية التي يتميز بها فكر « توينبي » وهي خاصية الوضوح ، والمنطقية ، والتسلسل ، باعتباره من افضل النماذج التي تمثل الفكر الانكليزي ، وقارن بايجاز بين البساطة والمباشرة اللتين تنطوي عليهما نظرية « توينبي » وبين الصعوبة التي تتميز بها نظرية « اشبنغلر » في الحضارة ، والفكر الالماني بشكل عام .

المسرح القومي

من موسم هذا العام قدم المسرح القومي مسرحية « الحياة حلم » للكاتب الاسباني « بدرو كالدرون » الذي عاش في القرن السابع عشر اخرج المسرحية علي عقلة عرسان وقام باداء الادوار فيها : ثراء دبسي ، اسامة الروماني داعي مورلي ، عصام عبجي ، عبدالقادر ماردينى لينا باتع ، يوسف حنا ، سليم كلاس .

ويدور موضوع المسرحية حول فكرة : ان الحياة حلم قد يكون جيلا وقد تتخلله المخاوف وقد يكون كابوسا مزعجا وخير للانسان في حلمه الطويل ان يعيش محبوبا خيراً . .

● سيقدم المسرح القومي في موسمه القادم عشر مسرحيات .

● حضر كل من الفنانين لؤي كيالي وجوليان قطيني افتتاح معرضهما الشخصيين في روما ، اقام الاول معرضه في صالة « الكاربنة » واقام الثاني معرضه في صالة « قصر المعارض » .



يقدمها غازي الخالدي

بيكاسو والانسان

● عرض مؤخراً في متحف الفنون الجميلة في مونتريال (في اميركا) « ٢٤٠ » لوحة تدور حول « بيكاسو والانسان » والتي كانت نتاج هذا الفنان من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٦١، وقد كانت هذه المجموعة من أعماله تميل الى التركيز على انسانية الفنان واهتمامه العميق بواقع الانسان.

ولعل اهم ما يذكر في هذا الموضوع هو ان تجربة المعارض بالنسبة لبيكاسو لا تعني بيكاسو بشيء، بقدر ما تعني الذين اهتموا بالمعرض وحاولوا من خلال هذا المعرض أن يروجوا لافكارهم ويأخذوا من بيكاسو منطلقاً هاماً لتأكيد وجهات نظرهم . وهذا واضح تماماً عندما نعرف ان الذين ساهموا في اعداد المعرض والدعوة له في الولايات المتحدة الاميركية هم على معرفة بجمع اللوحات بالتعاون مع بعض المتاحف هناك . وأطلقوا الشعارات والمصطلحات الكبيرة على اللوحات وتناولوا اعمال لبيكاسو بالتحليل والتعليل وربما بيكاسو نفسه في واد وهم في واد آخر .

من مونيه الى موندريان

● من متحف نيويورك للفن الحديث ارسلت / ١٥٣ / لوحة فنية الى « جاليري واشنطن » للتبادل والعرض .. وكانت هذه المجموعة من اللوحات تمثل اتجاهين هامين الأول معاصر والثاني مستحدث والمقصود هنا بالفن المعاصر هو فن أوائل القرن العشرين حتى ظهور التكعيبية والتجريدية . والمستحدث هو هذه الحمى من



جميلة بوباشا
بريشة الرسام العالمى بيكاسو

المدارس والمذاهب الجديدة كالمستقبلية والدادائية .. والتوربة .. الى آخر ما هنالك من تسميات طريفة .

حضر المعرض مئة واثنان وعشرون فناناً من خمس وعشرين دولة للاطلاع على روائع روسو ، سيزان ، موليه ، جوجان ، فان جوخ ، كاندنسكي ، موندريان ، اوروزكو ، بيتهان ، دشان ، بولوك ، ديكوبيغ ، بيكون وشبوني ، سيفريني ، شيركو ، وقد خصصت قاعة خاصة لعرض الفنون الايطالية وأوربا الوسطى ، وشملت اعمالا فنية ابتداء من أول القرن العشرين الى جانب الاعمال الفنية لموديلياني وموراندي ، وبالاضافة الى هؤلاء كلهم فقد عرضت بعض الاعمال لدوتين ، وكوكوشكا .

والواقع أن اقامة معرض من هذا النوع يجمع هذه النخبة من التجارب الفنية الفذة يعتبر مدرسة كاملة لجميع رواد الفن ولكن الخطورة تكمن في عرض أعمال كاندنسكي وكوكوشكا ، وشيركو ، وبولوك الى جانب فان جوخ وسيزان ومونيه ، خاصة بالنسبة لطلاب كليات الفنون لأن القيم هنا تكاد لا تتوضح بسهولة للانسان العادي . . ولطالب كلية الفنون .

وعملية تبويب او تصنيف المعارض والأعمال الفنية بحيث تعطي مدلولات متشابهة وذات خط فكري واحد يسهل كثيراً على الجمهور عامة عملية التذوق والفهم .

جماعة نصف النهار

● ان فكرة توحيد الطاقات الفنية وتنظيمها في جمعية او رابطة او منظمة او اتحاد فكرة ناجحة وعملية ويمكن ان تعطي مردوداً ايجابياً فيما لو ابتعدت عن الشكليات والتنظيمات الادارية . . . لأن الفن التشكيلي بحد ذاته هو فن فردي مرتبط بالانسان وحده وبتجربته الفنية الشخصية ومن خلال هذه التجارب الفردية يتعامل الفنان مع البيئة والناس والحياة حسب فلسفته ووجهة نظره وبعد ذلك قد تأتي النتائج متشابهة من حيث الفكرة او من حيث الخطوط العامة مع بعض الفنانين الذين يعيشون معه في نفس الظروف المكانية والزمانية ويرتبطون معاً بماض واحد ومستقبل واحد ومصير واحد .

واليوم نسمع عن جماعة من الفنانين في سورية بدأوا يجمعون انفسهم في شبه رابطة او جمعية باسم « جماعة نصف النهار » اشارة الى الوضوح والاشراق والتفاؤل تأكيداً لأهمية الشمس في بلادنا ودورها في توضيح الأشكال في الطبيعة .

والذي نريد لهذه الجماعة هو ان لا تبقى في حيز الشعارات والتصريحات في الصحف والمجلات ، وانما تبدأ عمليا في الانتاج ... والانتاج المستمر الجيد وحده برأينا هو المقياس الحقيقي لتقدم الانسان وترابطه مع زملائه وتعاونه معهم .

الاعلان والنحت البولوني

■ اقيم في المركز الثقافي العربي بدمشق معرضاً للفن التشكيلي البولوني لأستاذين بولونيين من الأساتذة المنتدبين لتدريس النحت والاعلان في كلية الفنون الجميلة بدمشق .

الأول وهو جيرسي سروكوفسكي ، لفن الاعلان ، والثاني هو آدم سرولاتا لفن النحت !



• المسيح يسخر منه الجنود لجورج رووه •

والمعرض يجمع تجارب فنيـــة عديدة لكلا الفنانين، اما بالنسبة لفن الاعلان فقد قدم الفنان جيرسي نماذج مختلفة من فن الاعلان البولوني ويلاحظ في أعماله استعماله ألواناً متعددة كثيرة في الاعلان الواحد قد تصل في بعض الاعلانات الى سبعة او ثمانية ألوان أما الطابع العام لألوانه فهي مشرقة وصافية غير مركبة ، ويميل الى ملء الاعلان كله بعلاقات خطية ومساحات ملونة ، يعتمد على التبسيط الزخرفي في أكثر أعماله .

وبالنسبة للنحت فقد عرضت صوراً فوتوغرافية لا يمكننا من خلالها أن نتصور تماما القيم الكاملة للعمل الفني من خلال بعد واحد لأن النحت من



● وجه لخالد المز ●

أول مقوماته أن تحس بالبعـد الثالث بالبين المجردة ومن الطبيعية مباشرة ، وهذا لايعني ان أعمال النحت التي عرضت أعمالا عادية بل بالعكس تحمل خبرات طويلة في فهم الاشكال وتحطيمها وبنائها من جديد بأسلوب عقلي جدلي بحت .

معرض اللوحات المائية

■ يقام حالياً في « متحف سرسق » في بيروت أول معرض من نوعه تنظمه اليونسكو ويضم (٧١) لوحة من اللوحات الفنية المائية لمشاهير الفنانين من جميع انحـاء العالم ، من الشرق والغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين: بيكاسو ، براغ ، دولاكروا ، ديغا ، بليبج ، ليجيه ، ماتيه ، مـيرو ، رودون ، رووه ، واللوحات مطبوعة على ورق بنفس قياس اللوحات

بالاصلية ، وطبق الأصل تماماً من حيث اللون .

ان جميع هذه اللوحات معروضة للبيع ، وتعتبر بلاشك ثروة فنية يمكن ان تضاف الى مجموعة متحف الفن الحديث والقديم في أي بلد في العالم .

ونحن نعتقد ان هذه الثروة بحاجة اليها نحن في متحف الفن الحديث بدمشق ، خاصة وان طلبة كلية الفنون الجميلة عندنا بدأوا يتساءلون عن المراجع الفنية ، وعن المتاحف ، وعن الكتب وعن اللوحات .

وليس أفضل لطالب الفنون من أن يطلع بنفسه على لوحات عالمية وتجارب فنية مختلفة من جميع انحاء العالم ، يدرسها ويفهمها ويحاول أن يغني تجربته الفنية على ضوئها .. ترى هل تبادر كلية الفنون او ادارة متحف الفن الحديث لاقتناء بعض هذه اللوحات او العمل على نقل هذا المعرض على الاقل الى دمشق ؟!

معرض الفنان خالد المز

● اقيم في الشهر الماضي في دمشق في المركز الثقافي العربي المعرض الاول للفنان خالد المز ، خريج كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٦٤ .

ومعرضه يشمل اعماله خلال خمس سنوات في قسم التصوير في الكلية ، ويمكن ان نصنفها الى ثلاث فئات : الفئة الخاصة بالدراسة العملية في الكلية ، ثم فئة التجارب الخاصة بخامات جديدة وتقنية طريفة ، وأخيراً أعمال مشروع التخرج وهو مؤلف من ثلاث لوحات كبيرة .

منها ما اتقن اتقاناً تقنياً دقيقاً على حساب الاحساس ، ومنها ما كان يفيض بالاحساس والشاعرية ولكن على حساب الخبرة التقنية وهذا أمر طبيعي بالنسبة لطالب في كلية الفنون يدرس ويمارس التجربة باستمرار .

وخالد المز فنان ملون له اسلوب خاص باستعمال الالوان بحيث نرى شفافية واضحة في ألوانه مع حساسية دقيقة في اعطاء اللوحة مسحة من الشاعرية انه يرسم ويلون وكأنه ينسج اللوحة نسجاً صفائرياً تختفي في جو هارموني موحد يدل على خبرة الفنان واصالته .

وعرض الفنان محاولات وتجارب شخصية كشف فيها عن طاقات الخامات الجديدة على الصور المطبوعة او الفوتوغرافية وتحويرها ومحاولة البحث عن نقط الضعف فيها والبدء من هذه النقطة بايحاء فني مضاعف وتشكيل تكوينات تصل الى حد الطرافة والغرابة والسريالية احياناً .

الفكرة ليست جديدة ولكنها طريفة وتؤكد شوق الفنان للتجربة الجديدة !

ولكن المستوى الفني والفهم العلمي للشكل في هذه التجارب يكاد يعتمد على الصدفة ولايمكن ان تقاس هذه التجارب بأعمال الفنان الجدية المدروسة . كذلك ينقصها التنظيم الفكري الموضوعي وينقصها ايضا اللون .

اما مشروع التخرج فهو بلا شك يمثل قمة نجاحه الفني ، ولوحته عمال البناء الكبيرة تحمل خلاصة مفاهيمه وتجاربه وخبراته في فهم اللون والشكل ، والتكوين ، والابعاد ، والتوازن ، والحركة ، واللون والبارد والساخن ، والاحساس ، والبعد الهوائي ، والبعد النفسي ، والشخصية الحضارية .

انها تحمل كل هذه القيم مرة واحدة . وتتحرك بقوة امام ابنية ضخمة تبدو من بعيد لتؤكد العلاقة الوثيقة بين الانسان والبناء .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

بقلم: فؤاد الشايب

مع مؤتمر الأدباء العرب الخامس في بغداد - حشد المؤتمرون معظم التوصيات حول قضية فلسطين من جهة، ووحدة الوطن العربي واشتراكيته من جهة ثانية - كادت المشادة ان تنعقد حول الغزو الفكري الأجنبي، وكيف يجب ان يكون رد الفعل إزاءه - اجتماع عفوي حول موضوع (المجتمع العربي) و (التاريخ العربي) وضرورة دراستها في ضوء العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لتوضيح ملامح الشخصية العربية وايديولوجيتها - تقييم نتائج اعمال المؤتمر، فكرياً، وقومياً -

هذا هو مؤتمر الأدباء العرب الخامس. خمس مرات خلال اثني عشر عاماً يتجمع الأدباء العرب، بدعوة من احد الاقطار العربية. وقد انطلقت الدعوة الاولى من لبنان، عام ١٩٥٣ حيث اجتمع الأدباء على نطاق ضيق، او بعدد محدود في مصيف بيت مري. وكان محرك الدعوة الأولى، ومحققها، الشاعر اللبناني الطيب الذكر، المرحوم صلاح لبكي، يساعده عدد قليل من الادباء الشبان - آنئذ -

على رأسهـــم الاستاذ صلاح الأسير.
وكان الادباء السوريون اول من اهتم للدعوة ، وحاولوا في بيت مري بالذات ، أن يسبغوا عليها وعلى توصيات المؤتمر الطابع القومي ، العربي ، وبالأحرى ، المشاغل القومية العربية ، فلحوا قليلا ، بعد تشاد عنيف حول (قومية) الادب و (عالميته) وحول (تحرره) ، و (التزامه) وكان من السائد يومئذ في جو المؤتمر ، ان الدعوة انما وجهت الى الادباء ليخوضوا في قضايا فكرية ، (عالمية) لا سياسيـة ، ولا قومية ...! واعتقد أن مشاكل الالتزام واللاإلتزام التي طالما سمعنا من اخبارها كثيراً قد طرحت جديا أمام المثقفين العرب منذ مؤتمر بيت مري في لبنان ، واثر المشادة الداخلية التي نشبت بين عدد محدود من الادباء ، ضمن جدران المؤتمر الاربعة . وهذا لا يعني ان المشادة لم تكن قائمة من قبل (*) ، بل إنهـا اتخذت شكلاً حاداً ، انطلاقاً من بيت مري .

وكان هذا طبيعياً بسبب التقاء اكبر عدد من أدباء العربية من كل قطر ، لاول مرة . ولم تمنع فرحة اللقاء وما بعثته من متعة الحديث والبحث يومئذ ، أن يتخطى المدعوون شريط المجاملات الحريري ، الى الخوض في بحث الواقع العربي ، والأمل العربي .

وقد استطعنا اثناء انعقاد مؤتمر بيت مري أن تشترك الجهة الرسمية السورية في الاهتمام بالحدث الجديد ، وحصلنا قبل نهاية المؤتمر ، على اذن من وزارة المعارف، بان تدعو سورية مؤتمر الادباء الى الانعقاد في دمشق ، في الدورة الثانية . وكان اعلان الدعوة يوم اختتام المؤتمر ، ايذاناً بأن فكرة استمرار المؤتمر قد رسخت فعلا وتسلمتها يد حفية بها ، يد سورية العربية .

على أن ترجمة (الدعوة) الى (مخصصات)، لم تكن ميسورة في العام التالي ، فتأجلت الدعوة حتى قيض الله لها المرة الثانية ،

(*) منذ عام ١٩٣٠ جرى فريق من الادباء العرب وراء اندريه جيد ، والمثقفين اليساريين الفرنسيين القائلين بالالتزام قوميا واجتماعيا وسياسيا ، ضد انصار (الحرية المطلقة) أو الأمانة الأدبية، التي يمثلها يومئذ الفيلسوف الفرنسي (آلان) وزملائه ممن يقولون بأن الالتزام بجميع انواعه (خيانة الأدب).

حماسة وزير فوافق على رصد خمسة وعشرين الف ليرة في موازنة المعارف للانفاق على مؤتمر الادباء . وفي صيف عام ١٩٥٥ انعقد المؤتمر الثـــاني في بلودان ، وكان اكثر عدداً ، واوسع افقـــاً ، واحفل بالمواضيع الفكرية المعاصرة .

وعلى مدرج الجامعة السورية ، في حفل الافتتاح ، وقفنا خاشعين ، تحية لروح الفقيد الشاعر لبكي ، الذي وضع حجر الاساس لمؤتمر الادباء في لبنان ثم أدار ظهره للأدب والدنيا كلها . وكان رحمه الله، يريد المؤتمر للأدب وحده بعيداً عن أي مشغل سياسي ، قومياً كان أم دولياً .

أن مؤتمر الأدباء العرب الثاني ، الذي انعقد على حافة بركان ، بينما العدوان الثلاثي ، يكاد يعلن عن نفسه قبل وقوعه — وكانت توصياته تدعو بصراحة الى التزام الموقف الذي يدافع فيه العربي عن حرية امته وكرامتها وسيادتها — ان المؤتمر هـــذا ، لم يكن بمجموع بحوثه منصرفاً الى الفكر القومي او منعقداً حوله، بل قد تناول مواضيع ثقافية على مستوى عالمي انساني ، كالأدب والالتزام والأدب والدولة ، والأدب والقضية الاجتماعية . بالاضافة الى مواضيع متفرقة اخرى غير متماثلة ، او متصلة بموضوع واحـد ، أو هدف محدد .

ولعل أهم ما آلت اليه مشكلة الالتزام في مؤتمر الادباء الثاني أن انعقـد الرأي بين مختلف طوائف المفكرين **على أن الالتزام ، ينفي الالزام ، قبل كل شيء. فهو إذن التزام داخـــلي ، طوعي ، عفوي وطبيعي في عصرنا هذا ، وفي واقعنا القومي الماثل أمامنا** . وتسقط قيمته الفكرية والفنية ، اذا كان التزاماً خارجياً ، صنعياً ، مضغوطاً ، مفروضاً . فجاءت التوصيات تحمل الدعوة القومية بكل حماس واندفاع ، كما تحمل الاعتراف بحق الاديب في حرية مصانة ، وكرامة ليس بوسعه أن يعيش ، وينتج ويبـدع وينفع الناس بدونها .

بعد عامين ، انعقد مؤتمر الادباء الثالث في القاهرة . كان العدوان الثلاثي قد وقع وانحسر ، وفشل . وكان اللقاء الفكري القومي على الضفة الثانية من فوهـــة البركان ، ضفة الوصول، بعد عامين من

انعقاد مؤتمر الادباء على ضفة العبور ، في دمشق . وكان المؤتمر الثالث يحمل بكل تعابيره وملامحه ، اوسمة المعركة المظفرة وغبارها . كان الادب شديد الانشغال بالحدث القومي ، ممتلئاً به ، عاجزاً عن احتوائه ، فكان لا بـد من حركة ترفع الادب نحو مستوى الحـــدث ، وتقرر موضوع المؤتمر حول القومية العربية .

وبالرغم من أن مؤتمر القـاهرة عام ١٩٥٧ كان تظاهرة قومية فكرية فريدة من نوعها في تاريخ العرب الحديث ، فقد كان على لجنة الصياغة المؤلفة من مندوبي ست دول عربية أو سبع ، كما اذكر ، أن تبدأ منذ الحروف الاولى في تعريف القومية العربية ؟! ولم تنته لجنة الصياغة الى تعريف مقبول ، ينقذ كلمتي (القومية العربية) من طابع التمذهب ، والحركية ، والطلب السياسي العابر إلا بعد جهـــد وتعب وتشاد ، وجلسات طويلة . وكان بعض مندوبي الاقطـار العربية ، يحضر طرفاً من الجلسات ، للمراقبة والاطلاع خوفاً من أن يعلن تعريف القومية العربية ، محو (الوطن) وانكار (شرعيته) !!

لقـد أرسى مؤتمر الادباء الثالث في القاهرة ، مبدأ حصر موضوع المؤتمرات في النطاق القومي تلبية لحاجـة فكرية ملحـة . فجاء مؤتمر الادباء الرابع في الكويت ، تحقيقاً لهذا المبدأ ، مع حرص على الابتعاد عن الحـــاضر العربي ، و (مواضيع الساعة) بقدر الامكان . فاختار الكويت (التاريـــخ العربي) موضوعاً ، ولكن التاريخ لم يبعد المؤتمرين عن الحاضر فكان المؤتمر الرابع عام ١٩٥٩ اكثر المؤتمرات السابقة صخباً ولجباً وتشاداً .

لقـــد جاء الوفد العراقي يومئذ الى الكويت ، برئاسة الاستاذ مهدي الجواهري حاملاً بحوثاً في تعريف التاريخ العربي بأسلوب المادية التاريخية . ومن المؤكد أن احد الباحثين قد أسرف في ماديته ، فوق ما توجب المادية العلمية حقاً ، حتى ليبدو كأنه هدف الى تعطيل الفضائل والقيم العربية التي يفاخر بها كل عربي ، فثار المؤتمر أو معظمه على الوفد العراقي ، وبدأ التراشق بالحصى ، والحجارة ، بين

الوفد العراقي من جهة ومعظم الوفود[1] ومنها الكويتي من جهة ثانية : في قاعة المؤتمر ، والشارع ، والصحف ، والمنشورات المشروعة وغير المشروعة . وهدد الوفد العراقي بالانسحاب من المؤتمر ، وبالسفر ووقع الرسميون فيما يسمى (الحيصبيص) من امرهم ، اذ كان يخشى أن تنقلب المشادة الفكرية الى ازمة سياسية بين بلدين عربيين . ثم اصلحت المساعي الحميدة ما امكن اصلاحه ، وانهى المؤتمر ايامه الأخيرة بغياب الوفد العراقي عن جلساته ، اي بانسحابه الفعلي ، لا الرسمي .

... ومن عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦٥ ...

كان علينا أن ننتظر طويلا ، حتى يدعونا اي قطر عربي الى عاصمته . وكدنا نفقد الأمل من إحياء تقليد هذه المكاظية الجديدة ، قبل أن يوجه العراق دعوته الى الأدباء للتجمع في مؤتمرهم الخامس .

وقد حييت في حفلة اختتام المؤتمر الخامس ،عودة العراق الى طليعة الموكب النضالي القومي بكلمة قلت فيها :

منذ مايقرب من ثلاثة عشر عاما اي منذ انعقد مؤتمر الأدباء العرب في لبنان لاول مرة ، ونحن نردد فيما بيننا : متى يدعو العراق ادباء العرب !! وكنا نفتقده داعياً لا مدعواً ومتقدماً في موكب الفكر والنضال ، لا متباطئاً ، ولا متخلفاً .

وكانت تتعاور العراق ايام الشدة والهول بلا رحمة ولا هوادة ، وبالأخص ، منذ أن فرض الاستعمار عليه ، بالاثارة والاهانة ، معركة عام ألف وتسعمائة وواحد واربعين ، فخاضها بكل كرامة وكبرياء ولكن بلا تكافؤ ، ولا عدة . وانتهزها العدو فرصة لسحق المد العربي العظيم الذي كانت بشائره في بغداد ، تهز احلام الجهاد العربي ، وامنيات البطولة والفداء . وكان لا بد ان يطول بالمد زمن التراجع والانحسار وتتجمع له من جديد ، روافد الألم ، والحقد ومر الهوان ،حتى تفجر كما يجب ان يحدث التفجر ، في ثورة الرابع عشر من تموز ، فعاد الى موقعه الطبيعي من حياة العراق ، وقد ازال اللعنة ، ومسح الاهانة فكانت الثورة ، التي فتحت للعرب ابواب العراق وللعراق ابواب النضال العربي

(١) اشترك بعض الوفود العربية على نفسه في المشادة هذه .

المشترك ، ليقف حيث يجب أن يقف في الصف الاول من قيادة العمل المنظم ، الذي يضع في جبين الهدف وحدة الأمة وبناء مجتمعها الجديد . !!

ومن أجل هذا ، وقبل أن يرحب بنا العراق فوق أرضه ، ابناء امة واحدة ، ولغة واحدة ، يتجمعون في هذا المؤتمر ، وتنعقد حولهم آمال واحلام ، نسبقه الى الترحيب به ، في الصف الاول من القيادة النضالية العربية ، عاملا بيده وقلبه وعقله ولسانه ، وبجميع طاقاته الكبرى ، من أجل عزة الأمة ، وحريتها ووحدتها . .

— ٢ —

بعد هذا المدخل التاريخي الموجز لحركة مؤتمر الادباء العرب ، كتوطئة لاغنى عنها لدارس تطورات التجمعات الأدبية على نطاق قومي ، لزم علينا أن نلقي نظرة على موضوع مؤتمر الادباء الخامس في بغداد ، والهدف الذي سار نحوه . ولعل الهدف واضح في الموضوع الذي رصد له وهو **دور الأدب في معركة التحرير والبناء** . ان الأدب ، في مؤتمر الادباء الخامس ، مقترن بالمعركة . فالقول فصل ، ولا مجال بعد للتخمين والتردد .

بل ان المؤتمر لم يعن بالكليات الفكرية أو العقائدية ، بقدر ماعني بما تحتها من عناوين صغيرة ، وتفاصيل ، ومسالك ، وأساليب عمل . وان المراقب ليلحظ في نصوص توصياته ، روحاً عملية تنفيذية ، تترجم الفكر والعقيدة الى حركة وعمل وانتاج . حتى ان البحوث نفسها التي قدمت الى المؤتمر ، بله التوصيات والقرارات ، تنطبع بطابع الثقافة العملية الحركية التي تنزع الى المرور من الكليات المطلقة الى مادية التجربة والممارسة . ولعل بوسعنا الحكم ان الممارسة لاتنقص ، من قيمة البحث الفكري المجرد ، بل على العكس تغنيه وتوضح صوره ، فينعكس هذا الوضوح المادي بدوره ، على البحث ، وقواعده الفكرية .

ويبدو أن التحول الواضح ، في اتجاه الفكر العربي نحو الثقافة العملية ، كما بدا لي ، في مؤتمر الأدباء الخامس ، هو ماعبرت عنه الكلمات القليلة التي قدمت للتوصيات بهذا المطلع :

« .. يرى المؤتمر أن الادباء والمفكرين

العرب هم طليعة القوى الثورية التي تعمل على تطوير مجتمعنا العربي في شتى نواحيه. ومن ثم كان من الطبيعي أن يحيى متاجهم الادبي والفكري وثيق الصلة بالواقع لكي يتاح لهم أن يغيروه ويطوروه ، بما يستجيب لأماني الشعب العربي في وطنه الكبير ... »

فالنص القاطع بأن **المفكرين هم طليعة القوى الثورية التي تعمل على تطوير المجتمع العربي** ، يوجب عليهم **تكوين ثقافتهم على مثال رسالتهم** . وطالما أنهم خرجوا من الصف الفكري الى طليعة **عمل ثوري** ، فليست ثقافتهم من بعد ، سوى ثقافة الواقع العربي في مرحلتين : معرفته ، وتطويره .

ان ترجمة الأفكار ، والنظريات ، والبحوث التي قدمت للمؤتمر ، الى حركة وعمل وانتاج ، كما قلت ، تجلت ، في كثير من التوصيات التي ليس هنا مجال تحليلها كلها . وسأقتصر على عرض بعضها ، نماذج للروح الواقعية التي سيطرت على المؤتمر ، فلم تنقله من الأدب الصرف الى البحث الاجتماعي فحسب ، بل قيمت البحث بقدر مايقترن بتحقيق هدف ، وانجاز عمل.

ان التوصية (٤) تنص على دعوة الباحثين العرب الى وضع مؤلف شامل عن الحضارة العربية والاسلامية ، ومراجعة الدراسات التي تناولت هذه الحضارة لتقدير النزيه منها ، والتحذير مما شابته الأغراض والأهواء .

وبالحق فانها توصية جليلة القدر . فهي اذ ترمي الى التعريف بالحضارة العربية واحياء قيمها ، لاتهمل سهم الباحثين الأجانب الذين استشرقوا وقدموا لنا ثمرات جهودهم في بحث تاريخنا ، وعقليتنا وقيمنا ، فان احسنوا ذكرناهم بحسناتهم وان أخطأوا وضلوا ، جاهلين أم عامدين اهملنا اخطاءهم ، وانقذنا تراثنا من شبهات قذف بها وشوه . بل ان القذف بتراثنا الحضاري ، لجدير بأن ينبه خمولنا ، واعتمادنا على الغير ، للتعريف به والانصراف له مدى العمر ، كما يفعل بعض المستشرقين. او يكون هذا التراث بالنسبة لهم مادة انسانية حية ، ويكون بالنسبة لنا ارضاً مواتاً ، ومادة باردة لاحركة فيها ؟!

لقد التقى عدد من الأدباء ، في بحوثهم

التي قدموها للمؤتمر ، حول اعادة كتابة (التاريخ العربي) في ضوء العلوم الحديثة وحول التأليف في قيم الحضارة العربية ، ودراسة المجتمع العربي ، في اضواء علم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد السياسي ، وسواها من علوم وتجارب علمية ، لكي تخرج بالقومية ، والوحدة ، وبمعاني العدل والحرية ، من حيز الكليات والعموميات الى حيز المفاهيم الواضحة المسلم بها عقليا ووجدانيا .

وكنت أحسب ، أن موضوع المجتمع العربي الذي عقدت حوله بحثي المقدم للمؤتمر تحت عنوان (ثقافة الوحـدة العربية) (*) ، موضوع قد يُرمى بانه غير ذي طابع أدبي ، في مؤتمر أدباء وشعراء ، واذ بمادة المؤتمر الخامس في بغداد ، تسودُها العنـاية بالبحوث الفكرية والاجتماعية . وإذ ببحوث الشعر والادب الجميل ، وعلاقتهما باحداثنا القومية ، تنحسر حتى لا تكاد تؤلف ربع المادة الفكرية المقدمة للمؤتمر . وإذ بنا نتفق قبل أن نجتمع ، على أن كلمة (أدب) إنما تعني ، كما تريد اللغة العربية بوجه خاص ، ثقافة عامة ، وأخذاً من كل علم بطرف ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، كما يقول اسلافنـا . والأدب ، انما يمارس تأثيره لا بالتألق الجمالي فحسب ، بل بالاشتمال الفكري ايضاً . وهذا يغني عن ذلك في كثير من مواقف الأديب والأدب .

فلسطين

وقد ظهرت الروح العلمية العملية في توصيات المؤتمر لفلسطين . اكثر منها في أي توصيات أخرى .

قد بدأت التوصيات بتأييد الحكومات العربية في اتخاذها الخطط الفعالة من اجل استرجاع حق الشعب العربي في فلسطين كاملاً . ثم وجهت عنايتها الى احياء فلسطين في الحياة القومية العربية ، عن طريق العمل الفكري البناء : ١ — التأريخ لفلسطين من جميع النواحي السياسية والفكرية والروحية والأثرية لاثبات عراقة العروبة في هذه البقعة المقدسة . ٢ — تأليف معجم شامل لبلدان فلسطين

(*) سيصدر البحث في سلسلة (كتب قومية) التي تنشرها وزارة الثقافة والارشاد القومي .

٣ — جمع التراث الشعبي — ٤ - انشاء مركز للبحوث الفلسطينية ، تتفرع عنه مراكز متعددة لجمع الوثائق المتعلقة بالقضية الكبرى - ٥ — انتاج الأفلام السينمائية والتلفزيونية التي تدور موضوعاتها حول النواحي الانسانية لقضية فلسطين وينبغي ان يكون لهذه الأفلام من القيمة ، مايسمح لها بان تعرض في دول العالم — ٦ - تشجيع الانتاج الأدبي ، وجمعه ودراسته ، وترجمته الى لغات عالمية ، ودعم الأدباء والمفكرين الأجانب المتعاطفين مع القضية العربية .. الخ الخ .. (*)

ان هذه التوصيات ، وسواها مما نص على ادخال مادة فلسطين في صلب المناهج والنصوص ، والمباريات ، التعليمية والتربوية ، بدءاً من الاطفال حتى المتخرجين الجامعيين ، انما يقصد به ان تحيل فلسطين في دم العروبة ولحمها ، وترجح في ضمير الشعب العربي ، رجوحاً يفرض وزنه على كل فكر ، وكل سياسة ، وكل مذهب ، فتغدو فلسطين ، أكبر من قضية ، واجل من سياسة .. لتقترن بارادة الوجود والبقاء والنضال من اجلها نضالا ابدي الاشتعال.

الوحدة والاشتراكية

اني لا انتقص من قدر المؤتمر الخامس ، اذا قلت أن اقوى بحوثه قدمت في (لجنة الأدب والبناء) . وقد دار معظم البحوث حول الوحدة ، والاشتراكية ، والتاريخ القومي ، والمجتمع العربي ، والتراث الاسلامي مما لا يتسع مجال هذا العرض السريع للتبسط به مادة مادة . وقد حرصت اللجنة على تأكيد توصية تقول :

يوصي المؤتمر بضرورة توضيح الاطار الفكري للاشتراكية العربية ، وبالتأكيد على التراث العربي والاسلامي في بناء الاشتراكية العربية ، وضرورة التمييز بين اشتراكيتنا والاشتراكيات الاخرى. (ولا بأس من التسجيل بأن مصدر التوصية هو نص الوفد العراقي .)(*)

(*) خمس وعشرون توصية لفلسطين.

(*) بين اهم بحوث الوفد العراقي ، واجمعها في توضيح (الاشتراكية العربية) ، بحث الدكتور عبد العزيز الدوري ، رئيس جامعة بغداد ، والدكتور ياسين خليل الاستاذ في الجامعة ، ويمكن اعتبار البحثين ، حلقتين متكاملتين ، الاولى تبحث الاشتراكية في جذورها التاريخية ، والثانية تحيط بملامح —

وحرصت اللجنة على أن توصي بدراسة (المجتمع العربي) في مختلف مجالاته ، دراسة علمية حديثة (ولا بأس من أن نذكر هنا ايضاً ، بأن مصدر التوصية هو الوفد السوري) .

وقد استهلت لجنة (الادب والبناء) توصياتها التي تبناها المؤتمر كلها ، بتأييد رجال الفكر والأدب في دفاعهم عن القومية العربية ، وعن الوحدة العربية ، ودحضهم مايثار حولها من اضاليل وشكوك . واختتمتها بدعوة الى تشجيع الانتاج الادبي والفني الذي يتجه الى الشباب في موضوع الاشتراكية العربية والوحدة العربية .

بعض الالتحام وبعض الشرر

هيهات أن أطمح الى ضغط وقائع المؤتمر كلها وأهمها في اطار مطالعة واحدة ، واني لأشعر بالتقصير والتشويه كلما مضيت بسرعة أمام مايجب أن أقف أمامه طويلاً .

على انني برغم ما أشعر به من حق القارىء العربي علي في توضيح صورة المؤتمر ، ابقى دون الغاية بمراحل . ولعله من المفيد هنا أن أذكر المسؤولين عن ادارة المؤتمر في بغداد ، بضرورة طبع (كتاب المؤتمر) وتضمينه جميع البحوث المقدمة اليه ، احياء لتقليد سارت عليه من قبل : دمشق ، والقاهرة ، والكويت ، في جمع وقائع المؤتمر وبحوثه مع الردود عليها ، في كتاب تاريخي ، يبقى سجلاً لأيام الادباء . ولعل الباحثين والقراء من بعد يكونون و كتاب المؤتمر أمامهم ، أوسع اطلاعاً ، وأصدق حكماً ..(*)

على أن مايجدر بالمراقب تسجيله من وقائع المؤتمر ، كحدث ذي بال ، هو الشادة التي أثارها الوفد اللبناني حول بحث الشاعرة السيدة نازك الملائكة ، الذي القته في المؤتمر بعنوان (الادب والغزو

= الاشتراكية العربية القومية . الاولى تستبعد تطبيق المادية الماركسية الغربية على المجتمع العربي ، بتاريخه وبواقعه المعاصر معاً . والثانية ، تسبغ على (الاشتراكية العربية) ، فضائل القيم العربية المنحدرة من التراث القومي .

وفي كلا البحثين ، تأكيد على ضرورة تفاعل الفكر مع التجربة ، والتقاء الثورة بالواقع ، تحت طائلة انطلاق الفكر الثوري ، في الفراغ والعدمية .

(*) كانت ادارة المؤتمر اعلنت اثناء انعقاده بأنها ستطبع كتابه .

الفكري) فأثار بهـا صفوف المؤتمر الى جانبه ، وضده ، أو بالأحرى مع نازك ، وضدها . لأن الهمسات التي كانت تدور بين كل اثنين أو ثلاثة من الاعضاء في أن المؤتمر تجر عليه ذيلها الطويل موجـة من الرجعية ... ان هذه الهمسات ارتدت الى الحناجر لتهتف بها بصوت عال . وقد عبر اثنان عن هذا الهتاف بكلمات تختلف طولاً وقصراً ، وليناً وعنفاً ، همـا الشيخ الاستاذ امين الخولي ، والدكتور سهيـل ادريس ، صاحب مجلة (الآداب) .

أما استاذنا الخولي ، فقـد كان مقرر الجلسة التي تحدثت فيها السيدة نازك الى جمهور عربي يحبها ويقدرها ، ويصغي اليها بكل شغف . وقد كان على الاستاذ المقرر أن يلخص في نهاية الجلسة ، بعض أفكار المحاضرين ، ويقول فيها رأيا . فتصدى الى محاضرين بارزين تلك الليلة : الشيـخ الاستاذ نديم الجسر — لبنان — والسيدة نازك الملائكة . فلام زميله الاول ، على أنـه اغرق في رد كل فضيلة أو مأثرة ، كانت او ستكون ، الى القديم من التراث وأبدى دهشته لغلو زميله في دعوة شديدة الانحصار ، تسد من دونهـــا الآفاق ، وتعطل الطموحات الانسانية المشروعة (*)

كـذلك لم يكتم دهشته من مسلك التخوف الشديد الذي ساد حديث السيدة نازك ازاء غزو الافـــكار والآداب ، والاساليب الاجنبية ، أدبنا العربي . ولم يشأ الاستاذ الخولي أن يتبنى اصطـلاح (الغزو) ، لأن الانتقال الحضاري بعلومه ، وتقنياته وأفكاره ، في هذا العصر انمـا يؤلف الجو الذي يحيط بنا ، والغـلاف الذي يحتوي وجودنا ، سواء أدفعنا عن أنفسنا الغارة ، أم لم نفعل . ولعـــل الاستاذ الخولي أراد أن يقول ، أو قال ، انه لأجدر بنا أن نتكيف مع جو العصر ، بما ينمي مواهبنا وطاقاتنا وأفكارنا ، بدلاً من أن ندعو الى صد الغزو ، ومحاربـة الاشباح المخيفة ، والعيش في حالة ذعر ،

(*) أعتذر للاستاذ الخولي ، عن تصرفي في ايراد معانيه بكلماتي . ولست أذكر ، كلماتـــه كما أوردها ، ولم اسجلها في حينها وقد سمحت لنفسي بهذا التصرف ، لأني على ثقة من أني لا أحرف معانيه بالقات التي عبر عنها بكل لباقـــة وهدوء وحسن تصويب . وهو يوجهها الى كل من الاستاذ الجسر ، والسيدة الملائكة ، والى جمهور المؤتمر معاً .

وحرب ، غير مجدية أو في جو مصطنع من تناقض الاضداد .

واني لاأزيد الشيخ الاستاذ أمين الخولي تعريفاً ، اذا قلت أنه بالحق ، ركن من اركان التراث العربي الاسلامي وحجة له يعتد بها ، ويشد الأزر — هو والسيدة زوجه ، الدكتورة بنت الشاطىء ، عائشة عبد الرحمن — على انه عندما اشتد على الاغراق في الدعوة الى القديم من جهة ، وعلى الدعوة الى الحذر من الجديد ، من جهة ثانية ، انما كان يجلس في الحكم مجلس المثقف العربي العادل حقاً . انما العدل في التراث ، قمة من قمم مثالياته ومقدساته ما حاد عنها العربي مرة الا وقد قبل بالانحدار الى مزالق الظلم والفوضى وهوان النفس البشرية .

أما الدكتور سهيل ادريس ، الذي تضامن معه الوفد اللبناني ، فتبنى موقفه من السيدة نازك ، فقد كان عنيفاً في رده الذي ركز اهم نقاطه . في أ — الدفاع عن سارتر الذي هاجمته المحاضرة ، وجرحت فلسفته وأدبه ، وأصله — فقالت انــه يهودي — ب — وفي الدفاع عن أدب الجنس ، الذي هو ليس ادب اثارة الغرائز الدنيئة ، وكان حريا بالمحاضرة ، أن تفرق بين نوعي التأليف الروائي ، لتدرك لو انصفت ، ان بعض أدب الجنــــس ، يصنف في مكتبة الأدب الأخلاقي .

ج — وفي أن المحاضرة تدعو الى الأدب القديم ، وقيمه ، دعوة مطلقة ، كأنها ترفض أن ينفتح الأدب على تيارات العالم . وقد تنسى المحاضرة ان أبا نواس شاعر قديم .. الخ ...

ليس هذا الموجز ليحيط بكل ما في بحث المحاضرة ، ونقد ناقدها . فعساه بالاقل ، يرسم دائرة حول نقطة الهدف في مشادة مؤتمر الأدباء . وقد يوجب الانصاف ان نقول بأن السيدة نازك الملائكة ، ليست داعية رجعية وهي رائدة الجديد في الشعر المعاصر . انما يبدو لي أنها تعيش على مضغ ذكريات مريرة ، عاشتها ، وغدت تطبع انشاءها وتفكيرها بكثير من الصرامة والحذر ، والتشاؤم احيانــــاً ، حتى ليبدو أن الأفكار التي ارادت ان تعبر عنها في خط قومي رسمته لنفسها ، افكار انطوائية سوداء ، تخشى

فسحة الأفق ، وشعلة النور ، ويقظة العقل .

ان الكثيرين من أدباء الغرب انفسهم نقدوا (الوجودية) و (الشطط الجنسي) في الأدب الحديث ، فلم يأت النقاد بظاهرة جديدة حول مفاهيم وأذواق أدبية ، هي ابداً موضع جدل وخلاف . على أن المادة الحادة كقطعة من زجاج مكسور التي كتبت بها السيدة نازك بحثها ، جعلت بعض من في القاعة يشمرون وكأنهم يصغون الى شيء كصريف الأسنان او اشد حدة !!

واعتقد أنا شخصياً ان المشكلة مشكلة انشائية . فكثيرون قد لا يخالفون السيدة نازك ، ولكنهم يأخذون عليها هذا (التركيز) على شخص ما وأدب ما ، فيه الحسن وفيه الرديء ، وذاك (التعميم) في وضع الغرب والشرق أسود ازاء أبيض اطلاقاً !!

ولم يبد الانقسام في جمهور المؤتمر ، اكثر مما ظهر في صفوف الادباء المراقبين انفسهم . في صباح يوم السبت العشرين من شباط ، صدرت صحيفة المؤتمر اليومية ، وفيهـا مقالان لكل من عضوي الوفد العراقي : الدكتور ياسين خليل ، والدكتور علي الزبيدي . الاول ، يهاجم الدكتور ادريس ، ويشد ازر الملائكة ، ويشترك معها في الحكم القاسي على ادب سارتر ، بأنه يخالف العقلية العربية ... وأن الكاتب الفرنسي الذي آزر الجزائر ، سكت عن مأساة فلسطين .. الخ .. والثاني يعلن أن (قوميتنا تقدمية وادبنا واسع الصدر) ، وان اعلان الويل والثبور على ادب الغرب في تعميم لا يبقي ولا يذر من شأنه ان يؤدي الى تضييق آفاقنا الادبية ، (والتعميم القائم على العاطفة ، أو الخوف ، أو الحذر او العصبية ، خطأ علمي وتاريخي فاحش ...)

ويقول ايضاً : « ان موقفنا من التراث يجب الا يكون عاطفياً ، خيالياً بحيث نجعل من الماضي معبداً مقدساً او صورة مثالية رومانتيكية ، يبعدها التزويق والخيال عن الحقيقة التاريخية ... **وما أجمل قول الاستاذ الخولي عندما نبه الى وجوب النظر الى عيوبنا ومحاسبة ذواتنا عنها قبل أن نلقي تبعتها على الآخرين .. (*)** » الخ الخ ..

(*) يشير الدكتور زبيدي هنا الى جملة من تعليق الاستاذ الخولي على محاضرة السيدة نازك .

تقييم عام للمؤتمر

مهما يكن من وقائع المؤتمر ، وتفاصيل أحداثه ، فان المراقب اذا ارتفع فوق تفاصيل المشهد ، ليلقي عليه نظرة من عل لابد أن يلحظ تيارات فكرية جديدة تخترق المشهد ، وتؤلف فيه الحركة الرئيسية ، وقد طلب الي الكلام في حفلة اختتام المؤتمر فقلت كلمة قيمت فيها أعماله، بنظرة عامة . وقد يسمح لي القارىء أن اختتم هذه الجولة ، ببعض ماجاء في تلك الكلمة :

١ ـ « ... ان مايسجل لمؤتمر الأدباء الخامس في بغداد ، هو ظهور هذا التحول القاطع في التفكير القومي ، والثقافة العامة ، من حيز المسائل الذهنية ، والجدلية الهامشية ، الى مسائل اجتماعية واقعية ، تلازم القضية القومية وتمشي بجانبها ، جزءاً لايتجزأ من حقيقتها مسيراً ومصيراً . وقد تجلت روح البحث العلمي ، خاصة ، في دراسة التاريخ القومي ، والتراث العربي ، بما يكشف عن جذور الشخصية القومية ، التي يجب أن تعتمد نموذجاً تتجلى فيه ملامح المجتمع العربي الجديد .

وان يكن الحرص على دراسة الشخصية القومية في التاريخ والتراث ، دعوة تتناغم مع حرص المثقفين على تقييم التراث في ضوء العلم وتجارب الشعوب ، لا في معزل عنها ، فان هذا الحرص يعززه عزم واضح على فتح النوافذ واسعة لتيارات العصر ، دون خوف او وجل ، ليتم تكوين الشخصية القومية ، تكوينا رياضياً حراً سليماً تتوافر له جميع عناصر الغذاء والنماء ... » .

٢ ـ « ... ومما نسجله لمؤتمر الادباء في بغداد ، التقاء اجيال ثلاثة من الشيوخ والمخضرمين والشباب ، على المائدة الواحدة وجها لوجه ، دون ان يبدو في الجو ، مايشار اليه عادة بصراع الاجيال وتنابذها . لقد رأينا الشيوخ في حذر شديد من تهمة التخلف ، والشباب في حذر شديد مثله من تهمة التهور . حتى بدا لنا وكأن البعض قد احتل مكان الآخر في الصف واقام حيث يفرض ألا يقيم ، **فدل ذلك باقل الدلالات على ان الحيــاة طفقت توزع نفسها في جوانب المجتمع العربي ، وراء الأفكار ، لاوراء الاشخاص ؛**

والاجيال والاوهام ، بحيث ينتفي قيام نزاع مألوف بين القديم والجـديد ، والشيوخ والشباب ، بالشكل الذي كان سائداً ، في الاجواء البعيدة عن التفاعلات الثقافية » .

وان يكن الباحث المتأمل لاينفي وجود الصراع والتنابذ ، الى حد ما ، قلنا ، بعد ان شهدنا مؤتمر بغداد ، أن نستبشر بان المشادة على اضعفها بين المثقفين، الذين طفقوا يشعرون بتبعاتهم وبمزايا التوازن العقلي والعاطفي ، الذي تعبر عنه في تراثنا وتاريخنا، **كلمات العدل ، والاعتدال والقسط ، والقسطاس ، والوسط ، وسواها** بما يضعه العقل العربي في مقام القيم الخالدة ... »

« ... فاذا قام الصراع بين أفكار ، لا بين أجيال ، أو اشخاص ، وكان العلم في مشكاته ، حيث يجب ان يكون فقد أمناً المثار في ضوء النهار ، وانقذنا انفسنا من انقلاب المشادة الى خناقة ، والفكرة الى تصور غبي ، وعصبية ضالة . اذ لا خوف من الأفكار أن تتقارع ، وتتولد الشرر بل الخوف من أن تحصرها خانات الاحتكار أو تتولاها ادارات الأوقاف الخاصة ... »

٣ ـ « ..يقولون التوصيات وواجب الحكومات في رعايتهـا . واقول للقائلين دعونا اليوم من التوصيات والحكومات ؛ من شاء فلينفذ ، ومن شاء فليغلق الباب بوجه التوصيات واصحابها. إن الافكار لا تحجبها الأسوار ، والعصر يفرض نفسه فمن أدبر او أشاح ، فانـه مسحوق تحت عجلات الزمن. فلنترك التوصيات لماتفرضه طبيعة هذه التوصيات ، ولنقل ان خير ما نحصده من هذه المؤتمرات هو اللقـاء . اللقاء بمـا يحمله من تعارف وتآلف ، ومواجهة مـع الحقيقة العربية النيرة الخيرة ، الكاملة الشاملة، الصافية الجوهر التي زورتها الأبعاد وضللتهـا الأوهام، وحجبتها تقاليد الانعزال ، خالقة ثقافة (الخلية المستقلة) و (الذات المنفصلة) .. وما ان يتنازل المواطن العربي ، في مثل هذه اللقاءات ، عن بعض مايعلمـه عن أخيه المواطن العربي ، ليأخذ باللقاء علماً جديداً بأحواله حتى يعلم اول مايعلم ، انه كان مغروراً ، جاهلاً ، مضيعاً ، وكم مرة

كنا نبدأ اللقاء في هذه المؤتمرات اشباحاً تقارب اشباحاً ، وأقنعة تواجه أقنعة ، وقفازاً يصافح قفازاً .. كل منا يزعم أنه العالم الفاهم الواثق الموثوق وان القرية التي أتى منها هي ام القرى ، والعلم الذي جاء به عن الحياة والناس ، والقريب والبعيد ، هو أول العلم وآخره ، ثم لاتلبث أن تسقط تلك الاصداف المتراكبة والاوهام المضللة ، والمعارف المزورة ، بعد اول لقاء ، أو ثان أو ثالث . واذ بالحياة لاتستطيع المضي في انكار ذاتها ، واذ بالدم ليس ماء كما يزعمون ، واذ بالدوحة العريقة ليست جذوعاً يابسة وحطباً ميتاً . واذ بالفضاء الذي يحيط بهذه الاكوان الصغيرة ليس غباراً ولا دخاناً ، بل صفاء وجاذبية وطبيعة كونية أزلية السيادة . وليست الاجرام فيه كواكب مستقلة ، وعوالم منفصلة تحرسها نواميسها الخاصة ، أودساتيرها المصنوعة ، بل هي كلها مجموعة واحدة ، تسبح في فلك واحد ، وتدور بناموس واحد ، فطرت معاً ، لتعيش معاً وتموت معاً ... اذا كان لحياتها حد ، ولأزليتها نهاية !.. »

الأيام العشرة(*)

وأخيراً فالقول بأن روح المودة قد سادت جو المؤتمر ، قول لا يستوعب المعنى ، ولا يكشف سوى الجانب الخارجي من المشهد . ان المودة قد حلت فعلا محل ذاك النوع من جفاف اللقاءات الاولى ، بتعبيرها عن نزوع عفوي نحو نشدان مطارح اللقاء ، ومواقف التفاهم ، عن طريق المفاهيم الثقافية التي تمنح الوقائع اليومية ، قيمها الثابتة : أو تربحها عن طريق القيم . وقد قال لي أحد المثقفين العرب ، من أعضاء وفد عربي ، ان دولته التي قدم منها ليست اشتراكية معلنة ، بل انها تتحفظ نحو الاتجاه الاشتراكي السياسي . ولكنه هو ، ليس بوسعه الا ان يوافق على توصيات المؤتمر التي تدعو الى اشتراكية المجتمع العربي ، لان الدعوة الى الاشتراكية هنا ، في مؤداها الثقافي والانساني ، هي دعوة الى اقامة

(*) الأيام العشرة ، ايام مؤتمر الادباء ومهرجان الشعر معاً .

العدل الاجتماعي ، والمساواة ، وليس عربياً من لا يكون بفطرته قبل ثقافته الى جانب هذه القيم السياسية والاخلاقية.

ولقد ادركت ، بهذا القول ، كيف يمكن أن يسمو المنى الثقافي ، بالمفاهيم ، ويجردها من مضاعفاتها الطارئة ، فيعقلها ويؤنسها ، ويحبب انتجاعها ، والمكوث فيها . ومن اجل هذا قلت أن اجل ما في هذه المؤتمرات ، وليس التوصيات ، بل اللقاء ... مجرد اللقاء .

ان هذه اللقاءات نادرة في حياتنا ، لذلك يجب أن تخرجها ندرة وقوعها عن مجرى الحياة اليومية التي كثيراً ما تجري على نسق رتيب وتواتر تنسحق فيه المعاني. ولعلنا واجدون فيها ، هذه اللقاءات ، ليس التعارف ، وتبادل الافكار ، وتصحيح المكتسبات السابقة من آراء ومعتقدات ، فحسب ، بل انها بما تهيؤه من تعايش : من حياة مشتركة مضغوطة ، خلال فترة من الوقت ، تعلمنا كيف نمارس تجربة الاخذ والعطاء ، والتفهم ، والتسامح ، ومنح الخطأ معقولياته ، والصواب مبرراته ، والتفتيش دائماً عن الصيغة المشتركة . لقد حقق الانسان كثيراً من انتصاراته ، متفرداً ، يبقى أن اعظم هذه الانتصارات ما استطاع أن يحققه بالصيغة المشتركة .

هذا هو مادعوته بجو المودة . انها ليست - فقط - مودة اصحاب القربى واللغة الواحدة ، يجتمعون فلا يكادون يصدقون انهم ملتقون . بل هي هذا التعاطف واللين ، وخفض الجناح ، مما يخلقه الوجود الانساني في المرتفعات الفكرية التي وإن لم تكن صلاتها منقطعة بالواقع الاجتماعي والسياسي ، فهي تتحكم به من علية بدلا من أن تكون محكومة له ، منخفضة لتياراته . وهي مرتفعات ان لم تكن موجودة في كل أمة ، بطبيعة التكوين وجب إيجادها بدعوة من الحاجة اليها . لأنها الرصيف الوحيد الذي تخرج منه سفينة نوح ومن معه ، عندما تغضب السماء على الأرض ، ويستوي كل شيء على سطحها باطلا وسديماً عاماً .

. . .

ان الأدب في المعركة... صحيح ، ولماذا لا ! بشرط ألا يفقد الأدب نفسه في

المركة ، فيغدو وكأنه ليس سوى غبار وحديد ، وحطام ..

الأدب في المركة ..!! صحيح ؟! بشرط ألا تقذفه طبيعة القتال الضارية ، فتكون معركة ، بلا أدب !

إن مجموعة من القيم الرفيعة ، تنطوي في جوهر كلمة (أدب) بالعربية : ثقافة ، وتهذيب ، وخلق وعدل واعتدال ، وادعان للعقل . فماذا يحل بالأدب اذا فقد هذه العناصر التي تؤلف طعمه ، وتكون جوهره !!

بالملح يُصلَحُ ما يُخشى تغيُّرُه   فكيف بالملح إنْ حلَّتْ به الغِيَرُ

... ان حديث مؤتمر الأدباء العرب ، لم ينته بعد ! فالى لقاء ما .



فهرس عام

صفحة

نحو علم اجتماع جديد : ٢ : ٤
المستشرق الفرنسي جاك بيرك
ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني

التخلف الاقتصادي ومفهومه المبهم – ٢ – ١٤
بقلم شارل بتلهيم
ترجمة الدكتور هشام متولي

بين الطوبى والطوباويين ٢٦
ورخان ميسر

المنتدى الادبي ودوره في النضال العربي ٣٥
توفيق برو

العجز المالي للامم المتحدة ٤٥
محمد سمير منصوري

الشعر في غزل قومي ٥٤
بن احمد رامي وصالح جودت

ليل أمية « شعر » ٥٥
صالح جودت

حنين الى دمشق من الطائرة « شعر » ٥٦
احمد رامي

لمقة « شعر » ٥٧
الدكتورة عاتكة الخزرجي
– بغداد

بغداد الهوى « **شعر** » ٦١

سليم الزركلي

بغداد « **شعر** » ٦٣

مصطفى جمال الدين

بغداد

الجرح المتجاوب « **شعر** » ٦٨

صالح خرفي

— الجزائر

حول كتاب « مع الشعراء » – ٢ – ٧١

رشيد سليم الخوري

الشاعر القروي « لبنان »

حبيب اسطفان في المهاجر الاميركية ٨٥

جورج صيدح

باريس

البلـــك ٩٨

قصة للكاتب الروماني زكريا استانكو

ترجمة الآنسة دلال حاتم

بيلا بارتوك والموسيقى العربية ١١٠

دراسة في المجرية للكاتب يانوش كارباتي

تعريب : عبد القادر ضللي

كتاب المعرفة

الحياة الاسلامية في الجزائر ١٣١

تأليف جان بول شارنيه

عرض وتقديم المحامي ظافر القاسمي

مقدمة الكتاب ١٣٧

للمستشرق الفرنسي جاك بيرك

عرض وتلخيص المحامي نجاة قصاب حسن